د. منصف المرزوقي

الإنســـــان الحــرام

قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان

طبعة مزيدة ومنقحة

وأنت تعدّ فطورك فكّر بغيرك
لا تنس قوت الحمام
وأنت تخوض حروبك فكّر بغيرك
لا تنس من يطلبون السلام
وأنت تسدد فاتورة الماء فكّر بغيرك
لا تنس من يوضعون الغمام
وأنت تعود لبيتك فكّر بغيرك
لا تنس شعب الخيام
وأنت تنام وتحصي الكواكب فكر بغيرك
ثمة من لم يجد حيزا للمنام
وأنت تحرّر نفسك بالاستعارات فكّر بغيرك
من فقدوا حقهم في الكلام
وأنت تفكّر في الآخرين البعيدين
فكّر بنفسك
قل ليتني شمعة في الظلام

محمود درويش

صدر للمؤلف

الكتابات الطبية

المدخل إلى الطب المندمج :الدرالتونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي **1995** –للأطباء و الطلاّب
دليل المربي في لتثقيف الصحّي : الدار الجزائرية للنشر **1986**

الكتابات السياسية و الفكرية

– *لماذا ستطأ الأقدام العربية ارض المرّيخ* : دار الرأي تونس **1982**
– – *دع وطني يستيقظ* : دار المغرب العربي تونس سنة **1986**
–*في سجن العقل* : أقواس – تونس **1990**
– *الرؤيا الجديدة* : مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان – القاهرة **1996**
– *الاستقلال الثاني*: دار الكنوز الأدبية .بيروت **1996**
– *هل نحن أهل للديمقراطية؟* دار الأهالي –دمشق ***2001***
– *من الخراب إلى التأسيس*–المركز المغاربي –لندن ***2003***
– *عن أية ديمقراطية تتحدثون : دار الأهالي –دمشق* ***2004***

الكتابات الأدبية

الطبيب والموت: الدار التونسية للنشر . تونس **1983**
– *الرحلة :* خمسة أجزاء –دار الأهالي ،دمشق **2001-2003**

En français

–**L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine -edit aternatives .Paris 1979 , Traduction espagnole :El experimentacion en el ombre. ed jugar Madrid 1982
–***Arabes, si vous parliez***. ed , lieu commun. Paris 1987
-La mort apprivoisée –ed, du méridien . Montréal 1990
-Le mal arabe : l'Harmattan- Paris 2004

site internet :www. Moncefmarzouki.net

تقديم

د ف يول يت داغر

هدفت اللجنة العربية لحقوق الإنسان منذ انطلاقتها سنة 1998 إلى تجذير مفاهيم حقوق الإنسان وقيم الديمقراطية في الثقافة العربية والإسلامية بنوع خاص. ذلك انطلاقا من قناعتها بأن النظم السياسية التي نرنو لها لا تقوم إلا على دعامات فكرية متينة وهي حصيلة عملية بناء مستمرة. ولم يكن هذا التوجه إلا الترجمة المنطقية لعطاء الكوادر الفكرية للجنة قبل تشكلها في العقدين الأخيرين. ضمن هذا المشروع يمكن تتبع هذا الوليد الجديد من أعمال الدكتور منصف المرزوقي، والتي حاول عبرها تفحص القيم والأفكار التي بدأت تتداولها المجتمعات المدنية العربية، باحثا عن سبل غرسها في أديم ثقافة مشبعة بمفاهيم وممارسات الاستبداد.

يتجدد في هذا النص هاجس المفكر في تحصين الفكر العربي المعاصر بأدوات وآليات تمكنه من مقاومة الاستبداد في الفكر والسياسة، ويبرز همه في تدعيم تيار التحرر الذي يجتاز تاريخنا مع بقائه لحد الآن عاجزا عن فرض قيمه ورؤاه. فالتحدي الذي يواجهنا اليوم هو إما الدوران في نفس الحلقات المفرغة وإما التجدد الفكري بادماج تقييم صحيح لفشلنا التاريخي ووضع الإنسان في الصدارة بدل اعتباره مجرد آداة لهذه الإيديولوجية أو تلك.

هذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدم قراءة نقدية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، يبين لنا كاتبه بطريقة عرضه لمواده ولكيفية صياغتها إنها وإن كانت نصوصا ذات طابع حقوقي عالمي، فهي مفاهيم أنتجتها مجموعة صغيرة من البشر من ثقافات ومشارب مختلفة. يدخلنا باسلوبه السردي الشيق المدعم بعناصر من وحي خيال واسع ومعرفة معمقة بخفايا النفس البشرية إلى عالم الأشخاص خلال انكبابهم على مناقشة وتحرير نصهم. تتكشف لنا بعض خلفياتهم، ونستنتج أن عملية كهذه لا تخضع لاعتبارات فكرية ونظرية فحسب، بل كذلك ثقافية ونفسية واجتماعية ودينية وسياسية الخ.

ففي أي عمل فكري قيّم أو أية محاولة نقدية له يتوخى المفكر بالدرجة الأولى قدرا كبيرا من الموضوعية. لكن انتاجه يخضع بالوقت عينه، وككل عمل فردي أو جماعي، ليس فقط لغنى التجربة الشخصية وسعة الاطلاع والرغبة بالتفوق على الذات، وإنما أيضا لما يعيشه من اشكالات في هذه الذات تنعكس على انتاجه ورؤيته للعالم وتنظيم أشيائه. فالمرء لا يتصرف فقط انطلاقا من تصور عقلاني للوجود وإنما أيضا من قلبه وعواطفه. يتأثر بما ينطوي عليه وعيه، وكذلك ما هو أهم منه ومن دون أن يدرك، أي مخزونات لاوعيه بما تركته تربيته وطفولته من آثار عميقة فيه. وبالاضافة إلى شخصيات الأشخاص بما تعنيه من رغبات وأهداف وسلوكات وعادات وأدوار يفترض لعبها،

يبقى من غير الممكن تحديد التواصل مع الآخر في هذه الأبعاد، إذ من الضرورة أخذ المكان والحقبة الزمنية بعين الاعتبار. كذلك طبيعة هذه العلاقة والإطار الذي تجري ضمنه.

هذه القراءة النقدية التي يقدمها الصديق منصف في تفكيك نص بهذا الوزن تؤدي لنزع صفة القداسة عنه التي يحب البعض ايلاءها له. ذلك انطلاقا من اعتباره إبن حقبة تاريخية محددة ليس بوسعها أن تقدم اجماعا عالميا يتجاوز السقف الذي جرت ضمنه. كذلك، عمل الكاتب على الاطاحة بعباءته الغربية التي جعلته مشبوها عند قرائه العرب. بدا همه بالدرجة الأولى إظهار صبغته التوافقية العابرة للثقافات، بهدف تبنيه كجزء من تراث مشترك ساهمنا جميعا من مشارق ومغارب الأرض في صياغته. ربما يكون الصديق المرزوقي مبالغا في تفاؤله عندما يريد له أن يكون السند النظري والاخلاقي لهوية عالمية تحتوي المستويات المختلفة للهوية ولا تنقضها.

من البداهة القول أنه ليس من السهل إنتاج نص من هذا النوع يتسم بالعالمية- على الأقل من الناحية الشكلية- ولا يدعيها فقط. اتخاذ هذه السمة كان نتيجة حوار متبادل بين أطراف بعضها أتى من ثقافات غربية، ليبرالية وانكلوساكسونية وأخرى سوفياتية واشتراكية، وبعضها من خارجها، من آفاق متنافرة أكثر منها متجانسة. هذا الحوار، خلق محاولة توفيقية أبعدت المادة عن الإيديولوجية والمعتقد ضمن إطار الحق بالاختلاف واحترام التعددية. من هنا، نفهم أن يجد المؤمن والعلماني، اليساري واليميني، كما كل الثنائيات المختلفة أنفسهم في هذا النص كونهم جزء من كل وكل من جزء.

لقد كان الوضع العالمي بين نهاية الحرب العالمية الثانية و1948، سنة خروج الإعلان العالمي للعالم، محملا بشحنات كبيرة لمناهضة الفاشية والدكتاتورية. ولم يكن يوازيها شئ مشابه في مناهضة الاستعمار، حيث أن البلدان المنتصرة هي المستعمرة (بكسر الميم). لذا نجد غيابا للحقوق الجماعية في نص الإعلان، بالإضافة لعدم تركيز على الحقوق الاقتصادية والاجتماعية. ذلك باعتبارها لم تكن بعد قد أخذت حجمها في البلدان المستقلة حديثا وبلدان معسكر وارسو (سابقا).

تجدر الإشارة إلى أنه في هذه الحقبة التاريخية لصدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لم يكن هناك بالعربية سوى اصدارين متعلقين بحقوق الإنسان: أحدهما ظهر في ساو باولو في 1910 وآخر في سوريا في 1937 وكلاهما لكاتبين لبنانيين هم جميل معلوف (حقوق الإنسان وتركيا الجديدة) ورئيف خوري (حقوق الإنسان من أين وإلى أين المصير؟). لبناني آخر هو شارل مالك كان في فريق العمل على الإعلان. ورغم هذا وذاك لم تلبى دعوة رئيف خوري في سنة 1948 لتشكيل هيئة تعنى بحقوق الإنسان في لبنان. وكان لا بد من انتظار عقدين من الزمن لتحقيق ذلك.

وإن كان هذا حال لبنان المستقل حديثا فكيف هو وضع البلدان العربية الأخرى التي كانت في غالبها مستعمرة؟ بالتأكيد لن يأخذ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حقه في هذه الدول كما يفترض ولذلك جملة أسباب. من أهمها أنه عند خروج الإعلان كان قرار تقسيم فلسطين قد سبقه بعدة أيام، صادرا عن هيئة الأمم المتحدة نفسها التي أصدرت الإعلان ودعمت وجود إسرائيل. مما ترتب عنه إحباط

وأزمة ثقة بهذه الهيئة الأممية، إضافة إلى أن الإعلان لم يتطرق لمسألتي نزع الاستعمار وحق تقرير المصير.

هدف إعلان حقوق الإنسان، الذي كان محصلة صراعات رغم أنه لم يحمل صفة الإلـزام، للخـروج بنص أخلاقي يعتبر حقوق الإنسان قيمة عالمية. لقد اعتقد من كان يعمل عليه بضرورة وجود مـادة مؤسسة تفتح الباب أمام آليات أكثر إلزاما. لكن كان لا بد من انتظار حـوالي عقـدين مـن الـزمن (1966) لتخرج نصوص جديدة لها سمة قانونية وليس فقط إعلان مبادئ. نصوص تتعهد بموجبهـا الدول باحترام الحقوق التي وقعت وصادقت عليها. وقد توالت بعد ذلك مواد مشابهة اهتمت بجوانـب متعددة من الحقوق.

منذ ذلك الوقت حصلنا في فضاء حقوق الإنسان على ترسانة قانونية للحماية لا يستهان بهـا. وكـان البناء أحيانا أسهل من وضع حجر الزاوية. لكن في الوقت عينه كنا وما زلنا نشهد (وربما أكثر فأكثر) انتهاكات جسيمة لهذه الحقوق وعلى كل الأصعدة وتراجعا مقابل التقدم المحرز. لم يكن التقدم الحاصل على صعيد الحقوق السياسية والمدنية موازيا لما تـم فـي إطـار الحقـوق الثقافيـة والاجتماعيـة والاقتصادية. وبدا كأنه على حساب لقمة العيش والقبول باقتصاد السوق وهيمنة الشـركات متعـددة الجنسيات وتحكم البنك الدولي وصندوق النقد العالمي في حياة البشر، وخاصة المغلوب على أمـرهم ضمن علاقات القوة الدولية. فما زلنا حتى اليوم في اللجنة العربية لحقوق الإنسان وشـبكات مختلفـة على الصعيد العالمي نطالب ببروتوكول ملحق للعهد الخـاص بـالحقوق الاقتصـادية والاجتماعيـة والثقافية. ملحق يخرج العهد من العام إلى الإلزام ولو كان ذلك محدودا في كل ما يتعلق بحق الصحة والسكن والغذاء والضمان الاجتماعي والمشاركة في الحياة الاجتماعية والثقافية كما في حق العمـل، باعتبار حقوق الإنسان كل لا يتجزأ.

من ناحية أخرى، التقدم الذي جرى في مضمار حقوق الإنسان لم يصمد بالخصوص أمام أول حـدث نال رمزيا مركز التجارة العالمي في نيويورك. كان ذلك الحدث وما تأتى عنه من نتائج بمثابة زلزال أصاب الجميع، حيث شهدنا تراجعا هائلا على صعيد الحريات، إن في بلـدان الشـمال أو الجنـوب. وكان السؤال: هل قدرنا أنه كلما تقدمنا خطوات علينا أن ندفع ثمنها تراجعا خطوات أخـرى، وكـأن الإنسان لا مفر له من ثنائية الخير والشر؟ هل لزاما علينا أن نواجه انتهاكات جديدة وخروقات جسيمة تعصف بنا من خلال الثقوب التي تركت عمدا في الشرعة الدولية لحقوق الإنسان (عـدم التصـديق عليها، التصديق مع التحفظ، استثناء مواطني بلد معين من التعرض للمقاضاة أمام المحكمة الجنائيـة الدولية، الخ)؟ أليس من الضروري والحال هذه إيجاد ميثاق يتعين تصديق الأغلبية عليه إلزام جميـع الدول به؟ ما العمل كي لا يجري التنصل من قيوده باسم سيادة الدول أو أولوية الخصوصيات الثقافية وغيرها من أعذار ومبررات لا تخدم سوى الطغاة ؟

ألا يستدعي هذا الوضع العالمي وجوب طرح أسئلة دون تسليط سيف الخوف من الإرهاب الفكـــري ودون الحذر من بعض التعابير والمفاهيم باسم احترام الاختلاف؟ لماذا مثلا تحاسب إيران التي وقعت على اتفاقية حظر الأسلحة النووية ولا تحاسب إسرائيل التي لم توقع عليها؟ لماذا يحاكم مواطن مـــن الأردن أو استراليا أمام المحكمة الجنائية الدولية في حين لا يمكن فعل ذلك مع مواطني الدول الكبرى كروسيا أو الصين أو الولايات المتحدة الأمريكية؟ ألا يخلق ذلك عالما منقسما بين مـــا هـــو ملتـــزم بموازاة آخر غير ملتزم تحكمه موازين القوة التي تسعى دائما وأبدا للتملص من التقيد بحـــدود؟ هـــل يمكن للبشرية في المرحلة القادمة أن تستمر بقبول مبدأ القوة على حساب مبدأ العدل؟ ثم هل يحق لمن يدافع عن هذه المفاهيم النبيلة أن يعبث بها بحيث تصبح المغامرة مجهولة المصير والطريـــق غيـــر مضمون النتائج ؟

وكما يعتقد منصف المرزوقي، فإن آليات تصحيح الخلل متوفرة وليس أمامنا ســـوى التعويـــل علـــى طاقات الخلق والتغيير عند البشر من أجل تكوين ثقافة مشتركة تتخطى الخصوصيات الثقافية. ثقافـــة تتكون على قاعدة القانون الدولي والشرعة الدولية والأخلاق والقيم المشتركة للبشرية. فالعالمية هـــي في النهل من كل الثقافات التي هي جزء من التراث الذي يملكه كافة البشر رغم تبايناتهم. خاصة وأننا بتنا نعيش في عالم معولم مترابط يجتازه وعي جديد ومتنامي بالانتماء للعائلة البشرية. انتماء يحـــرّم العنف انطلاقا من انتفاء الخوف من الآخر ووصولا لتحرير طاقات الإنسان وتطـــوير وجـــوده مـــن الطبيعة إلى الحضارة. التجديف في نفس الاتجاه هو فقط ما يمكن أن ينقذ المركب الذي نمتطيه جميعا من الغرق. وليس لنا سوى التفاؤل بقدرة صناع المعجزات على تصويب الدفة. بقـــوة امكانيـــة هـــذه الأقلية المؤمنة بالإنسان على إعطاء المثل بأن الحفاظ على الذات يمر عبر الحفاظ على الآخر واحترام وجوده وكرامته والاغتناء من اختلافه.

د. فيوليت داغر

رئيسة اللجنة العربية لحقوق الإنسان

قراءة في ...

لا جدال في كوننا نعاني ، أكثر من أي وقت مضى من التاريخ ، من سيل عرمرم من المكتوب والمقروء والمرئي و بالغرق في خضم معلومات تهاجمنا كالطوفان ولا نعرف كيف نفرز داخلها الغثّ من السمين.
نحن بالطبع أعجز من التحكم في الظاهرة عبر التمكن في كل النصوص . إلا أننا مطالبون، كما هو الحال في علاقتنا مع البشر ، بمعرفة دقيقة بالقلّة التي تلعب دورا هاما في حياتنا حتى ولو بقيت المعرفة بالأغلبية سطحية أو ظرفية لا لشيء إلا لأننا نعيش دوما داخل شبكة من الأفكار والصور تصنعها نصوص عظمى هي التي تصوغ رؤيتنا لأنفسنا وللعالم وتوجه من أين ندري ولا ندري مواقفنا وتصرفاتنا . أضف إلى هذا أن هذه النصوص تنحت معالم عالم مصنوع من الرموز مثلما هو مصنوع من المادة .

نادرا ما يكون حتى هذا ممكنا إذ لا أحد علّمنا كيف *نقرأ النصوص القليلة التي تلعب مثل هذا الدور.*

قد يحتجّ عليّ البعض بالقول أنني أعممّ وأبالغ ، فالنصوص الكبرى ، خاصة الدينية منها ، معروفة وأشبعت ترديدا من قبل عامّة النّاس.

شتان بين القراءة و الترديد .

قد يقال أن المثقفين مطلعين على كبرى الأعمال الفكرية .

شتان بين القراءة والإطلاع .

ماذا عن بحث أهل الحل والعقد في نصوصهم المقدسة ؟

شتان بين القراءة وما يفعلون.

لنتصوّر العملية الذهنية للمتديّن اليهودي في تعامله مع التوراة ،أو للمتدين المسيحي في تعامله مع الإنجيل، أو للمتدين المسلم في تعامله مع القرآن، أو في كيفية تعامل الشيوعي مع كتابات ماركس ولنيين. ثم لنتصوّر العملية المعاكسة أي قراءة المتدين اليهودي للقرآن وقراءة الماركسي للإنجيل الخ.

و في كلتي الحالتين ، لا يدخل المتديّن، أو الملتزم سياسيا، النص فارغا من كل حكم مسبق. بل بالعكس هو يدخله للتأكّد من أولوية دينه على ما يخالفه من الأديان والمشاركة في جوق المدح أو جوق القدح . لاغرابة في الأمر و التفاعل مع النص محكوم *من البداية* بمقولة "وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساوئ ."

من البديهي أن مثل هذه " القراءة " لا تكتشف النصّ وإنما تبحث فيه عن القناعات المسبقة المبنية على قبول مطلق أو رفض مطلق كانت حاضرة بقوة في الوعي أو اللاوعي، حتّى قبل فكّ رموز الجملة الأولى.

يبقى تعامل عالم لسانيات أو الناقد الأدبي بموضوعيته المزعومة .

وعلى فرض أننا صدّقنا الخرافة الجميلة عن فكر مستقلّ بل ومحايد في الصراعات التي تعصف بالنصوص المؤسسة ، فإننا ندرك بسهولة أن مثل هذه المعالجة الباردة تلغي أهمّ ما في النص أي قوة الإيمان بقضية ما . ثم ما معنى الحياد في القضايا الكبرى التي تعالجها هذه النصوص ، والحال أن كل موقف منها ولو كان الحياد... منحازا.

لا شيء أبعد عن فهمنا للقراءة ممّا يوصف بالموضوعية التي تبدو بمقاييس العصر الهدف الأوحد والأكمل لكل علم جدير بهذا الاسم ، فهي في آخر الأمر معالجة فوقية ، خارجية ، باردة، متباعدة، غير ملتزمة بقضية النص وغير مسؤولة عنه. إن مثل هذه القراءة كتشريح أطرش لسمفونية بتهوفن التاسعة على الورق أو كتبحّر أعمى في دراسة تاريخ لوحة مونا ليزا والأيادي التي تبادلتها وسعرها في البورصة الحالية لسوق الفنّ ،وكلها عمليات بمثابة محاولة فهم عمل الجسم الحيّ عبر تشريح جثة الميت.

إذا لم تكن القراءة إطلاع متصفح الجرائد وترتيل المؤمن وبحث المختص فما هي إذن ؟

*

إنها عملية معقدة تمرّ بمراحل متتابعة نتيجتها رهن بنجاح كل مرحلة على حدة والارتباط السليم بين المراحل و يمكننا تقسيمها كالآتي علما وأنه لا فاصل بينها وإنما تواصل كتواصل الماء في النهر.

الإطلاع

اشتقت اللغة من هذا المصطلح كلمة المطالعة وتقرن عند الجميع تبسيطا بالقراءة والحال أنها مرحلتها الأولى ، وأحيانا الأخيرة ... لأن المطالعة إما قراءة مجهضة وإمّا انطلاقتها.

والإطلاع هو التعرّف على الشيء عبر تسجيل سريع لأبرز معطياته . هولقاء الصدفة بانطباعاته الخاطفة التي قد تصدق وقد تكذب، و التي قد تتطوّر إلى عمليات أخرى تواصل التعرّف وتعمّقه حتى تجعل منه في حالة النجاح معرفة .

وفي مرحلة المطالعة يحدث ما يحدث عندما نقابل عرضا شخصا مجهولا. فإما يمسحه النظر بصفة خاطفة لننساه في اللحظة الموالية أو ننتبه إليه فيتوقف عنده النظر مطوّلا . أمّا الحافز للنسيان أو للانتباه فوعي مبهم بأننا لم نجد ، أو وجدنا ، ما ننتظر.

تدخل القراءة في حالة تأجج الانتباه المرحلة الثانية.

الاستكشاف

توحي لي هذه المرحلة بصورة نزول الغواص، المرة تلو الأخرى، في أعماق بحر بحثا عن كنز مجهول الموضع . من يتصور غوّاصا نزل أعماق البحر وعاد بكنوزه دون تمرين و أدوات وخارطة ؟

إنه بالضبط وضعنا حيث يقع استكشافنا لأغلب النصوص بصفة تخبّرية - empirique - لعدم توفرنا على أدوات جاهزة و تقنيات تعلمناها ممن سبقونا .

وهذه مرحلة شاقة خطرة حيث يمكن أن نغرق في النصّ أو ألا نجد إلا الصدف وليس اللؤلؤ الذي نظن أنه كامن في الأعماق....كما يمكننا اكتشاف كل ما نأمل وزيادة.... و عامل الحظّ هو المحدّد في النجاح أو في الفشل .

لنترك على حدة مؤقتا مسألة تقنيات المعالجة التي سننصح "الغواصين" المبتدئين باعتمادها للتركيز على ما يمكن تسميته شروط " اللياقة الذهنية " لممارسة رياضة خطرة مثل الغوص في النصوص.

إن من بينها التأني والصبر والتحمّل، لكن أوّلها إزالة الغشاء الحاجب الموضوع فوق الأبصار ، هذا الغشاء الذي يعطي" قراءة" العقائدي لنصوصه ونصوص أعدائه .

لكن هل يمكن دخول النصوص بعقلية خالية من كل حكم مسبق؟ نظريا نعم، لكن شتان بين النظرية والواقع...بين الممكن وغير الممكن !

إن الذهن البشري ليس مجموعة من مساحات فارغة تمتلئ شيئا فشيئا بمعلومات تحتل مكانها داخل " فضائه" كما تحتل الملفات أدراج المكتب أو رفوف المكتبات الشاغرة .هو دوما نظام مكوّن من طبقات من المعلومات تراكمت داخله نتيجة تفاعله النشط مع المعلومات التي تتدافع إليه من الداخل والخارج منذ الولادة ، وفق "برنامج" تسيير قد يكون محكوما بالجينات الوراثية، ومن المؤكد أن التربية والتجربة تلعبان دورا هاما في تشكيله .

هكذا ترانا لا نتعامل مع أي إشكالية، مهما بدت جديدة علينا ، إلا انطلاقا من هذا الكمّ الهائل المتغيّر باستمرار من معلومات مخزّنة تراكمت بمر الزمان وتتبادل بينها علاقات بالغة التعقيد . وخلال هذا التفاعل النشط ، ترى الذهن يقارن ويستنتج ، يحذف هنا ويضيف هناك ، يثبّت هذه المعلومة أو يحوّرها يقبل ويرفض. والذهن البشري ايضا مثل مرآة لا تكتفي بعكس الصور التي ترتسم على بلورها وإنما تعيد صياغتها باستمرار وفق حاجياتها المتطورة . لذلك تأتي الصور التي نعكسها لواقع، يبدو واحدا ، جدّ متباينة. لا معنى بالتالي لمطلب دخول النصوص بدون أحكام مسبقة فهذه الأخيرة جزء ثابت مهيكل من كياننا الفكري .لا جدوى إذن في ادّعاء أو محاولة ما هو غير ممكن.

ما المخرج ؟

إنه في الوعي بالوجود الضروري والطبيعي للأحكام المسبقة والانتباه لكونها عميقة الجذور ، قوية الحضور والفعل ، أنها لا تخرج عن نوع أو آخر من قبول أو رفض متقدم على كل حجة واعية ، أنها تستدعى لها كل الحجج في مرحلة ثانية لدعمها حتى يحصل التوافق بين المسبق والملحق .

تأتي بعد هذه العملية مرحلة تجاوز الإشكالية وتكون في اتخاذ موقف يمكن تلخيصه كالتالي: *يا نصّ، رغم سمعتك السيئة لديّ ولدى من حولي سأقرؤك دون إدانة جاهزة.... وما عليك إلا إقناعي.*
أو، *يا نصّ رغم سمعتك الطيبة لديّ ولدى من حولي سأقرؤك دون تساهل.... وما عليك إلا إقناعي.*
إنه بالطبع موقف أخلاقي قوامه فضيلة الفضائل في التعامل مع النصوص أومع الكائنات: النزاهة .
هكذا يمكننا تعريف الأهلية الذهنية للقراءة بأنها تحييد إيجابي متواصل لغشاء فكري مصنوع من أفكارنا المسبقة يتجدّد بسرعة وباستمرار كما يتجدّد الضباب على زجاج السيارة المتوغّلة في أعماق منطقة بالغة الرطوبة .
لا علاقة لهذا الموقف بأي سذاجة أو طهورية .

نحن نعلم أن النصوص مصنوعة من كائنات رمزية أسميّها الفكريات. وهي مثل كل الكائنات الحية الأخرى تجاهد للحفاظ على تواجدها و تحاول توسيع دائرة سلطتها وتصارع لدفع أذى الفكريات الأخرى التي تريد القضاء عليها .
نحن نعلم أنها تستخدمنا لتوسيع مجالها الحيوي وإننا عندما ننقلها للأجيال القادمة نمكنها من تحقيق أكبر مطامحها : غزو المستقبل .
نحن ننطلق من كون كل نص جملة من الأفكار التي ترمي لغزو العقول والقلوب دفاعا عن مبادئ مصالح ومصالح مبادئ فئة معينة من البشر تحركه.

كل هذا حاضر لدينا مثل الوعي بأننا نحن أيضا نريد تفويض من يريد تفويضنا ، استعمال من يستعملنا ، إننا لا نريد الفهم إلا لحسن الاستعمال والتفويض .
الغريب في الأمر أن عملية الإسقاط أي القراءة المفوضة تمارس بكثير من الكتمان و التقية و تستعمل الكثير من أساليب التمويه و الحال انه لا شيء أكثر انتشارا و... شرعية.

التحليل

وحتى تكون حصيلة معالجة النصّ وافرة قلّبه في البداية بعقلية الشاري اللبيب الذي يريد أن يكوّن فكرة واضحة عمّا يرغب في اقتنائه . ثمة دوما وراء هذا التقليب جملة من الاسئلة الواضحة والمبهمة .
أي أسئلة يجب أن نلقي على النصّ وأي أجوبة يجب أن ننتظرها منه حتى نشتري "البضاعة" التي يسوقها أو ننتقل للبحث عنها عند بائع آخر؟
نرتطم هنا بصعوبة منهجية كبرى وهي استحالة وضع جرد آلي من نوع check-list تصلح لكل نص ولكل قارئ. فالقاعدة أن اسئلتنا وليدة تجاربنا المتراكمة في مكتبة الذاكرة ووليدة المشاكل التي نتخبط فيها ووليدة الأهداف التي نجري ورائها . كل هذه العوامل خاصة بالغة الخصوصية مما يؤدي بالضرورة إلى تباين الأسئلة التي نلقيها على النص.
هذا ما يجعل أسئلة هذه القراءة بوصلة كاتب هذه السطور ، يمكن للمطلّع سحب منها ما يراه غير صالح له وإضافة ما يصلح به في معالجة نصوصه ، علما وأنه ليس من الضروري واحيانا من الممكن الردّ على كل الأسئلة ، لكن جودة القراءة مرتبطة بعددها و بجودة الرد عليها.

اسئلة هذه القراءة .

- ما تاريخ هذا النص ، في أي ظروف تبلور، من أي المنابع شرب ، ما هي الجداول التي شكّلته، كيف كان قبل أن يصلنا ؟
- ما موقعه من بقية النصوص الشبيهة لعصره ؟ هل هو في تناسق معها أم في قطيعة ؟ هل هو إضافة لها أم تقليد ؟
- من كاتبه ، ماذا نعلم عنه ، هل لنا إمكانيات الإطلاع على ما قد تحاول الأيادي المؤمنة فسخه من تاريخ هو بالضرورة قاتم ومضيء ؟
- ما الأهداف المعلنة للكاتب وماذا نملك من معطيات حول أهدافه الخفية التي لا يفصح عنها حيث ثمة دوما أهداف داخل الأهداف وأحيانا أهداف داخل أهداف داخل أهداف ؟
- لمن يتوجّه وما الأفكار والمواقف والممارسات التي يريد تغييرها؟

- ما هي أساليبه لفرض أفكاره : قوة الحجة ؟ حجة القوّة ؟ المخادعة؟ استثارة العواطف؟ التوجّه إلى الغرائز؟
- على ماذا يغطّي وما هي المعلومات التي يحاول صرف انتباهنا عنها؟
- أين الحدود والثغرات التي يمكن للصوص النصوص النفاذ منها للاستيلاء عليه وتفويضه لعكس المهام التي حدّدها لنفسه ؟
- ما هي قدرته على شقّ طريقه وفرض وجوده أطول وقت ممكن في فضاء رمزي تتصارع فيه " الفكريات" بنفس الشراسة التي تتصارع فيه الشديات في الأحراش والنباتات في أعماق الغابة الاستوائية. ما الموجود أو ما غير الموجود الذي سيؤدي بالنص يوما إلى سلة مهملات التاريخ في أسوء الحالات و إلى متاحفه في أحسنها .

وبعد مرحلة السؤال لا بدّ من التجريب كما يفعل الباحث العلمي وهو يدرس معدنا من المعادن بتفتيته وسحقه وتسخينه وتذويبه في هذا الحامض أو ذاك. سنعرض لاحقا بعض التجارب الذهنية على نصنا لتفسير هذه النقطة .

أخيرا وليس آخرا يجب وضع النص في الإطار الذي لا تخرج عنه كل النصوص : الموقع من الصراع الأزلي المتعدّد الأوجه والمستويات الذي يهيكل الأحداث التي تصنع نصوصا تصنع بدورها الأحداث التي تصنعها.

يقول ألتوسر: " إنّ كل صراع في النظرية هو صراع سياسي لكن داخل النظرية ".

قد يجادل البعض أن تكون الخصومات بين مدارس رقص الباليه صراعات سياسية مغلّفة. صحيح أن كل شيء ليس سياسيا وإن من يحاول فهم جمال الموسيقى و المعادلات الحسابية على ضوئها مثل من يحاول الكتابة بالملعقة والأكل بالقلم. لكن صحيح أيضا أن السياسة ملتحمة بكل مشاغل الإنسان وهمومه . من يستطيع إنكار البعد السياسي للنقاش المحتدم منذ قرون حول مفاهيم نظرية مثل العدالة والحرية والدين والسلطة والمجتمع والإنسان ؟ من يستطيع إنكار قوة حضور البعد السياسي في أطروحات اليهودية و المسيحية و الإسلام والبوذية أوفي الأعمال الفلسفية مثل الماركسية، أو الأدبية، مثل روايات بالزاك و دستويفسكي وتولستوي أو الفنية في سمفونيات بتهوفن وأوبرات فاجنر ولوحات ميكالنج .

نعم للنصوص الكبرى دوما بعد سياسي بالمعنى العام لمصطلح السياسة، *أي الصراع الذي لا يفتر للاستيلاء والاحتفاظ بالسلطة (الروحية، التنفيذية ، التشريعية الإدارية، الاقتصادية) بغية التحكم في المجتمع ككل أو في بعض مكوناته ، من أجل تحقيق مكاسب فردية أو جماعية، شرعية أو غير شرعية ، تكون عادة على حساب مكاسب الآخرين الشرعية أو غير الشرعية.*

لا يمكن إذن لأي نصّ هامّ يتعامل مع مشاكل الإنسان أن يكون خاليا من البعد السياسي إلا تكلفا ونفاقا تصبح أسئلة المرحلة الأخيرة إذن :أي حاجة سياسية يعبّر عنها النص ؟ أي سلطة أو مشروع سلطة يخدم ؟

التفاعل

المطلوب منا دوما "فهم " النص أي إدراك ما أراد صاحبه التعبير عنه.

لكن ما أراد الكاتب قوله هو آخر ما يعني القراءة ، خاصة وأنّه ليس بقدرة أحد إثبات ما الذي أراد قوله فعلا حيث لا قدرة لأحد على أن يسكن ذهنا آخر ليتأكّد من المحذوف واللامقول والمقصود . إن كل قراءة هي دوما تفسير خاص للنص محكوم بعاملين . الأوّل هو طريقة الذهن في إضاءة كل ما يدخله حسب تشكيله من قبل النصوص المتقدمة على هذا النص . والثاني هو هدف هذا الذهن الذي يقيم ما يقرأ حسب تجاوب النص مع حاجياته الواضحة أو المبهمة.

اضف إلى هذا إن حتى الفهم بالمعنى الساذج ليس هدف القراءة الحقيقي وإنما وسيلتها . إن قيمة النص ليست في ملء "فراغ " الذهن بكلام الآخر بقدر ما هي في قدرته على إحداث تغيير ما داخل الذهن المتلقي قد تصل حد ثورة كاملة تعيد ربط وتبويب وترتيب سلم المعلومات بخصوص إشكالية ما.

معنى هذا أن القراءة هي أساسا عملية توليد جملة من الأفكار والمشاعر داخل ذات معينة . وعندما تنجح فإنها *تبلور أحسن ما في النصّ – بما هو قوة حافزة على التفكير والشعور الراقي - وأحسن ما في القارئ*

ـبما هو عنصر خلاق جديد فتحت داخله الفكريات فضاء جديدا لتطورها . هكذا يولّد تفاعل فكرين التقيا في فضاء الرموز وتبادلا في صمت القراءة وخشوعها أفضل ما لدى كل واحد .

أما خلاصة كل العملية فهي تقييم مبهم أو واعي يؤدي إلى قبول النص نظرا لنقط القوة فيه، معان ومنهجية، أحيانا بالرغم من قلة التعاطف المبدئي معه...أو رفضه نتيجة نقط الضعف فيه، معان ومنهجية، أحيانا بالرغم من شدّة التعاطف المبدئي معه.

الهامّ في الأمر أن الذهن الذي يلعب دور الرقيب ودور المنظّف ودور الحارس ودور مصلح المخطوطات المعطوبة ، سينفذ حيثيات الحكم . هو إمّا سيرمي بكل القراءة في سلّة المهملات إذا صدر الحكم بإعدام النصّ .لكنه يفضّل عادة الاحتفاظ ببعض المقاطع علّها تصلح يوما.

أمّا إذا كان الحكم لصالح النصّ فإن الكتابات المكلفة بالتنظيم والتبويب ستهرع لرفوف كاملة من المكتبة تغيّر تنظيمها محيلة نصوصا كانت إلى حدّ اللحظة مركزية إلى سلة المهملات ...لتأخذ الأفكار الجديدة بزمام الأمور.

كم صدق من قال أنه" للنص دوما مؤلفان : الكاتب والقارئ ".

تجدّد الحاجة للنصوص.

نحن لا نقرأ للترف والتسلية ، حتى ولو كانت الكتب التي بين ايدينا روايات بوليسية . نحن لا نقرأ إلا بحثا عن المعلومات والعلامات لتدلنا على الطريق .

يعبركل واحد منّا العالم كأعمش يبحث عن وجهته وسط الضباب. فالمعلومات عن الأهداف والوسائل ناقصة ومتضاربة ومجزّأة ، والخرائط قديمة أو غير متوفّرة . أما الطريق فهو يتحرّك طول الوقت مغيّرا اتجاهه بصفة غير مفهومة، يسلمنا تقاطع طريق مفاجئ إلى تقاطع طريق غير متوقع.

عن الأدلة حدّث ولا حرج . أغلبهم تائهون أكثرمنّا وكثيرا ما نكتشف وقد وصلنا آخر الطريق أن بعضهم كانوا من أخطر الدجالين . هكذا نتقدم غالب الوقت مدفوعين من الخلف بقوى مجهولة ومجذوبين على الأمام بقوى أكثر استعصاء على الفهم . هكذا نقضي العمر نبحث عن المعلومات الصحيحة والخرائط الصحيحة والأهداف الصحيحة والأدلة السوية وقلما نجد.

وعندما نكتشف النصوص و نستولي عليها وندمجها في المكتبة التي توجّه ملاحتنا المضطربة فوق أمواج الحياة ، فإن ما يحصل *هو تغيير متفاوت العمق في مشاعرنا وافكارنا بحسب قيمة النص وقدرته على صياغة مواقف وتصرفات جديدة أكثر نجاعة في تعاملنا مع أحوال وأوحال العالم.*

كم منّا صاغ هذا النصّ او ذاك، واحيانا جملة واحدة من نصّ ، طريقة تعامله مع نفسه ومع الآخرين؟

إنها معجزة الأفكار ، هذه الكائنات الحية غير المحسوسة التي تتحكم في كل مظاهر حياتنا المحسوسة.

ها قد تغيّر جزء كبير أو متناه الصغر في طريقة تفاعلنا مع العالم وفعلنا فيه .

لكنه لا يوجد نصّ يستنفذ حاجتنا من العلامات والمعلومات ، فالعالم الأهوج لا يكفّ عن الحركة والتغيّر. تتخشب يوما كل الفكريات وتتحجر وتتكلس وتفقد رحيقها ونضارتها. ترفض الموت....عبثا لأن النصوص، مثل البشر و الحيوان و النبات ، سواسية أمام سيد القوانين : لا خلود لشيء او أحد .

أنت لا تعلم و المولود الجديد قد نزل لتوه من بطن أمه بأي حادث أو مرض سيلقى حتفه إلا أنك تعلم أنه مبرمج للفناء مهما طال به العمر.تنقرض النصوص يوما شأنها في هذا شأن الكائنات البيولوجية لأسباب عدة ... بأمراض مختلفة وبسرعة متفاوتة.

ثمة كثير من التقنيات الفاشلة على الأمد البعيد لإطالة عمر نصوص أصابها العته، تمر كلها بنوع أو آخر من الغلق .

ومن تقنيات غلق النص أن تتعامل معه على أساس أن فحواه حقيقة منزلة أو منقولة عن دفتر الطبيعة ومن ثمة مطلقة ، كاملة ، أزلية ليس للزمان عليها سلطان. وللحفاظ على هذا الوهم أطول وقت ممكن أبعد عنه كل جدل أو نقاش،أحطه بهالة من القداسة ، بشّر أصحاب الخوض فيه بالتشكيك أو النقد بعذاب أليم، إضمن غلقه بجملة من الأوامر و النواهي تربط بمصالح فئة تقايض دفاعها عن الغلق بجملة المنافع المحسوسة و عبئ المراهقين والجهلة بالعنف ضدّ من يرون في غلق النص موته.

لكن أثرى قراءة هي التي تفتح نصوصا أغلقت كل الأبواب والنوافذ وأقامت المتاريس حولها.

ارفض لها أدعاء العصمة لاستنادها على أي سلطة توضع خارج مجال التقييم . لا تتوقف عند ما تحيط بها نفسها من هالة من القداسة ، فهذه حيل تنم عن ضعف ولا بدّ أن تستثير فيك شهوة إعمال الأظافر والأنياب فيها . إن أجمل أنواع الحرية تلك التي نمارسها تجاه كل النصوص وخاصة التي قرّرنا لمرحلة ما اعتمادها كحقيقة مؤقتة أو كفرضية مركزية . لكن حذار من ترك المؤقت يصبح ديمومة ومن الخلط بين الفرضية والنتيجة. يتطلب الأمر انتباها دائما وحذرا مستديما تجاه نزعتنا الطبيعية للكسل واللذات المسمومة التي يوفرها . هكذا تتواصل مغامرة الذهن في عالم متجدّد الشباب وهكذا يمكن   تواصل البحث للتأقلم والتطبّع النجاح في رفع التحديات المتجدّدة .

معنى هذا أن النص، مهما علا واكتمل، هو بالضرورة جزء من كلّ و لحظة من بحث فردي وجماعي عن العلامات والمعلومات لن يتوقف إلا بتوقف الحياة.
إنها القاعدة التي فهمها صاحب مقولة " تتناهى النصوص ولا تتناهى أحوال الناس ".
إنّ أثرى نص هو الذي لا يقيدنا ، الذي يحق لنا مناقشته ، نقده ، السخرية منه ، رفضه ، قبوله بعد تحويره ...و لا من يكفرنا. وهذا نص يطلب منا ممارسة حرية الرأي و التعبير أي حرية النقد والتقييم دون أن يضع نفسه خارج مدار هذه الحرية .هو يقبل ضمنيا أن نقرأه كما نشاء، أن نمارس عليه و ضده إسقاطات آلامنا و آمالنا , أن نفوضه لمنافعنا و مصالحنا ، دون خشية أو شعور بالذنب .
إذن ثمة نصوص ما قبل هذا النص الذي لا شكّ أنه أهم نص جاد به القرن العشرين . وثمة وبالضرورة نصوص ما بعد هذا النص والويل لمن يتوقف عند أي نص يقول هذا نص ما بعده نص لأنه مثل القائل هذا جمال ما بعده جمال وهذا طفل ما بعده طفل.
لذلك أمرنا بالقراءة بما هي عملية لا تنتهي ...بما هي بحث لا يتوقف إلا بتوقف الحياة .

***

2- قراءة في الإعلان ...

تنطلق القراءة من العنوان ومن مصطلحاته باعتبارها بوابات تحيلنا كل بوابة لجزء هام من فضاء النصّ وأوّلها مصطلح الإعلان .

لا نسمع المصطلح إلا وتتبادر للذهن صور الحرب و حالة الطوارئ و حظر التجوّل و نتائج الانتخابات والحداد الوطني وبزوغ فجر الاستقلال و بداية رمضان أونهايته ....اي صور أحداث بالغة الأهمية والخطورة ينبهنا الإعلان لوقوعها أو يحذرنا منها أو يدعونا إليها .
والإعلان بمعناه المتداول في اللغة خطاب رسمي ،علني ، موجّه للعموم من قبل سلطة عليا ، يتميّز من ناحية الشكل بالاختصار ، بالتركيز ،بالاقتضاب ، بالاقتصاد في استعمال الكلمات ، كأن شعاره خير الكلام ما قلّ ودلّ.
وإعلاننا من هذه الناحية منضبط كليا لمتطلبات النوع . هو لا يتجاوز أربع صفحات فيها بالضبط 1356 كلمة تنهي رسالتها في 166 سطر لا أكثر .
وفي مثل هذا النوع من الخطاب تلبس اللغة بالمناسبة ملابسها الرسمية لتنضح الكلمات بالهيبة، بالجلال وبالوقار، بالتعالي والمهابة ،بالحزم والعزم .
هو أيضا فحوى وليس فقط شكل واسلوب .
ثمة شيء متميز في فحواه لا نجده في الإشهار والنكتة والخبر والقصيدة لأن فيه ٍ لفت انتباه ، تذكير ، تحذير ، إفصاح عن موقف ، عن قرار ، عن أمر لا جدال فيه.
أي خبر هائل يعلن عنه الإعلان ستنجرّ عنه عظيم الأفعال ؟ أي أفعال عظيمة قرّرت السلطات العليا تنفيذها وستكون محور كل الأخبار ؟
إن أقصر طريق للردّ على السؤال إعطاء الكلمة للنصّ .لكن على فكرة أين هو ؟
ليتصور قارئنا الكريم نفسه طالبا يبحث عنه لإعداد فرض مدرسي أو بحث معمّق في مادة مقرّرة اسمها حقوق الإنسان.
سيكتشفه إذا توجّه لأحسن مرجع عربي في الصفحة...... 546 في موسوعة "الإمعان في حقوق الإنسان"(1) ماذا لو جعلناه يبحث عنه في المراجع الفرنسية؟ سيكتشفه في ......الصفحة 767 من موسوعة فرنسية تتعامل مع الموضوع (2) .
إنها قاعدة عامّة : نص نصوص هذا العصر موجود على الدوام كملحق في أي كتاب يتحدث عنه أو باسمه .
ولقائل أن يقول، وقد اشتمّ مني سوء النية، أن الكتب والمراجع التي أشير لها ليست عن الإعلان وإنما عن فكر حقوق الإنسان . لكن الإعلان هو النص المؤسس لهذا الفكر. فكيف يوضع إذن في المراجع ؟ أليس الأمر بغرابة إسكان صاحب البيت في بيت الصابون الذي على السطح وترك الصالون وبقية غرف البيت للمتحدث باسمه ؟
تبدأ القراءة إذن من تسجيل مكان- مكانة النصّ وأنه "مرميّ" في المراجع والملاحق بين بعض الوثائق التاريخية المعدّة لظهوره مثل "إعلان حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية" (الموجود هو الآخر في صفحة .... 451 في موسوعة مناع) والإعلانات المختصة الوثائق المكمّلة له .
ونحن غير مطالبين الآن بالبحث عن تفسير للظاهرة وإنما بالتنبيه و بالانتباه لها.
وحتى لا ننهى عن المنكر ونأتي بمثله، علينا التوقف حالاً عن الحديث عن نص يجب أن نصغي إليه لا أن نتكلّم بدله، وبعد الإصغاء إليه أن نترك فضاء من الصمت قبل الدخول في عملية التعليق.

----

1 الإمعان في حقوق الإنسان"-هيثم منّاع – دار الأهالي –دمشق 2000

2-Les droits de l'homme- anthologie composée par Christian Biet, imprimerie -nationale 1989

صاحب الجلالة النصّ

لما كان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم ومن حقوق متساوية و ثابتة تشكّل أساس الحرية و العدل و السلام في العالم . ولما كان تجاهل حقوق الإنسان و ازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال أثارت بربريتها الضمير الإنساني , و كان غاية ما يرنو إليه البشر انبثاق عالم يتمتعون فيه بحرية القول و العقيدة و بالتحرر من الخوف. و لما كان من الأساسي أن تتمتع حقوق الإنسان بحماية النظام القانوني إذا أريد للبشر أن لا يضطروا آخر الأمر إلى اللياذ بالتمرد على الطغيان و الاضطهاد .
و لما كان من الجوهري العمل على تنمية علاقات ودّية بين الأمم .
و لما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أعادت في الميثاق تأكيد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية و بكرامة الإنسان و قدره و بتساوي الرجال و النساء في الحقوق , و حزمت أمرها على النهوض بالتقدم الاجتماعي و تحسين مستويات الحياة في جو من الحرية أفسح.
و لما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون بالعمل مع الأمم المتحدة على ضمان تعزيز الاحترام و المراعاة العالميين لحقوق الإنسان و حرياته الأساسية .
و لما كان التقاء الجميع على فهم مشترك لهذه الحقوق و الحريات أمرا بالغ الضرورة لتمام الوفاء بهذا التعهد .
فإن الجمعية العامة : تنشر على الملأ هذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بوصفه المثل الأعلى المشترك الذي يجب أن تبلغه كافة الشعوب و كافة الأمم، ليسعى جميع أفراد المجتمع وهيئاتهم، واضعين هذا الإعلان نصب أعينهم على الدوام , ومن خلال التعليم و التربية ، إلى توطيد احترام هذه الحقوق و الحريات , ويكفلون ،بالتدابير المطردة الوطنية و الدولية، الاعتراف العالمي بها و مراعاتها الفعلية فيما بين شعوب الدول الأعضاء ذاتها و في ما بين شعوب الأقاليم الموضوعة تحت ولايتها على السواء .

المادة الأولى
يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق وقد وهبوا عقلا وضميرا وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء.

المادة الثانية
لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة دون أي تمييز كالتمييز بسبب العنصر أواللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو البلاد و دون تفرقة بين الرجال والنساء.

المادة الثالثة
لكل إنسان الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الرابعة
لا يجوز إسترقاق أو استعباد أي إنسان ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعها.

المادة الخامسة
لا يعرّض أي إنسان للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.

المادة السادسة
لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف له بشخصيّته القانونية.

المادة السابعة
كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متساوية ضد أي تميز يخلّ بهذا الإعلان وضدّ أي تحريض على تمييز كهذا.

المادة الثامنة
لكل إنسان حق الالتجاء إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.

المادة التاسعة
لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفيا.

المادة العاشرة
لكل إنسان الحق ،على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن ينظر في قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا للفصل في حقوقه والتزاماته وأي تهمة جنائية توجه له.

المادة الحادية عشر
- كل إنسان متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن تثبت ادانته قانونيا في محاكمة علنية تؤمّن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه.
-لا يدان أي إنسان متهم بجريمة نتيجة أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرما وفق القانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب ، كذلك لا توقع عليه عقوبة اشدّ من تلك التي كانت سارية وقت ارتكاب الجريمة .

المادة الثانية عشر
لا يجوز تعريض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة وفي شؤون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات تمسّ من شرفه وسمعته ، وله الحق في حماية القانون من مثل هذه التدخلات والحملات.

المادة الثالثة عشر
لكل إنسان الحق في حرية التنقل واختيار محل اقامته داخل حدود كل دولة ويحق له أن يغادر أية بلاد بما في ذلك بلده كما يحق له العودة إليه .

المادة الرابعة عشر
لكل إنسان الحق في اللجوء إلى بلاد أخرى أو محاولة الالتجاء إليها هربا من الاضطهاد ولا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة من أجل قضايا غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة الخامسة عشر
لكل إنسان الحق في التمتع بجنسية ما ولا يجوز حرمانه من جنسيّته تعسفا أو إنكار حقه في تغييرها.

المادة السادسة عشر
للرجل أو المرأة متى بلغا سن الزواج الحق في تأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.ولا يبرم عقد الزواج إلاّ برضا الطرفين رضا كاملا لا إكراه فيه. والأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها الحق في التمتع بحماية المجتمع والدولة .

المادة السابعة عشر
لكل إنسان الحق في التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره ولا حق لأحد في تجريده من ملكه تعسفا .

المادة الثامنة عشر
لكل إنسان الحق في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير الدين أو العقيدة وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء كان بمفرده أو مع الجماعة وأمام ملأ أو على حدة.

المادة التاسعة عشر
- لكل إنسان الحق في حرية الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأي وسيلة كانت ودون تقيد بالحدود الجغرافية.

المادة العشرون
لكل إنسان الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية ولا يجوز إرغامه على الانضمام إلى جمعية ما.

المادة الحادية والعشرون
لكل إنسان الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإمّا بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرّا وله نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد . إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة ويعبّر عن هذه الإرادة بانتخابات حرة نزيهة تجري على أساس الاقتراع السرّي وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

المادة الثانية والعشرون
- لكل إنسان الحق، بصفته عضوا في المجتمع، في الضمانة الاجتماعية و أن تحقق له بواسطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامته والنمو الحرّ لشخصيّته.
- لكل إنسان الحق في العمل وفي حرية اختياره وفي شروط عادلة ومرضية كما له حق الحماية من البطالة وعدم التمييز في أجر متساو للعمل وله الحق في أجر عادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه عند اللزوم وسائل أخرى للحماية الاجتماعية وله الحق في أن ينشئ وينضمّ إلى النقابات من أجل حماية مصلحته.

المادة الرابعة والعشرون
لكل إنسان الحقّ في الراحة وفي أوقات الفراغ ولا سيما في تحديد أجر معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر .

المادة الخامسة والعشرون
- لكل إنسان الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة.
- وله الحق في تأمين معيشي في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.
وللأمومة والطفولة الحق في المساعدة والرعاية.
- ولجميع الأطفال حقّ التمتع بنفس الحماية الاجتماعية سواء كانت ولادتهم في إطار الزواج أو خارجه .

المادة السادسة والعشرون
لكل إنسان الحقّ في التعليم ويجب أن يكون التعليم في مراحله الابتدائية والأساسية على الأقل بالمجّان.
ويكون التعليم الابتدائي إلزاميا.
وينبغي أن يعمّم التعليم الفني والمهني وأن ييسّر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة للجميع وعلى أساس الكفاءة.
ويجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملا وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح بين الشعوب والجماعات العنصرية والدينية وإلى تعزيز مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام . وللآباء الحق الأول في تربية أولادهم .

المادة السابعة والعشرون
لكل إنسان الحقّ في الاشتراك اشتراكا حرّا في حياة المجتمع الثقافية وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه وله الحقّ في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الفنّي أو الأدبي.

المادة الثامنة والعشرون
لكل إنسان الحقّ في التمتع بنظام اجتماعي ودولي تتحقّق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاما .

المادة التاسعة والعشرون
- على كل إنسان واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيّته أن تنمو نموا حرا كاملا.
-لا يخضع أي شخص في ممارسة حقوقه وحرياته إلا لتلك القيود التي يقررها القانون مستهدفا لأمنها منها ضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها لتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي، و لا يصح بحال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها .

المادة الثلاثون
ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخوّل لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه.
انتهى

3 - قراءة في الإعلان **العالمي ....**

أما وقد وفيّنا النص قدره ووضعناه في الصدارة واعترفنا أنه هو -لا التعليق- مركز الثقل في الكتاب ، فإنه يحقّ لنا الآن معالجته بمنتهى الحرية ووفق المقاييس التي اخترناها، لا يهمّنا أن يعاب علينا نقصا في الموضوعية، بما أننا نطعن في جدوى وشرعية مفهوم هو في أحسن الأحوال سذاجة وفي أسوأها طريقة خبيثة لتغليف أكثر الآراء ذاتية.

وفي البداية نحن لا نفهم سبب وجود كلمة الإعلان في العنوان . فالإطلاع الأول لم يظهر في النص إلا جملة من النوايا الطيبة والمبادئ العامة ولم يسمح لنا باكتشاف الفعل العظيم والخبر الهائل المفترض وجوده في كل إعلان جدير بهذا الاسم .. اللهم إلا أذا قبلتم مني إعلانا عن آمالي بخصوص تخليص العالم من كل مشاكله و جردا لكل نواياي الطيبة بخصوص الموضوع .

يخامرنا نفس الشك في حسن استعمال الكاتب للمصطلحات ونحن في مواجهة المصطلح الثاني في العنوان : العالمي !

يا لسعة الطموح ! يا لقلة التواضع ! وايضا يا لقلة الدقة في استعمال الكلمات !

يشدّك أحيانا كتاب عنوانه مبادئ الفلسفة...هكذا بكلّ بساطة . تفتحه متشوّقا لتفاجأ بأنك أمام نصّ لا يوجد فيه حرف واحد عن الفلسفة الهندية والصينية والعربية ناهيك عن فلسفة البانطو والقبائل الأمازونية . بداهة "نسي" المؤلف المحترم ، من فرط مركزيته الثقافية وضيق أفقه الفكري ،أن يكتب العنوان الأكثر تواضعا - و الأصحّ - أي تاريخ الفلسفة *الغربية* .

إنها نفس الظاهرة في العنوان حيث "نسي" كاتب النص القول أنه يتوجه لا لعالم الحيتان* والغزلان والدلافين والنسور وإنما لعالم محدّد بين العوالم هو عالم الآدمية.

نكتشف بالتمحيص الدقيق للنص أنه يجب فهم لفظة "العالمي" على ثلاثة مستويات .

أما الأول فيتعلق بطبيعة المعلن إليه .

بداهة لا يتوجه الإعلان للرجال دون النساء ولا لشعب بعينه اختاره المعلن من بين كل الشعوب، أو لعرق يؤمن بتفوقه على بقية الأعراق ، أو لأمّة حمّلها هداية أمم لم تطلب منها شيئا من هذا القبيل .هو يتوجّه إلى العالم الآدمي بكل أشخاصه ، عائلاته ، قبائله ، شعوبه ، أممه ، أعراقه ، دياناته وحضاراته.

هذا ما يفهم بسهولة أمام تتابع عبارات " جميع أعضاء الأسرة البشرية " و" المثل الأعلى الذي يجب ان تبلغه *كافة* الشعوب و*كافة* الأمم "، ناهيك عن تردّد عبارة "*لكل* إنسان" بغض النظر عن " العنصر واللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو البلاد أو دون تفرقة بين الرجال والنساء"

المشكلة أن من له حق التوجه للبشرية جمعاء لا بدّ أن يكون إمّا إلها أو على الأقل نبيّا . فهل ثمة نبي جديد يختفي وراء الإعلان و في هذه الحالة ترى أي إله جديد يخدم ؟

يحيلنا الأمر لهوية المعلن وهو أمر لم يلفت انتباه الكثيرين ممن تعاملوا مع النص بالإطلاع وحتى بالتمحيص.

----------- .

*الإعلان باللغة الانجليزية هو Universal Declaration of Human Righs وباللغة الفرنسية **Déclaration Universelle** des droits de l'homme . *تعطي الترجمة الدقيقة للكلمة الفرنسية Universelle أو الانجليزية Universal الإعلان ....الكوني لحقوق الإنسان ....اصطفوا يا سكان كواكب مجرة العقرب.*

ألا يبدأ كل إطلاع برصد عنوان النص واسم كاتبه؟ غريب هذا النص الذي لا يفصح عن هوية صاحبة . كل ما نعلمه أننا أمام وثيقة أصدرتها يوم 10 ديسمبر 1948(بالتقويم المسيحي الغربي للزمان) منظمة تسمي نفسها بكثير من التفاؤل الأمم المتحدة .

يبدأ تفكيك الإشكالية بالتساؤل عن المستكتب الممسك بالقلم لترجمة أفكار الأمم المتحدة لأننا نعلم جميعا أن كيانا مبهما لا يكتب النصوص وإنما هناك بالضرورة بشر وراء العملية يستعملون غطاء فضفاضا ؟

لا بد أن يكون داخل هؤلاء البشر مستكتتب رئيسي لعب دورا رئيسيا في صياغة النص . ترى من يكون؟

يخيل لي في منتصف الثمانيات أن البحث في الموضوع مكّنني أخيرا من وضع اسم على المستكتب المخفي . كان من الضروري أن اقصده لأتحصّل منه على شهادة لا تقدّر بثمن والرجل ، الذي عايش الحدث الجليل لأربعين سن خلت ، عجوز يمكن ان تختطفه يد المنايا في كل لحظة.

يستقبلني Jhon Humphrey باسما ومرحبا في بيته بمدينة "أوطاوا " .أفاجأ بأن الشيخ المهيب مقطوع الذراع الأيمن نتيجة حادث إبان طفولته . يا له من فأل لا يبشّر بخير!

يجيب الرجل اللطيف بهدوء ممزوج بشيء من السخرية على كل أسئلتي ثم يبادرني : بما أنّك قرأت كتابي * بمثل هذه الدقة فما الذي تريد معرفته بالضبط وتلفّ حوله منذ بداية اللّقاء ؟

يوحي الرجل من خلال كتابه أنه جندي خفاء مهضوم الحق وأن رجلا آخر سرق منه غلة العمر ، فكيف سيقبل سؤالا قد يفهمه على وجه الخطا ؟

قلت : المعروف أن كل العملية انطلقت من لجنة بثلاثة اشخاص هم أليانور روزفلت وروني كاسان وشارل مالك. ماذا عن إدّعاء البعض أن الفرنسي كاسان هو كاتب النص ، لذلك نال عليه جائزة نوبل للسلام. لقد قرأت له مقالا يكرّس فيه هذا الاعتقاد الشائع ...بالإيحاء طبعا ، لكن بما يفي من الوضوح . مما أدهشني قوله أنه استمدّ هيكلية النصّ من التوراة وكنت أتوقع أن يركز على ما يدين به لنص

" إعلان حقوق الإنسان والمواطن" للثورة الفرنسية أو لنص "الماجنا كرتا" ؟ هل الرجل مدّعي نبوءة جديد و هل الإعلان صدى لتواصل شهوة الدين عند إنسان العصر بل هل ممكن القول أن البشرية بأسرها تجسّد في هذا النبي المجول ؟

قال: ليس للإعلان العالمي لحقوق الإنسان أب كما هو الحال بالنسبة لإعلان استقلال الولايات المتحدة الذي كتبه جفرسون. إنّه ثمرة أعمال ما لا يحصى من الأشخاص ، من اللجان ، من الهيئات المختصة في الوزارات الوطنية ، من المنظمات غير الحكومية . إن إشعاعه مستمدّ من انعدام التشخيص هذا .

- لكن ماذا عن المسودّة الأولى ؟ لا بدّ أن أحدا كتبها .

- أنا الذي بدأت العمل فيها مع إميل جيرو غارفا من عدة مشاريع فردية و دولية منها مشروع قوستافيوا فيترايز و الفرادو الفاو و ايرفنغ ايراكس وولفريد بارسوتي وررولن مالك و الفيكومت سانكاي و هرست لوترباخت و هولز، والعديد من المنظمات كالجمعية الأمريكية للأمم المتحدة، والمؤتمر اليهودي الأمريكي، و جمعية المحامين الأمريكيين، و معهد القانون الدولي، و المنظمة الدولية للبيئة . ثم تواصلت "مجرّد " مستكتب أتلقى الاقتراحات واصيغها وأعرضها على حضرات الممثلين ....إلى حدّ الصياغة النهائية.

وحيث أن الزيارة كانت للمجاملة وليست لاستجواب صحفي ،فإنني فضلت ألاّ أثقل على الرجل الطيب بأسئلتي وأن أعود للتفاصيل التي ضمّنها في كتابه الضخم .

----

*Jhon Humphrey La grande aventure –Edition Quebec- Montreal 1984

إذن بدأ النص كجملة من من المسودّات صاغتها لجان لا تحصى منها التي ساهم فيها مضيّفي .

عن الشاهد قوله :

" خصصت لجنة الصياغة أحدى وثمانين حصة ودرست مائة وستة وثمانين مقترحا . حصل قبل هذا نقاش معمّق ساهم فيه تسعة وخمسون وفدا، تلاه نقاش آخر مطول حول الإجراءات ،كل هذا قبل أن نشرع في كتابة الصيغة النهائية للإعلان ."

قبل أن نشرع في كتابة النص ! على من يعود نون الجمع ؟

لا ترصد حتى شهادة همفري إلا بعض الوجوه ...مجرّد عينات لأشخاص عديدين لم ولن يحفظ التاريخ اسمهم . ترى أي شخص كان البريطاني شارك ديكوس،والبرازيلي فليس نيتودل ريو، والمصري عصمان عبيد،والإيراني غسان غاني، والبانامي جرمان قوارديا واليوغسلافي فلاسداف رينيكان، و الإرقوايي خوزي مورا، و الشيلي سنتاكروز، و الروسي كروتسكي و هانساميتا الهندية وحتى اليانور روزفلت المرأة التي لم تكتب حرفا لكنها سهرت على ولادة النصّ كما تسهر الأم على ولادة ابنتها للحفيد الذي طال انتظاره.

يتكثف الغموض حول كاتب يبدو أخطبوطا بألف ذراع.
من حسن الحظّ ، أنه بقدر ما تغيب الأوصاف الحسية للوجوه و القامات والملابس، بقدر ما تحفل شهادة همفري بالمعطيات النفسية للكاتب المتعدّد الوجوه والأيدي
يوصف شانج الصيني بأنه صارم و صريح و في نفس الوقت بأنه معتدل . أما مندوب استراليا فعسكري برتبة كولونال و من ثمة حزمه المفرط وتشدّده بخصوص مطلب احتواء الوثيقة على بند يقضي بفرض عقوبات صارمة على الدول التي لا تطبق بنود الإعلان .

يبدو العربي شارل مالك من خلال الشهادة صعب المراس سريع الغضب ، دغمائيا ، متحجرا ، ذهب في دفاعه عن الحرية الفردية المطلقة إلى حد القول أنه لا يجوز التنصيص على منع العبودية لأن في هذا تعديا على حق من يريد أن يكون عبدا .*

يتلاقى ديكوس البريطاني لأنه نقابي، و الروسي كورتسكي لأنه شيوعي ككل الموظفين الروس في تلك الحقبة من تاريخهم ، في رفض منطق بالغ التعالي على المجموعة .

- عن أي إنسان يتحدث شارل مالك ؟ أي فرد هذا الذي يريد أن يفرض مصالحه في المطلق وأولويته في المطلق على المجموعة التي ينتمي إليها و التي لا يوجد إلا بوجودها ؟

يغالي كروتسكي في التشبث بالموقف المعاكس لأنها احدى تقنيات البيع و الشراء . يصيح أنه لا قيمة للفرد إلا بالمجموعة التي ينتمي إليها وأنه لا أهمية أن يعترف له الإعلان بترهات ميتافيزيقية إن لم يضمن له العمل و الصحة و التعليم و السكن اللائق .

تعطينا تفاصيل الشهادة صورة عن كاتب جماعي بالغ العصبية والتشنج وفي صراع طول الوقت مع أفكاره .ترجعنا قضية تناقضاته إلى معظلة هويته الحقيقية.

من هم في آخر المطاف مدبجي الإعلان ...على الأقلّ الذين حفظت الشهادات اسمائهم وطباعهم ؟ من هم شارك ديكوس و فليس نيتودل ريو وعصمان عبيد وغسان غاني وجرمان قوارديا وفلاسداف رينيكان وخوزي مورا وسنتاكروز وكروتسكي و هانساميتا ؟

----

*The challenge of human rights – Charles Malik and the Universal Declaration-edited by Habib C.Malik – Charles malik foundation 2000

هم يمثلون أنفسهم طبعا وهذا أمر طبيعي فالبشرية مكونة من بشر أحيانا جد مختلفين وهذه عينة فيها جل اختلافات البشر.
لكنهم لا يمثلون فقط أشخاصهم . لنتابع نقاشاتهم لنفهم من يمثلون ولنفهم عبر هذا التمثيل طبيعة المعلن .
هم لا يتصرفون وفق قناعاتهم وأهوائهم الشخصية. هم أول من يقرّون بأنهم مجرّد ممثلين لكن لماذا بالضبط ؟
لا بدّ أن كل النقاشات حول مختلف المشاكل بدت ثانوية بالنسبة لبوديل بقتروب ممثلة الدانمارك، لأن قضيتها الأولى كانت في جعل النص يؤكد على المساواة التامة بين الإنسان الأنثى

و الإنسان الذكر.

ثمة إذن تمثيل للنساء ومحاولة واضحة من الجنس المقهور لفرض حقوقه في نص بمثل هذه الأهمية .

لكن السيده ستريت رغم كونها امرأة تناضل ٍعلى مستوى آخر .هي لا تريد أي إشارة لحق الطلاق لأن الفاتيكان لا يقبل بمثل هذا الإخلال بمبادئه. ألا يكفي أن يتطاول عليه التاريخ ويفتك منه حق التشريع للبشرية وهو ممثل الله على الأرض؟ هي لا تمثل إذن جنسها وإنما عقيدتها.

كأنني أسمعها تناور:
- يا جماعة هل من الممكن التذكير بان الإنسان خليفة الله على الأرض و أنه خلق على صورته؟
يصرخ في وجهها تشانج:

- الله بضاعتكم أنتم أهل الكتب التي تسمونها سماوية . لا علاقة لنا نحن أمم و شعوب آسيا بهذا المفهوم الغريب ولا مجال لقبوله في وثيقة يجب ان لا تمرّر قيم ومفاهيم ثقافة على حساب ثقافة اخرى .
  يوافقه في الرفض القاطع لذكر الله ممثلو الانظمة الشيوعية .
- طيب ما رأيكم في استبدال كلمة الله بالطبيعة ؟
- لا تحاولوا خداعنا .
- بل أنتم من تحاولون الخداع .

هكذا يصدر النص دون إشارة لا لله ولا للطبيعة ونولد جميعا أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق وقد وهبنا عقلا وضميرا من قبل مجهول .
ثمة إذن تمثيل للملحدين وللمؤمنين ولهؤلاء بمختلف اصنافهم من نصارى ومسلمين ويهود وبوذيين .
لا غرابة أن يتشاجروا وهذه عادة قديمة فيهم وصفها ابن المقفع أحسن وصف.
" وأما الملل فكثيرة ومختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف : قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه وآخرون يبتغون به الدنيا، وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى وأن من خالفه على خطأ وضلالة . والاختلاف بينهم كثير في أمر الخالق والخلق ومبدأ الأمر ومنتهاه وما سوى ذلك , وكل زار وله عدو وعليه عاتب "
ثمة سبب إضافي للنزاع لا يقل خطورة بل ربما يكون هو الأخطر: تمثيل أجزاء الكاتب الجماعي لدول متباغضة تقودها أنظمة سياسية على طرفي النقيض لا تتوقف عن الحرب إلا لالتقاط الأنفاس
لنتصوّر بعض أوقات الصياغة لا نخشى من تقويل الموتى لثقتنا أن همفري لو بعث حيا لما كذّبنا إلا في تفاصيل التفاصيل .

- *الدول الديمقراطية الاستعمارية* : لا بدّ للوثيقة من التنصيص على الحريات الفردية والعامة زبدة النظام السياسي المثالي .إن الحرية جوهرحضارتنا العظيمة التي لا ندعي بالطبع من فرط بداهة الأمر أنها الأعظم والأذكى والأكثر الحضارات تقدما وإنسانية.

- *الدول الاستبدادية غير الاستعمارية* : إنه حقا اقتراح عظيم ، نقبل به شريطة أن تقبلوا بحرية المعتقد

و الرأي والتنظم واختيار من يحكم الشعب ....في مستعمراتكم .

الدول الديمقراطية الاستعمارية: لا ، لا ، المستعمرات مستثنية...على الأقل ليس الآن ....ليس الآن، ربما بعد قرنين أو ثلاثة عندما نكمل إخراج شعوبها المتخلفة واحيانا المتوحشة من الظلمات إلى النور. لكن قطعا ليس الآن .

الدول الاستبدادية غير الاستعمارية: آه ..عفوا . فهمنا أنكم تؤمنون بالتساوي التام بين البشر، وإن بعض الظنّ إثم .

الدول الديمقراطية الاستعمارية : طبعا نحن قلنا أن البشر يولدون أحرارا ومتساوين ....لكننا لم نقل أبدا أنهم يبقون كذلك بعد ولادتهم .

الدول الاستبدادية غير الاستعمارية : يا لخبثكم وبراعتكم في ازدواج المعايير والكيل بالمكاييل الألف . طيب من تقصدون بحرياتكم هذه بما أنكم تستثنون منها الغالبية العظمى للبشر ؟

الدول الديمقراطية الاستعمارية : طبعا الشعوب التي ترزح تحت حكمكم ايها الشياطين الشيوعيين . نحن نأمل إذا مرّقنا هذه الحقوق في النص أن يصبح سلاح دعاية إضافي بين ايدينا لحثّ الشعوب الواقعة تحت سيطرتكم - والحال أن مكانها الطبيعي أن تكون تحت سيطرتنا نحن -على التمرّد ضد انظمتكم البغيضة. هكذا يمكننا أن نوسّع رقعة سلطاننا إلى عقر داركم دون تكلّف حرب جديدة باهظة التكاليف خاصة وقد خرجنا منهكي القوى من الحرب التي تعرفون.

الدول الاستبدادية غير الاستعمارية : جميل ألا تضيعوا وقتنا في الهذر الفارغ وأن تفصحوا عن نواياكم الحقيقية أيها الخنازير الرأسماليين . لكن بيننا وبينكم ، ماذا تريدون من الفقراء أن يفعلوا بحرياتكم هذه ؟ هل تتصورون أن حرية الراي تملأ بطن الجوعان ، أنه يمكن التلحف بحرية المعتقد ضدّ برد الشتاء، أو أن السكن الائق سيكون في مكاتب الانتخابات الحرة النزيهة . كفى هذرا من فضلكم . إن ما يحتاجه الإنسان هو الغذاء والصحة والعمل والتعليم والراحة . لكن المترفين وأبناء الذوات أمثالكم يجهلون بداهة كل هذا لأنهم أرفع من الاهتمام بمثل هذه المبتذلات التي تخص الخدم والحشم ... نحن نريد البنود 22 و23 و24 و25 و26 و27 في صدارة النص لا في آخره حسب المشروع المقدم من المستكتب، فالحرية الحقيقية لا تكون إلا تحررًا من الفاقة والمرض والاستغلال..... الخ .الخ

الدول الديمقراطية الاستعمارية: ومن قال أننا ضدّ الحقوق الاقتصادية والاجتماعية . نحن جدّ متحمسون لها والدليل على ذلك اننا لن نقبل بأي مشروع لا ينص بمنتهى الوضوح على حق الملكية ومنها ملكيتنا لكل موارد العالم .إن مشروع الفصل 17 مرضي ولو أننا كنا نودّ ان يرد في الديباجة وان يوضع كأوّل حق وبعده بند ثاني حول الحق في الربح الحلال وبند ثالث في اعتبار البورصات من أهم معالم التراث البشري .....آه البورصة..آه يا هيكل، يا معبد، يامحراب ....يا أم الأماكن المقدّسة ، الخ ....

الدول الاستبدادية غير الاستعمارية: الملكية ! الملكية ! إنها الوجه الأكمل للصوصية وأنتم لصوص هذا العالم . لكننا سندافع إلى الأبد عن ضحايا جشعكم وكل المسحوقين الذين جعلت منهم عبيد هذا العصر الخ ....

الدول الديمقراطية الاستعمارية : ها ها ....تريدون تصدير الثورة والتطرف والإرهاب للعالم الحرّ حتى توسّعوا رقعة سلطانكم دون تكلف اعباء الحرب ...لكن الشيوعية لن تمرّ...الخ ..الخ ..

لا بدّ أن همفري المستكتب المتواضع، حاول تركيز اهتمام السباع المفترسة المشدودة لبعضها البعض ، على المواضيع التي لا تثير عصبيتها ليمرّر ما يريد في مرحلة ثانية .

المستكتب المتزايد تواضعا(حالما بزواج الحرية والعدالة وولادة ثمرة مباركة من الزيجة اسمها السلم):

ما رأي حضرات الممثلين أن نكتفي في هذه المرحلة بصياغة المواد التي لا خلاف عليها، أقصد حق الحياة والكرامة والحرية والعدالة والزواج . يعرف القاصي والداني أنها قيم حضارتكم الغربية العظيمة وقيم حضارتكم الشرقية العظيمة وقيم أديانكم السماوية العظيمة وقيم أنظمتكم السياسية العظيمة وخاصة قيم رؤسائكم العظام .

الدول الاستعمارية والعنصرية (همسا) : كلها كلمات رنانة عامة لا تغني ولا تسمن من جوع ، فلنقبل بها. المهمّ ألا يتضمّن النص ما يدفع للثورة عندنا وأن يقبلوا بحرياتنا وسنرى كيف يمكن لاحقا تفجيرها تحت أقدامهم.

الدول الشيوعية الاستبدادية (همسا) : كلها كلمات رنانة عامة لا تغني ولا تسمن من جوع ، فلنقبل بها. المهمّ ألا يتضمّن النص ما يدفع للثورة المضادة عندنا وأن يقبلوا بالحقوق الاقتصادية والاجماعية وسنرى فيما بعد كيف نفجرّها تحت أقدامهم .

ولأن النص صدر متضمنا الحريات السياسية و كذلك الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، فلا بدّ أن الوفاق حصل حتّى ولو كان مشبعا بسوء النية المتبادلة . هكذا أدّى تشبث كل طرف بقيمه(لشدة إيمانه بها

او لشدة ارتباط مصالحه بها) إلى صياغة نصّ متكامل تضمّن أحسن ما يوجد عند هذا وذاك.

يتحدث هيغل عن الحيلة التي يظهرها التاريخ أحيانا لتحقيق أهدافه .
و نحن أمام حيلة من أطرف حيله ، فالكاتب الجماعي ممثل أنظمة استبدادية واستعمارية وحتى عنصرية لكن هذا الممثل هو الذي صاغ النص المرجعي لكل القوى التي ستناهض الاستبداد والاستعمار والعنصرية .

أي قوّة جمعت هؤلاء الناس وجعلتهم يتواصلون مع بعضهم البعض رغم أنه من الواضح أنهم لا يشتهون شيئا قدر الوثوب على بعضهم البعض بكراسي القاعة وسكاكينهم المخفية ...خاصّة لأي هدف؟

يتواصل النقاش أشهرا وأشهر . تمتلئ سلة المهملات بالنصوص المؤودة . آه لو كان بوسعنا تصفيفها على الطاولة لمعرفة ما حذف وما أضيف . لكنك لا ترى من النصّ إلا ما تراه من امرأة وهي في ملابس السهرة ، والحال أنك لا تعرفها إلا إذا رأيتها في ثيابها الداخلية وثياب تنظيف البيت . كم مؤسف أنه ليس لنا إمكانية دراسات المشاريع التي رميت في سلة المهملات خاصة وأن الشاهد يعترف بأن المسودة الأولى للإعلان كانت تحتوي على...... ثمان و أربعين بندا . أين اختفى ثمانية عشرة بندا

و لماذا رمي بها إلى سلة المهملات ؟

يعترف همفري أنه كان من بينها بندا عن حقوق الشعوب وآخر حول حق المواطنين في التظلم من دولتهم .

الشعوب ؟ آه صحيح أنها غائبة في نص يتوجه للإنسان بمفهوم كل شخص وكل الأشخاص قافزا فوق التجمعات التي تشكل حلقات الوصل بين الإنسان المحدّد والإنسان المطلق.

ثمة أيضا التساؤلات التي تثيرها مسودّة أخرى رميت في سلة المهملات و صيغت حسب شهادة المستكتب كالتالي " للأقليات الأثنية و اللغوية و الدينية الحق في تعهد مدارسها و مؤسساتها الدينية و الثقافية بفضل جزء عادل من الأموال العمومية يخصص هذا الغرض. و لها الحق في استعمال لغاتها أمام المحاكم و السلطات أو أجهزة الدولة وفي الصحاف و الاجتماعات العامة ".
ها قد ذكّرنا المستكتب أنه يوجد وراء الشعوب المعترف بها رسميا ولو كانت مستعمرة ، جماعات بشرية لا ممثل لها سمّيت أوقات الصراحة الفجّة القبائل الهمجية أوالمتوحشين وفي حالات التأدب والنفاق الشعوب الأصلية وحتى الشعوب الأولى.
من أين للنص إذن أن يدعي العالمية وهو لا يفسح المجال إلا لأنظمة لا تمثل إلا نفسها وأخرى تمثل القوائم الانتخابية ولا ترى تناقضا بين سيادة الحرية في الداخل واستعباد الشعوب في الخارج ؟

الخيار الآن بين التطرّف والاعتدال. فإن اخترنا التطرّف يمكننا التركيز على غياب الشعوب المستعمرة –وهي أغلبية البشرية- وغياب الشعوب الأولى - وهي ذاكرتها الحية - وقلة تمثيلية الممثلين الديموقراطيين وانعدام تمثيلية الممثلين الشيوعيين. ننتهي إلى ضرورة رفع وصف العالمي عن النص ومقاضاة صاحبه بتهمة انتحال صفة وتزوير وثيقة .

أما إذا فضلنا الاعتدال فلا خيار لنا غير التركيز على أنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان نظرا للظرف التاريخي ، أن الشعوب المستعمرة والشعوب الأولى ستتحرّر عاجلا وستصادق على النص وستحتل مكانها الطبيعي لصياغة الشروح المتفرعة عنه . آنذاك يمكننا تمتيع الكاتب بالعفو الرجعي وقبول وصفه للإعلان بالعالمي.

ثمة أيضا الحجة التاريخية التي تلعب في صالح إدعاء الكاتب صحة تمثيله للعالم الآدمي.

فما بين 622 -664 حددت "الصحيفة" جملة من الحقوق والواجبات.. لكن بين قريش ويثرب و بني عوف وبني ساعدة وبني الحارث وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت وبني الأوس

وفي سنة 1216 صدرت وثيقة عن حقوق وواجبات عرفها التاريخ تحت اسم الميثاق العظيم* Magna Carta. لكنها كانت ممضاة باسم ملك *انجليزي* يضمن بعض حقوق الأرملة *الانجليزية* (مثل منع إجبارها على الزواج إذا فضلت الحياة دون رجل – مادة 8) وبعض حقوق الفلاحين *الانجليز*(مثل منع الشرطة من الاستيلاء على خيلهم وعرباتهم لقضاء حوائجهم الشخصية دون إذن من صاحب الحصان والعربة – مادة 30) وبعض حقوق المدن والقرى *الانجليزية* (مثل منع إجبارها على بناء القناطر إذا لم ترغب في ذلك – مادة 23) وكثيرا من حقوق النبلاء ورجال الكنيسة *الإنجليز* .

وفي نفس السياق سنّ في 26 أغسطس 1789 ممثلو الشعب *الفرنسي* المنتظمين في الجمعية الوطنية

الفرنسية وثيقة اسموها إعلان حقوق الإنسان والمواطن تضمن جملة من الحقوق للمواطنين الفرنسيين.
وفي سنة 1857 سنّ محمد باي عهد الأمان لضمان قليل من حقوق التونسيين مع عدم نسيان حقوق الأجانب ،لا حبا فيهم ولكن لأنهم كانوا منذ تلك الفترة الأسياد الحقيقيين للبلاد.

إنها ظاهرة تواترت طيلة القرنين الماضيين لتلد وثائق ضامنة لحقوق *الألمان* أو*السوفيات والأوروبيين وكل مشغول بنفسه.*

تمكننا الظاهرة من فهم النقلة النوعية التي شكلها الإعلان . فهذا النص ليس خاصا بالعرب أو بالإنجليز أو بالفرنسيين . هو ليس مقايضة بين بشر يدينون بنفس الدين وينتمون لنفس المجتمع ويتقاسمون نفس التاريخ ويتكلمون نفس اللغة . بل بالعكس من هذا ، إنه وفاق بين بشر يتكلمون لغات برج بابل ويدينون بأديان متنافرة وينتمون لمجتمعات متنافسه ويأتون من تواريخ – بل قل من أساطير- جد متباعدة عن بعضها البعض .

نعم يحق للكاتب أن يصف إعلانه بالعالمي خاصة أنه – وهذا المعنىالثالث للمصطلح - لا يتعامل مع مشاغل هذا الشخص أو هذا الشعب أو تلك الثقافة ،إنما هاجسه مشاكل عالم إنساني واحد لم يعد ممكنا تجزئته لا في مستوى تحليل المشاكل ولا في مستوى تقديم الحلول.

ولأن هذا الكاتب العالمي لم يكتب شعرا أو فلسفة وإنما نصا يحصي ويحدد ويدعو إلى اتخاذ تشريعات تنظّم حياة البشرية جمعاء(ومن ثمة تسمية جزء من النصوص المتفرّعة عنه بالشرعة الدولية) فإن الصفة الوحيدة التي تليق به من هنا فصاعدا هي.... *المشرّع العالمي* .

The Magna Carta (the great charter)-Gerald Murphy –the Cleveland Free –Net-aa 300

*** خلافا للمتوقع والمأمول، تواصلت ظاهرة صياغة الوثائق الخاصة بشعب أو بدين أو بقارة بعد صدور الإعلان وذلك بحجة الخصوصية الثقافية . وقد أظهرت في كتابي " حقوق الإنسان – الرؤيا الجديدة " أن هناك قاسم مشترك بين كل هذه النصوص هو تقليصها من الحقوق الواردة في الإعلان العالمي، هذا عندما لا تشكل محاولة مكشوفة للالتفاف حوله وتهميشه .*

قراءة في الإعلان العالمي **لحقوق** ....

يبيّن الرصد " الطوبوغرافي" السريع أن الكلمة موزّعة في كل مساحة النص بنفس السخاء .
هي تتردّد بصيغة المفرد أو الجمع ،أربعة وأربعين مرّة ، وكأنها جرس يقرع باستمرار... ناهيك عن كونها مدعومة ثماني مرّات بكلمات موازية تصب في نفس المصبّ (مثل لا يجوز ولا يعرّض)
وكأن المشرّع العالمي يريد غرسها داخل النصّ كما يغرس المسمار في الحطب الناشف...بالمطرقة.
و حيث أنّ الجهد الذي نبذل في تحقيق شيء أو في الدعوة له على قدر المقاومة التي تواجهها العملية فأي مقاومة يريد الكاتب التغلب عليها أو تخطّيها سحريا ؟
وفي البداية ما الذي يقصده بمصطلح أبلاه الاستعمال وسوءه.
تشكّل المعاني القديمة مدخلا ممكنا .
فالحق عند الصوفيين هو الإسم الآخر لله.
هو صواب نظرية ما في العلم .
هو كل ما ينتمي لعالم الخير في الأخلاق والدين .
أمّا ما يعنيه الحق عند المشرع العالمي فبداهة شيء آخر.
يداهمنا بالإحباط لمجرّد التفكير في معالجة ما يعنيه المفهوم ، فلا أصعب من تحديد المفاهيم العامة الفضفاضة مثل السعادة والعدالة والصحة لأنها تتحمّل كلّ التفاسيرولا يستنفذها أي واحد منها.
وإن دلّ التباين في تعريف الكلمة الواحدة على شيء ،فعلى تعدد المستويات التي يمكن أن يتواجد فيها مفهوم متعدد الأوجه والمستويات.
هل يوجد معنى أصليا تتفرع عنه كل المعاني الثانوية ؟ نعم لكن انطلاقا من رؤيا وفلسفة ضمنية ليست إلا رؤيا من بين الرؤى.
لا مهرب من مثل هذا الفخّ غير التوجه للحق بما هو شيء موجود على أرض الواقع ومسائلته عن شروط وجوده . وعندما نتمكن من الإحاطة بهذه الشروط ،فإن كل أبعاد المفهوم تظهر فلا تضخم بعضها رؤيا ولا تسقط رؤيا مخالفة بعضها الآخر.
تلخص القراءة هذه الشروط في النقط التالية .

لا وجود للحق دون الندرة وإلا لما كان له موجب

لننتبه لموقفنا ونحن نطالب بشيء أو بخدمة أو بتعويض نعلم أنه *ليس* لنا الحق فيه .
سنسارع بنفسية المتسول الذليل شكرأي شخص يتميّز بسلطات أوسع من سلطاتنا، وله امتيازات لا نتمتع بها، منها قدرته على تقديم المزايا لنا ولغيرنا ... لعلمنا أنه قام بلفتة كريمة وقدم لنا مزية .
على العكس من هذا، نحن سنتوجّه بالطلب لمن بيده قدرة تمكيننا من الأمر ، دون تذلل إذا كنا مؤمنين بأن لنا الحقّ في الحقّ، لثقتنا أن الشخص أو المؤسسة، مجبر *على الاستجابة لمطلبنا* . في حالة حصولنا على ما نسعى له ، لا نبعث أبدا برسالة شكر للمشرّع المحلّي، ولا بقفة من التمر الفاخر للقاضي ، لأننا نعتبرأن لا هذا ولا ذاك قدّم لنا مزية وإنما قام بالمنتظرمنه.
الحق إذن هو في مقاربة أولى كل ما لنا الحقّ فيه .
دوران في الحلقة المفرغة للألفاظ ؟ ربما ....علما وأن هذا ما يقوله بالضبط المشرّع العالمي في المادة الثانية :" لكل إنسان ***حق التمتع بكافة الحقوق*** والحريات الواردة دون أي تمييز"....
ثمة إذن علاقة سلبية بين الحق والامتياز. فهذا الأخير حق يتمتع به البعض أما *الحق فامتياز يتمتع به الكل....نظريا على الأقل* .

لا يوجد الامتياز بالطبع إلا مفروضا بالعنف مما يمكننا من تعريف هذا الأخير يأنه فرض الامتياز على الحق بالقوة وتمرّد الحق على الامتياز بقوة مضادّة .

لكن ما الذي يجعل الامتياز موجودا ومن ثمة نقيضه الحقّ المرتبط به ارتباط النهار بالليل؟

إنه بالطبع وضع ما هو موضوع الطلب ، أكان شيئا أم خدمة أم اعتبارا أي، أساسا صعوبة الحصول عليه الناجمة عن غيابه الجزئي إما لنقص في إنتاجه أو لكثرة المتدافعين على اقتسام القليل الموجود منه.
إنها الظاهرة التي سماها الفيلسوف الفرنسي: الندرة : Rareté

ولوتأملنا بعمق في هذه الندرة لوجدنا أنها -عدا كونها الخاصية الثانية الأكثر انتشارا في الكون مع الكثرة –الخاصية الملازمة لأغلب ما يعتبره الإنسان هاما وثمينا ،وأن سخرية الأقدار جعلت منها خاصية من خصائص.... الحق نفسه.

والقاعدة هو أنه كلما كان إنتاج المجموعة من المادة و القيم و التنظيم و المعلومات وافرا وعادلا كلما ضعفت الحاجة للامتياز، كلما ضعفت الحاجة للحق وللقانون و للعنف. مما يعني أن قضية العنف التي سنعود لها لاحقا مسألة هيكلية وليست فقط مسألة فطرة وغريزة شرّ كما يطرحها السذّج والأخلاقويون

لاحظ أن النص لا يفرغ مادة من نوع : لكل إنسان الحق في حنان أمّه و نور الشمس و ظلمة الليل و جمال النجوم و مستوى كاف من الأكسيجين لتشغيل أجهزته الحيوية.
هو لا يتكلّف مثل هذا العناء لأنّه من حسن الحظّ أن حنان الأم مضمون أمّا الأوكسيجين ونور الشمس وصلابة الأرض التي نمشي عليها ، فأمور متوفرة بالقدر الكافي وللجميع . لا مجال ولا حاجة إذن لتدخلات ومزايا في هذا الميدان .انتظر يوم تناقص الاوكسيجين وسترى ظهور حق التنفس على الورق وجمعيات الدفاع عن حق الأطفال الفقراء في قوارير الأوكسيجين . لاحظ بالمقارنة مع حنان الأم المضمون ونور الشمس المتوفّر بسخاء ومجّانا للجميع، أن كل الحقوق التي يتعرض لها النص لا مضمونة ولا متوفرة بسخاء أومجّانا.
ثمة إذن علاقة متينة بين الحق والندرة ،فلولا هذه الأخيرة لما وجد لا الحق ولا المزية. مما يعني أن الحق ظاهرة سلبية في كونها تنم عن وجود خلل ونقص ، وظاهرة إيجابية تحاول تدارك الأمر بالتعديل والتوازن.
لكن ما فحوى هذا الخلل ؟ .

لا وجود للحق دون الحاجة وإلا لما كان له محرّك.

عودة إلى التجربة الذاتية التي يعيشها طالب الحق في حالة المنح وحالة المنع .
وفي الحالة الأولى، رأينا أنه لا يشعر بعرفان بالجميل تجاه المشرّع والقاضي لاعتباره أن له الحق في الحق وأن تمتعه به أمر بديهي طبيعي مثل تمتعه بنور الشمس والهواء العليل. وإذا وجد من يشكر فهو الله أو الطبيعة حسب معتقدات هذا وذاك. .
أما في حالة المنع فإننا سنعيش زوبعة من مشاعر القهر والغضب والرفض ، ربّما تدفعنا إلى حدّ امتشاق السلاح وبذل الغالي والنفيس ولو كانت الحياة نفسها .
لما هذا ؟
حتى نفهم طبيعة الغضب العارم والسخط الشديد وما يمكن أن ينجرّ عنه - وهي المشاعر التي تحيلنا للقوّة الهائلة الكامنة في أعماق الحق - يجب تفحّص الحقوق الواردة في النص .
ثمة إذن الحق في التمتّع بأمور محسوسة مثل المأكل، الملبس، المسكن، التعليم ، العلاج ، تأسيس عائلة ، العمل ، الملكية .
ثمة سلة ثانية من الحقوق تتعلق بالتمتع بأمور أعقد تعريفا مثل السلام ، الحرية ، الكرامة، المساواة، الحرمة الجسدية ، العدالة ، الرفاهة ، الثقافة .
أخيرا هناك أمور تتعلق بالتمتّع بالمشاركة في الحياة العامّة عبر ممارسة حرية المعتقد ، حرية الرأي، حرية التنظم السلمي ، حرية اختيار أولياء الأمر واستبدالهم وفق قواعد النظام الديمقراطي.
ما القاسم المشترك بين كل هذه الحقوق ؟
إنها بكل بساطة قائمة حاجياتنا الأساسية التي لا تتبلور إنسانيتنا دونها.
الحاجة و ما أدراك ما الحاجة !
أليس صراعنا من أجل هذا الحق أو ذاك هو صراعنا من أجل تلبية حاجة ماسة فينا ؟ أليس ما نقضي العمر جريا وراءه هو تحقيق هذه الحاجة الغائبة والمحافظة على الحاجة التي تحققت ؟ أليس بديهيا أنه

إذا تحققت كل حاجياتنا أصبح لوجودنا قيمة ومعنى وإن لم تتحقق كان هذا الوجود تجربة العبث والألم ؟
أليس نفي الحقوق عنا إنما هو نفي لعوامل تحقيق إنسانيتنا وبالتالي نفي إنسانيتنا هذه وحتى اعتبارها إنسانية دونية يمكن أن تعاش دون التمكن من كل الشروط التي تحتاجها ؟
قد تصيب وقد تخطئ في فهمك لأي كائن إن حاولت تعريفه بأوصاف و خصائص هي غالبا إسقاطات نظرية لك أو لغيرك . جرّب الآن تحديده عبر حاجياته في هذا الزمان و هذا المكان و ستكتشف اقترابك الشديد من تجربته للوجود. جرّب قراءة كل مشاعره وأعماله على ضوء التحليل بالحاجة وستكتشف أن المنهجية أغنى بالمعلومات الصحيحة من الموقف المعياري الساذج الذي يقيّم مشاعر وأعمال الآخرين انطلاقا من ....حاجياتنا نحن، لا من حاجياتهم هم .
وحتى تتأكّد من مركزية الحاجة في صنع الإنسان ، أنها منبع كل تصرف و محور كل موقف، أنها أم الدين و الفلسفة والفنّ و العلم والعمل.... خذعيّنة من البشر، من الجنسين ، من مختلف الأعراق والطبقات والثقافات . تأمل في اختلافات السحن والملابس واللغات والعادات والقيم التي يدعون العيش من اجلها - أو على حسابها- . تأمّل الفرق الهائل بين الملوك الجبابرة والأنبياء الملهمين وبين رعاة الخنازير أو الإبل ،بين الجهال والعلماء، بين المؤمنين والكفرة.،بين الذين يملكون القصور والذين استعاروا أو سرقوا أسمالهم .
والآن جرّد كل هؤلاء البشر من ألقابهم و ألبستهم . لا تسمع لغوهم وما يموّهون به على أنفسهم وعلى الغير. ثم تساءل عن القواسم المشتركة التي تجعلهم ينتمون لنفس الفصيل من الأحياء . ستكتشف قائمة طويلة من ضروريات العيش – لا يختلف فيها أو عليها إثنان - مثل حاجة الأكل والشرب واللباس والمأوى والجماع والصحة والأمان و العدالة والكرامة والحب والرفاهة والسعادة والمعرفة . وفي مرحلة ثانية يمكنك الدخول في التفاصيل وكيف أن هناك، إنطلاقا من القاعدة المشتركة ، حاجيات ثانوية وترتيب أولويات وطرق مختلفة لترجمة الحاجات الأساسية حيث ليس للكسول بالطبع والمغامر بالسليقة نفس التصور لما يرضي حاجته للسعادة .
انظر إلى جل القصص التي تعج بها كتب الأدب أو تتزاحم على خشبة المسرح. إنها أغلب الوقت قصص أشخاص أضناهم الفقر أو شردتهم الحرب أو دمرهم البغض والتعصب والجهل... قصص الصراع من أجل النجاح الاجتماعي ، من أجل الكرامة، من أجل الحرية.
استمع إلى صلوات البشر في المساجد والكنائس والبيعات والمعابد : يا الله ، يا يسوع ، يا أدوناي ، يا نزامي، يا راما، يا بوذا ... يا سيدي عبد القادر ، يا سانتا ماريا ، . اعطنا الصحة ، الأمان ، الحرية ، عشاء الأطفال هذه الليلة ، أبعد عنا الظلم والعسف، طمئن من روعنا ، حررنا من الخوف ، من العدو المتربص بحياتنا ورزقنا . كلها صلوات يمكن أن تلخص في رجاء واحد : لبي حاجياتنا لننعم بالعيش وتزهو بنا الحياة.
والقاعدة أنه بقدر ما نتمكن من حقوقنا بقدر ما تسهل الحياة وتحلو- ومن ثمة التصاق كلمة التمتع بكلمة الحقّ- في حين أنه بقدر ما تغيب أو تنقص، بقدر ما يصبح كل إنسان ناقصا ، مشوّها ، مبتورا ، محدودا شقيا ، يلهث وراء هذا الذي لا يكتمل ولا يمتلئ إلا به .
السؤال الذي يفرض نفسه عند تقليب قائمة الحقوق الواردة في النص هو عن مدى اكتمال قائمة الحاجيات التي يتضح أن الحقوق مجرّد تعبير عنها وحتى شرعية البعض منها.
لا جدال في الحاجيات المادية الدنيا . لكن ماذا عن الحاجيات السياسية ؟
هل ستتقلّص إنسانيتنا وهل ستنقص متعة الوجود إذا لم تتوفر لنا "انتخابات نزيهة دورية تجرى على أساس الاقتراع السري و على قدم المساواة بين الجميع "؟
من قال أن الإنسان- أو على الأقل هذا الشخص أو ذاك - ليس بحاجة إلى ملكية فلكلورية ترضي تعطشه للطقوس أو دكتاتورية " عادلة " ترضي حاجته إلى قيادة توفّر عليه عناء الالتزام والخيار؟
الأهمّ من هذا أن النصّ يسكت عن حاجيات اعتبرتها جل النصوص المؤسسة ذات أولوية مطلقة.
يحلو لي أن أمسك بالريشة بدل الكاتب المحدود الخيال أعلّمه ما لا يعلم عن أعمق حاجيات الإنسان.
المادة الواحدة و الثلاثون:
لكل إنسان الحق في الحب و السعادة و الجمال والموهبة والشهرة والاعتراف وامتنان الجميع .

المادة الثانية و الثلاثون :
لكل إنسان الحق في رعاية مشخصة ومستمرة من قبل قوة غيبية تحبه و ترعاه و تقود خطاه من المهد إلى اللحد .

المادة الثالثة و الثلاثون :
لكل إنسان الحق في العيش كل الوقت الذي يريد، وله الحق إذا قرّر الرحيل في موتة كريمة بلا ألم أو خوف . وله الحق في خلود روحه إن اختار الخلود والتلاشي في روح الكون إن فضل التلاشي. وله الحق في ما يشاء من فرص البعث في أي شكل من الأشكال الحية التي يختارها إذا قرّر مواصلة تجربة اشكال أخرى من تجربة الوجود .
المادة الرابعة و الثلاثون :
لكل إنسان الحق في الالتحام بالذات القدوس وفق السيناريو الثقافي الذي نشأ عليه أو حسب إي إمكانية أخرى يختارها بكامل الحرية.
كأني بكاتب النص يئنّ : ما هذا الهذر؟
لكن اليس من حقنا أن نعاتبه : من أين لك حق تجاهل حاجيات بأهمية حاجة الحب والاعتراف والرعاية من طرف قوة أقوى من كل القوى التي تسحقنا والتغلب على خوف الموت وفهم معنى وجودنا وموتنا ...... في نص يدّعي الدفاع عن حقوقنا ؟
لنقبل منه حجته القوية بأنه من السابق لأوانه المطالبة بالكماليات والحال أن الأساسيات لم تتوفر.
النص إذن هو الإعلان العالمي للحاجيات الدنيا للإنسان...أو على وجه التدقيق لتصوّر المشرّع العالمي للحاجيات الدنيا للإنسان .....أو بصفة أدقّ لتصوّر المشرّع العالمي للحاجيات الدنيا لإنسان هذا العصر .

لا وجود للحق دون الكرامة وإلا لما كان له أساس

قد يواجهنا البعض بأن التركيز على الحاجة في تعريف الحق لا يعكس سوى توجه نفعي مادي براجماتي في تفسير الظواهر، وبالتالي أن أداة التحليل الفكرية هي التي تعكس نفسها في مرآة المفهوم وربما لا تعكس شيئا منه .

صحيح أن أدوات التحليل وطرق تفكيرنا، وحتى أهوائنا الواعية أو غير الشعورية، تلعب دوما دورا في إضفاء النور على المفاهيم من زاوية معينة وبالتالي نحن لا نرى إلا ما تضيء لتبقي كل الجوانب الأخرى غارقة في الظلام . لكن الاستنتاج أمام مثل هذه الظاهرة ليس في تخيل وجود أداة فكرية مثالية تستطيع إضاءة المفهوم من كل الجوانب وتكون مستقلة عن الخلفيات الفكرية والأهواء الشخصية . فمثل هذه الأداة غير موجودة للأسف أو لحسن الحظ. إنما ما نحن مطالبين به مواصلة الطواف حول المفهوم لأضائته من كل الجوانب الممكنة اعتمادا على كل ما هو متوفر لدينا من أدوات التحليل نأخذها ولو تطلب الأمر من ألدّ أعدائنا الفكريين .

فما هي الرؤية المعاكسة نسألها إضاءة الأجزاء التي لا تمسحها الرؤية المادية البراجماتية النفعية للأمور. إنها بالطبع الرؤية المثالية غير البراجماتية غير النفعية كالتي تنضح بها الأديان والفلسفات التي تنزّه الإنسان عن كونه مجرّد كائن مادي نفهمه بتتبع حاجياته الدنيا .

لنقبل بأداة التحليل التي توفرها لنا رؤيا تضع الإنسان في أعلى المراتب .

وفي مثل هذه الرؤية يكتسب الحق معنى آخر جدّ مختلف.

عودة إلى النص و دليلنا البند الخامس .
"لا يعرّض أي إنسان للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة".
بداهة واجب عدم تعذيب الآخر ليس من صنف واجب احترام الصف عند قضاء الشؤون الإدارية .
نحن أمام إلزام ، أمام منع بات ، أمام تجريم .... أمام تحريم.

من المسموح لنا إذن أن نكتب البند كالآتي : يحرّم أن يعرض أي إنسان للتعذيب و العقوبات أو المعاملات القاسية الوحشية أو الحاطة بالكرامة .
لن ينقص من المعنى شيئا .إذا كتبنا يحرّم بدل لا يجوز في أكثر من بند (استرقاق شخص –القبض عليه تعسفا-تعريض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة الخ).
ماذا الآن عن الجمل التي تبدأ ب" لكل إنسان الحق في .....هل نتجنّى على النص إن كتبنا : يحرّم منع الرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج من تأسيس أسرة ....يحرّم منع الإنسان من حقه في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة ....
طبعا لا فالمعنى واحد ولو أنه وقعت إضافة طفيفة له... هي المساحة الجديدة المضاء من المفهوم .
يصبح الإعلان من هذا المنظار جردا لجملة من المحرمات يمكن تلخيصها كالآتي :
(من المحرمات) اعتبار أو التعامل مع الناس على أساس أنهم ليسوا متساوين في الكرامة و الحقوق ....حرمان أي إنسان من الحق في الحياة و الحرية و سلامة الشخص ...استرقاق أو استبعاد أي شخص... تعريض أي إنسان للتعذيب. ...عدم الاعتراف له بشخصيته القانونية ... تعريضه للتمييز ... عدم إنصافه ... القبض عليه وحجزه و نفيه تعسفا ...اعتباره مذنبا قبل أن تثبت إدانته ... التدخل التعسفي في حياته الخاصة ... منعه من حرية التنقل ... من اللجوء ...من الجنسية ...من الزواج من الملكية ...من حرية التفكير ...من الرأي المخالف ...من تكوين الجمعيات ...من اختيار ممثليه .... من الضمان الاجتماعي ... من العمل ... من الراحة ...من الصحة .... من التغذية و الملبس و المسكن ...من التعلم من الثقافة ...من نظام دولي و سلام عادل ...
ها نحن أمام الإعلان العالمي لحرمات الإنسان .
حرّم / محرّم / إحرام / حرم / حرام !! كلمات لا نخطئ التعرف عليها أو على الفضاء الذي تتحرّك فيه المقدس في النص ؟ هل الإعلان تحديث لوظيفة أزلية ؟ محاولة عصرية لبلورة مقدس منبثق يكون الإنسان فيه الهدف و الوسيلة ؟ هل هي عودة إلى إشكالية الأنبياء والفلاسفة المثاليين من منظور العصر و لغته وعقليته: كيف نجعل من الإنسان كائنا ذا حرمة ...إنسانا حراما ؟ إنها إشكالية عويصة سنتعرّض لها لاحقا فما يهمنا في هذا الموضع من القراءة اكتشاف سبب التحريم ومصدره .
تفرض منهجية القراءة البحث عنه داخل النصّ وهو لحسن الحظ موجود بصفة بالغة الوضوح في أهمّ الفقرات.
يستهل ديباجته قائلا : لما كان الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من **كرامة أصيلة فيهم** .....
ولما كان تجاهل حقوق الإنسان و ازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال أثارت بربريتها الضمير الإنساني .
يستهل متن النص بقوله : " يولد جميع الناس أحرارا متساوين في ***الكرامة*** ... "

يعود لنفس الكلمة في البند الخامس: لا يعرض أي إنسان للتعذيب و تحضر العقوبات أو المعاملات القاسية و الوحشية أو الحاطة ***بالكرامة*** .

أول ملاحظة تعبر الذهن أن المشرع العالمي ضحية شوفينيته الإنسانية، من أين يشعر و لا يشعر ، حيث يصف التصرفات التي اثارت الضمير الإنساني بالوحشية... أي أنه يلصقها بمن تسميهم اللغة الوحوش وهم صنف من الحيوانات لم يعرف عنها يوما مثل الأعمال التي يشير إليها. ثم هو يستعمل لفظة البربرية دون الانتباه لكونها تحيل، وعى بذلك أم لم يعي، إلى بشعب يطلق على نفسه اسم الأمازيغ، لكن غزاته أطلقوا عليه هذا الاسم – التهمة في إطار التمايز بين البشر.

إنه خطأ واضح في استعمال الكلمات بل وخطيئة لا تغتفر. لذلك نرجو ممن سيجلسون يوما لإعادة الصياغة حذف عبارة لا تليق بنص كهذا . وحتى لا يكون هناك لبس في الموقف فإننا سنواصل استعمال اللفظة لأنها واردة في النص لكن ببالغ التحفظ . ما على القارئ إلا أن يربطها دوما بفظاعة لا علاقة لها لا بالوحوش ولا بالبربر وإنما بمصدر يجب على القراءة كشفه وإطلاق الاسم الصحيح عليه.

عودة إلى موضوع الكرامة التي هي حجر الزاوية على ما يبدو.

نواجه بالصعوبة الدائمة لتعريف مثل هذه المفاهيم الفضفاضة . هي كالحب ، كالحرية ، كالجمال لا تعرف بنقيضها أو بشروطها و إنما بجوهرها .

و الجوهر ميدان لا تحيط بسرّه الكلمات و لا تستنفذه النظرية إلا بصعوبة بالغة لأنه مطلق و اللغة لا تمتلك أداة للتعبير عن المطلق .

نبدأ مع هذا عملية اللف و الدوران حول المفهوم علنا نضيء بعض جوانبه.

ما علاقة الحق بالكرامة ؟ هل هي حق من بين الحقوق أم شيء آخر؟

ثمة تذبذب في موقف الكاتب كأنه هو نفسه لم يستقرّ على رأي .

هو يضعها من بين الحقوق مثل حق الغذاء والسكن، والحال أن هناك بداهة اختلاف جذري بين الأمرين. وفي موضع آخر من النص تفهم أنها ليست حقا وإنما معطى من أهم المعطيات التي تعرّف الإنسان وليست مجرد خاصية. لذلك يفصلها المشرع العالمي عن الارتباط بخصائص محددة مثل الانتماء إلى " جنس أو لون أو لغة أو دين أو رأي سياسي أو أصل وطني أو اجتماعي أو ثروة أو ميلاد أو وضع آخر أو انتماء إلى بلد كان"

إنها إذن القاسم المشترك بين الأرستقراطي الأبيض المتعلم الثري الموفور الصحة الذي يحتلّ أعلى مرتبة في السلم الاجتماعي وخادمته الفقيرة الأمية السوداء المصابة بالكساح والموجودة في أسفل هذا السلّم. يزنهما المشرع العالمي على كفتي ميزان المادة الأولى فيجد لهما نفس الوزن حتى ولو وزنهما الواقع على كفتي العرف و الممارسة فيزن الأول طنا و الثانية ذرّة .

تبدو الكرامة أيضا معطى ثابتا ثبات ثوابت الفيزياء لا يمكن أن تضيف لها الأحداث شيئا أو أن تنقص منها شيئا. يتّضح عبث الصراع على مطلق السلطة- أو الثروة أو الشهرة- لأن مطلق السلطة لا يضيف ذرة واحدة إلى كرامة المتسلط و لا ينقص ذرة واحدة من كرامة المتسلط عليه . ولأنها واحدة ، ثابتة ، لا تنقص بفعل ولا تزيد بفعل آخر فإن الكرامة مثل جوهرة لا يتغير منها شيء وضعت في غطاء جميل أم في جريدة للفّ السمك .

إن لم تكن الكرامة لا خاصية ولا حق فما هي ؟

ثمة من يخلص من صعوبة التعريف بالقول أن الحقوق هي شروط تحقيق الخاصية . آنذاك ما معنى أن تكون الكرامة من شروط تحقيق الكرامة؟

هناك بداهة خلل ما في تفكير الكاتب أو بالاحرى اضطرابا في السيطرة على مفهوم "حربائي " كهذا.

لنحاول إنقاذه من تردّده بتقديم النموذج التالي :

الكرامة ليست حقا وإنما منبع كل حق و هو –أي الحق- الذي يستمدّ منها و جوده وشرعيته وضرورته وليس العكس.

لذلك لا يجوز القول لنحقق الحرية و الرخاء و العدالة لتتحقق كرامة الإنسان . إنما يجب أن نقول لأن للإنسان كرامة أصيلة فطرية , متقدمة، سابقة ، , مكونة ، ثابتة... فإن له الحقّ أن يحصل على سبل العيش المادي و المعنوي و السياسي التي تتماشى مع كرامته هذه.

من اين تستمدّ هذه الخاصية المصاحبة للإنسان ايا كان جنسه ووضعه ولونه ولغته ومعتقده كل هذه القدرة على تطويع الحقوق لكي يطلب منها أن تخدمها طائعة صاغرة؟

يأتينا صدى صلوات الجدّ والأم: " إنّا كرّمنا بني آدم "

تأتينا صورة المصلوب على جدران الكنائس وقد اتخذ القدوس له وجه إنسان .

يأتينا خطاب الفلاسفة الذين جعلوا من الإنسان مقياس كل شيء.

يأتينا أهل الإلحاد والعلم بنظرية النشوء والارتقاء التي تعتبر أن الطبيعة -هذا الاسم الآخر لله - هي التي وضعت الإنسان على قمة هرم الكائنات الحية.

نخلص في كل الحالات إلى نفس النتيجة وهي أن الإنسان كائن له ما ليس لبقية الكائنات الحية من قيمة ومن ثمة له امتيازات تختزل كلها في مصطلح الكرامة التي تعطيه الحق في كل الحقوق .

لكن لو كان الأمر كذلك ،لماذا يتعرّض هذا الكائن الممتاز المتميّز عن بقية الكائنات إلى حقوق غيره من الآدميين مما أدى إلى الوضع الكارثي الذي كان وراء ظهور النصّ ؟

لا وجود للحق دون وضع وإلا لما كان له فحوى

لا يختلف اثنان في كون حقوق الإنسان موجودة في الواقع وجود الأشجار في سهول الجفاف والعطش .
لنترك الكلمة لحظة للأرقام حول تحقق الحاجيات فلها بلاغة في إيصال المعنى تعجز عنا أحيانا الجمل .
إذا اعتبرنا عالم اليوم قرية فيها مائة ساكن فهو مكوّن – إبان كتابة هذا النص أي سنة 2005- من :
-57 آسيوي ،21 أوروبي،14 أمريكي،8 أفارقة. ....52 امرأة ، 48 رجل.... منهم .
-80 دون مأوى.
-70 من الأميين.
- 75 تحت خطّ الفقر المدقع.
-60 لا يحصلون على أي نوع من العلاج.
- 50 يتعرضون لكل أنواع التعسف السياسي والديني
8 فقط لهم حساب بنكي.
1 فقط له كمبيوتر.
6 يملكون 59% من الثروة الجماعية.
ثمة إذن خلل يجب تعديله. فإما أن نعدّل الواقع على النص- وهذا أمر لا يقدر عليه إلا إله - أو نعدّل النص على الواقع وهذا أمر في متناولنا انطلاقا مما نعرف ونعيش .
إنه ما سنفعله الآن في إطار تجربة ذهنية تسمح بالأمر وتعطي الصياغة التالية:

النص المضادّ

- لا يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة و الحقوق و لو وهبوا عقلا و ضميرا و لا يعاملون بعضهم بعضا بروح الإخاء .
- ليس لكلّ إنسان حق التمتع بكافة الحقوق و الحريات و إن تمتع ببعضها فبتمييز كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو بين الرجال و النساء ......
- ليس لكلّ إنسان الحق في الحياة و الحرية و سلامة شخصه .
- يجوز استرقاق أو استبعاد أي شخص و لا يحضر الاسترقاق و يسمح بتجارة الرقيق بكافة أوضاعها .
- لا يمنع كلّ إنسان من التعذيب و لا من العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة .
- ليس لكلّ إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف له بشخصيته القانونية .

- ليس كل الناس سواسية أمام القانون و ليس للبشر الحق في التمتع بحماية متكافئة دون أي تفرقة كما أن ليس لهم الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز.
- ليس لكلّ إنسان الحق في أن يلجأ للمحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الإنسانية التي يمنحها له القانون .
- يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا .
- ليس لكلّ إنسان الحق ، على قدم المساواة مع الآخرين ، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة .
- كل إنسان متهم بجريمة يعتبر مذنبا إلى أن تثبت إدانته قانونا بمحاكمة ليست بالضرورة علنية أو تعطى له فيها أيّ ضمانات .
- يعرّض أي إنسان لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه و سمعته و ليس له الحق في حماية القانون من هذا التدخل أو تلك الحملات.
- ليس لكلّ إنسان حرية التنقل و اختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة و لا يحق لأي فرد بالضرورة أن يغادر أية بلاد بما في ذلك بلده كما لا يحق له بالضرورة العودة إليه .
- ليس لكلّ إنسان الحق أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو أن يحاول الالتجاء إليها هربا من الاضطهاد .
- ليس لكلّ إنسان حق التمتع بجنسية ما و يجوز حرمان أيّ شخص من جنسيته تعسفا و ينكرحقه في تغييرها .
- ليس للرجل و المرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج و تأسيس أسرة اللهم إلا بشرط الخضوع إلى قيد الجنس أو الدين ، و ليس لهما حقوق متساوية عند الزواج و أثناء قيامه
و عند انحلاله كما ليس لعقد الزواج أن يبرم برضا الطرفين الراغبين في الزواج رضا كاملا ويجوز إكراهما عليه. و الأسرة ليست الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع و ليس لها حق التمتع بحماية المجتمع و الدول .
- ليس لكلّ إنسان الحق في حرية التفكير و الضمير و الدين و يمنع من تغيير ديانته أو عقيدته و الإعراب عنهما بالتعليم و الممارسة و إقامة الشعائر و مراعاتها سواء أكان ذلك سرا أم مع الجماعة .
- ليس لكلّ إنسان الحق في حرية الرأي و التعبير ويشمل هذا المنع اعتناق الآراء دون تدخل و استقاء الأنباء و الأفكار و تلقيها و إذاعتها بأية وسيلة كانت، مع التقيد بالحدود الجغرافية
- ليس لكلّ نسان الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات و الجماعات السلمية و يجوز إرغام أي إنسان على الانضمام إلى جمعية ما .
- ليس لكلّ إنسان الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده ......و ليست إرادة الشعب مصدر سلطة الحكومة و لا يعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة .
- ليس لكلّ إنسان بصفته عضوا في المجتمع الحق في الضمانة الاجتماعية .
- ليس لكلّ إنسان الحق في العمل و ليس له حرية اختياره بشروط عادلة مرضية و ليس له حق الحماية من البطالة كما ليس لكل فرد يقوم بعمل الحق في أجر عادل مرض يكفل له
و لأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه ، عند اللزوم ، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.
- ليس لكلّ إنسان الحق في أن ينشأ و ينضم إلى نقابات حماية لمصلحته .
- ليس لكلّ إنسان الحق في الراحة , و في أوقات الفراغ و لا سيما في تحديد معقول لساعات العمل و في عطلات دورية و بأجر .
- ليس لكلّ إنسان الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة و الرفاهية له
و لأسرته ،بما في ذلك التغذية و الملبس و المسكن و العناية الطبية و كذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، و ليس له الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة و المرض و العجز و الترمل و الشيخوخة و غير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته و ليس للأمومة و الطفولة الحق في مساعدة و رعاية خاصتين و لا ينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أم بطريقة غير شرعية .

- ليس لكلّ إنسان الحق في التعلم و لا يجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى و الأساسية على الأقل بالمجان و لا أن يكون التعليم الأولي إلزاميا و لا ينبغي أن يعمّم التعليم الفني
و المهني ولا ييسّر القبول في التعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع على أساس الكفاءة .لا يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملا ، أو إلى تعزيز احترام الإنسان و الحريات الأساسية و يحضر تنمية التسامح و الصداقة بين جميع الشعوب
و الجماعات العنصرية أو الدينية ، أو زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام ، و ليس للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم .
- ليس لأي إنسان الحق في أن يشترك اشتراكا حرا في حياة المجتمع الثقافي و في الاستمتاع بالفنون و المساهمة في التقدم العلمي و الاستفادة من نتائجه .....
- ليس لأي إنسان واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنموا نموّا حرّا كاملا و يخضع الفرد في ممارسة حقوقه و حرياته لتلك القيود التي لا يقررها القانون .
كما يجوز تأويل هذا الإعلان على أنه يخول لدولة أو فرد أو جماعة الحق في القيام بأي نشاط أو تأدية كل عمل يهدف إلى هدم الحقوق و الحريات .

انتهى

هل النص إذا جملة من المواقف الهلامية التي تجهل وتتجاهل الوضع الحقيقي للحقوق ؟ طبعا لا فهو عبر التلميح الذكي والأشارة البارعة أدقّ واشمل وأوجز وأبلغ وصف لهذا الواقع المرعب .
لاحظ أيضا أننا أمام وصف لوضع هذا الإنسان بعد طول علاجه من قبل مشاريع خلاص لا تحصى ولا تعدّ .بالطبع نحن لا نقوّل النص ما لم يقله وأنه ثمة في هذا الوصف المفزع تعريض ضمني بفشل كل هذه المشاريع . لكن من يستطيع إنكار أن هذا ما وصلنا إليه رغم خمسة آلاف سنة من الدين والثورة ، من العلم والفلسفة والفنّ ، من .... الحضارة .
إعلاننا إذن وصف دقيق لحالة الوهن والضعف التي يعرفها الحق في عالم اليوم ..
وفي هذه المرحلة من التجريب على النص سنكتفي بتسجيل الظاهرة ، الأمر الذي سيدفعنا لتحوير في العنوان جاعلين منه: الإعلان العالمي لأوضاع الإنسان ثم مواصلة التفكير وهاجسنا اكتشاف سبب مثل هذا الوضع البالغ التعاسة، من داخل النص ومن داخل بقية جوانب المفهوم نفسه.

لا وجود للحق دون الواجب وإلا لما كان له حدّ

لنواصل الحفر عبر تجربة ذهنية اخرى نسميها القراءة في المرآة .
خذ أي مادة من مواد البند العالمي ، مثلا التاسع عشر للتمرين.
" لكل شخص الحق في حرية الرأي و التعبير و يشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل واستقاء الأنباء و الأخبار و تلقيها و أذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيّد بالحدود الجغرافية ".
لنستبدل المصطلح الفضفاض "لكل شخص "بشخص محدد و معرّف . تكون صياغة المقطع الأول للجملة كالآتي: لي أنا فلان ابن علان ...الحقّ في حرية الرأي و التعبير.
السؤال : كيف يمكنني ممارسة هذا الحق ؟ طبعا بالتعبير عما يخالج صدري . ما أسهل الأمر لو لم يكن محدودا ، مقيّدا وخطرا . يتحوّل السؤال ليصبح من يحدّ أو يتصدّى لممارسة هذا الحق ؟
الردّ بديهي : إنّه هيئة معنوية أو شخص محدّد قد يكون أنت أو من هم على شاكلتك السياسية أو العقائدية.
خذ الجملة الآن و ضعها أمام مرآة خيالية تنعكس عليها الفكرة ، لكن مقلوبة . تصبح الجملة آنذاك:
لك*أنت* علان ابن فلان ...الحق في حرية الرأي و التعبير.
السؤال الآن : من يستطيع التعرض لحقك في حرية الرأي ؟ أنا بالطبع أو من هم على شاكلتي السياسية أو العقائدية .

معنى هذا أن تمتعي أنا بحقي في حرية الرأي والتعبير رهينة اضطلاعك أنت بواجب تركي أمارس حرية الراي والتعبير
معنى هذا أن شرط تمتعك أنت بحقك في حرية الرأي والتعبير رهينة اضطلاعي أنا بواجب تركك تمارس حق حرية الراي والتعبير.
ثمة أيضا فكرة داخل الفكرة وهي أنك تستطيع التعبير عن رأيك بكل حرية ودون أن تتعرض لأي عقاب من المشرّع أو مني ....لكن شريطة أن تمارس هذه الحرية داخل حدود معينة. فلا يمكن باسم حقك في الرأي أن تتطاول على حقي في الكرامة الذي تضمنه المادة الأولى أوحقي في الحياة الشخصية الذي تضمنه المادة الثانية عشر أوحقي في البراءة المسبقة الذي تضمنه المادة الحادية عشر أوحقي في المحاكمة العادلة الذي تضمنه لي المادة العاشرة ولا تضمنه السنة الناس المحرّرة من كل عقال.
عليك إذن *أنت* تقدير الحدود التي تسمح لك بها حرية الرأي لإنها إذا تجاوزت حقوقي المشروعة أصبحت غير شرعية .
إذن حقي في آخر المطاف هو واجبك –(أو واجب شخص آخر أو هيئة ما) مثلما حقك هو في آخر المطاف واجبي (أو واجب شخص آخر أو هيئة ما).
تسقط الحجة الضعيفة التي تجعل الحق في واد و الواجب في واد آخر . على العكس تظهر القراءة المتمعنة أن هاجس المؤلف كان من البداية ، بصفة مغلفة وذكية، تحميل الإنسان من المسؤوليات ما لم تحمّله إياه أي من النصوص المؤسسة القديمة . غريب ألا يخجل البعض من تقديم فلسفة حقوق الإنسان و كأنها ذروة ايدولوجيا تأليه الفرد والحال أنها تحمله من المسؤولية ما تنوء بثقلها الجبال .

لهذا جاءت المادة التاسعة و العشرون التي تتحدث عن ضرورة اضطلاع كل فرد بواجباته إزاء المجموعة زائدة بل و خارجة عن الموضوع أصلا لأن النص لم يفعل شيئا آخر غير التنصيص عليها من البداية إلى النهاية .

إذا قبلنا أنّ الحق مساوي للاضطلاع بواجب ، أن الحق والواجب وجهي نفس العملة ، فإننا لا نتعسّف على النصّ إذا كتبنا : واجبي تمكينك من حقك في الرأي....واجبك تمكيني من حقي في الرأي .
من حقنا إذن أن نستبدل في النصّ المصطلح " لكل شخص الحق في " بمصطلح يؤدي نفس المعنى ويؤدي خاصة إلى نفس النتيجة من نوع "على كل إنسان أن" .... أو من "واجب كل إنسان أن"

لنطبق العملية على كل النص مما سيعطينا صياغة جديدة أخرى .
النصّ المعكوس
على كل شخص (الاعتراف – القبول- التصديق) بأنّ جميع الناس يولدون أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق .
على كل شخص احترام حقّ كل شخص في التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة دون أي تمييز ....
على كل شخص احترام حقّ الغير في الحياة والحرية وسلامة شخصه.
على كل شخص ألاّ يسترقّ أو يستعبد أي شخص.
على كل شخص عدم تعريض الغير للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.
على كل شخص الاعتراف لأي شخص أينما وجد بشخصيته القانونية .
على كل شخص اعتبار كل الناس سواسية أمام القانون .
على كل شخص احترام حقّ الآخر في الالتجاء إلى المحاكم الوطنية لإنصافه .
على كل شخص عدم المشاركة في القبض على أي إنسان أو احتجازه أو نفيه تعسّفا.
على كل شخص الدفاع عن حقّ الغير في المساواة التامة .
على كل شخص اعتبار الآخر بريئا من كل جريمة إلى أن تثبت إدانته .
على *كل شخص* عدم التدخل تعسفا في حياة الغير الخاصة .....
على كل شخص العمل على أن يتمتع الغير بحقه في حرية التنقل واللجوء .

على كل شخص الدفاع عن حق الغير في التمتع بجنسية .
على كل شخص الدفاع عن حقّ الغير، رجلا أو امرأة متى بلغ سن الزواج في تأسيس أسرة .
على كل شخص الدفاع عن حقّ الغير في التملك ....
على كل شخص احترام حقّ الغير في حرية التفكير والضمير والدين .
على كل شخص السعي لتمكين الغير من حرية الر أي والتعبير.
- *على كل شخص الدفاع عن حق الغير* في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية ...
على كل شخص احترام حقّ الغير في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده .
على كل شخص السعي إلى أن يتمتع الغير بحقه في الضمانة الاجتماعية .
على كل شخص السعي إلى أن يتمتع الغير بحقه في العمل .
على كل شخص السعي إلى أن يتمتّع الغير بحقه في الراحة .
على كل شخص السعي إلى أن يتمتّع الغير بحقه في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة .
على كل شخص السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه في التعليم .
على كل شخص السعي إلى أن يتمتع الغير بحقه في الاستمتاع بالفنون..... والمساهمة في التقدم العلمي
على كل شخص السعي إلى أن يتمتع الغير بحقه في التمتع بنظام اجتماعي ودولي .
على كل شخص ألا يخضع في ممارسة حقوقه وحرياته إلا لتلك القيود التي يقررها القانون.
المادة الثلاثون
على كل شخص الاعتراف بأنه " ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخوّل لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه ".
انتهى
تمكنناالقراءة المعكوسة إذن من توضيح بعد هام لمفهوم الحق بما هو *كل ما يحتاجه الإنسان من الإنسان حتى تتحقق إنسانيته.*
كما تظهر أن ***الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هو في الواقع الإعلان العالمي لواجبات الإنسان وأن الوضع المأساوي التي هي عليه*** ليس نتيجة قضاء وقدر وإنما نتيجة مسؤوليات لم يتمّ الاضطلاع بها... تلقائيا وبصفة طبيعية .
السؤال كيف يمكن إجبار الواجب على الاضطلاع بدوره حتى يوجد الحق؟

لا وجود للحق دون قانون وإلا لما كان له سلاح

يتم ذلك عبر أداة أصبحت مرتبطة بالحق إلى درجة أن عديد من اللغات تستعمل مصطلحا واحدا للتدليل عليهما : القانون .
لاحظ أنه لا وجود لقانون ينظم التمتع بحقوق ليست بحاجة لتنظيم مثل الحق في التنفس والحق في نور الشمس . وفي الاتجاه المعاكس لاحظ أنه لا حاجة لقانون يمنع الناس من حرق أقدامهم كما يقول فرويد لأن حتى المجانين على كثرتهم لا يحرقون أقدامهم . إن مجال عمل القانون محدود دوما بكل يشتهيه الأفراد وغير المتوفّر للجميع في نفس الوقت.
القاعدة أن أي مجتمع محكوم بالعنف المثبت للامتياز مثل المجتمعات التي تعيش في ظل الاستبداد السياسي والاقتصادي يشهد مدّا في الامتياز وجزرا في الحق . أما في المجتمع الخاضع لقوة القانون أي الذي يعيش في كنف الديمقراطية السياسية والاجتماعية ، فإن الامتياز هو الذي سيتقلص(لكنه لا يختفي ابدا) ليتوسّع مجال الحق على حسابه.
وفي مثل هذا المجتمع تنبع الثقة –إن لم نقل الوقاحة- التي نبديها ونحن نطالب بحق ما، من يقيننا أنه مثلما للبيت رب يحميه ، ثمة للحق من يقوم بنفس المهمّة هو هذا العقد الجماعي الذي حدد لكلّ فرد ما له وما عليه.
لذلك أعار المشرّع العالمي القانون قسطا كبيرا من إهتمامه.

ترد الكلمة في أكثر من موضع في النصّ .
- و لما كان من الأساسي أن تتمتع حقوق الإنسان بحماية **النظام** القانوني.
- لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف له بشخصيّته **القانونية**.
-كل الناس سواسية أمام **القانون**.
-لكل إنسان حق الالتجاء إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له **القانون**.
- كل إنسان متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن تثبت ادانته **قانونيا**.
-لا يدان أي إنسان متهم بجريمة نتيجة أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرما وفق **القانون** الوطني.
-وله الحق في حماية **القانون** من مثل هذه التدخلات والحملات.
-"لا يخضع أي شخص في ممارسة حقوقه وحرياته إلا لتلك القيود التي يقررها **القانون** مستهدفا لأمنها منها ضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها لتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي ".
نسنطيع الآن بالتوليف بين الجمل استخراج رؤية المشرع العالمي للقانون *وهو أنه* ***جملة*** *الإجراءات الجبرية التي تضمن الحقوق الواردة في الإعلان، دون قيد اللهم إلا تلك التي تحدّ من نفس الحريات والحقوق التي يتمتع بها الآخر....كل هذا في إطار المساواة بين البشر وفي مجتمع ديمقراطي .*
لا يعترف المشرّع العالمي إذن بنوع معين من القانون أي بكل إجراءات جبرية لا تضمن الحقوق ولا ترجعها لأصحابها الشرعيين ولا تعامل البشر على قدم المساواة ولا تسعى لبناء مجتمع ديمقراطي .....ولو سميت قانونا .
كأن المشرّع يقصد احدا أو فهما معينا للمصطلح وربما حتى تلاعبا به.
ثمة إذن خلاف غير معلن عنه حول طبيعة مفهوم ، تعريفه هو الآخر موضع خلاف قديم ومتجدّد .
وفي بعض محاولات هذا التعريف :
- القانون هوما ينظم العلاقات بين البشر مثلما ما هو ينظم العلاقات بين الأجرام في السماء (شيشرون)
- هو العلاقة الضرورية بين الكائنات (منتسكيو)
- هو طبيعة التنظّم الاجتماعي بل هو بالأساس هذا التنظم الاجتماعي(دوركهايم)
- هو التعبير عن الإرادة الجماعية(المادة 4 من إعلان حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية)
- هو الاسم الآخر للقوة و بدونها لا يوجد (نيتشه) .
غريب أن لا أحد أورد ذكرا للعدل والحال أن أغلبية الناس تقرن دوما المصطلحين .
هل يكون السبب أن كل الذين غامروا بتعريف القانون كهول خبروا الحياة والبشر ولم يعد لهم أي وهم قد يكون خامرهم وهم شباب حول وجود علاقة جدية بين هذا وذاك؟
أليس كلّ التاريخ شهادة على أن القانون انتصر للظلم مثلما ما انتصر للعدل، وأنه سهر أحيانا على دوام الظلم أكثر مما سهر على نشر العدل؟
لا يجب أن ننسى أن حتى الدول الديمقراطية أرست الاستعمار على قانون وكذلك أنظمة الميز العنصري وأنظمة الاستبداد اليساري والاستبداد اليميني .. بل يمكن القول أنه لا أكثر انتاجا للقوانين ودعوة لاحترامها من المستبدّين والعنصريين والاستعماريين . كيف لا يدعون لمثل هذا الأمر وهم من يسنّون القانون ويسهرون بكل أشكال العنف على فرضه .
لقائل أن يقول ما الذي يدفع مثل هؤلاء الناس إلى تغليف القوة التي يملكونها بالقانون؟
والردّ البديهي لأن فعالية تقييد إرادة المستعبدين تزداد بتعدّد الأشكال والوسائط، منها خدعة وعي مزيّف تغلفه الأيدولوجيا وخدعة شرعية مزيّفة يغلفها القانون .
يمكن للقانون إذن أن يشرّع لنفي الحقّ .
ولو تأملنا بعمق في كل هذه المفاهيم التي تبدو مختلفة لاكتشفنا أن الحق والواجب والقانون مجرّد مظاهر مختلفة للصراع الأزلي حول النادر والصعب المنال .

هذا ما يجعل القانون جملة القواعد التي تفرضها بشكل أو آخر من القوة الجماعة المنتصرة مرحليا في الصراع الأزلي على النادر والصعب المنال يؤدي تجاوزه بأي فعل كان إلى إلغاء الفعل أو إلى عقاب قد يصل حد إلغاء الفاعل.
يحاول المشرّع العالمي توجيه القانون في الاتجاه الذي يخدم مشروعه . لكن أليس من حقنا إتهامه بالسذاجة أو بالركون إلى المواقف السحرية لأنه لم يفسّر لنا كيف سنجبر القانون على أن يكون في صالح الحق لا ضدّه .
والآن هل أحطنا بكل جوانب المفهوم؟ هل وصلنا آخر طبقة المنجم أم هل ما زال هناك مزيد للحفر؟

ثمة قاعدة تعلّمها القراءة وهي أن أوجه المفهوم لا تستنفذ ، أننا نفاجأ دوما بأن أهم وجه بقي مخفيا . اللعنة ! ما الذي نسيت القراءة، وهل من الممكن أن تكون قد تعامت عن لب المفهوم بعد كل هذا الجهد.

ثمة فكرة هامة لا يجب أن تنسى قد تكون آخر طبقات المنجم ....وقد لا تكون .

لا وجود للحق دون انتهاك وإلا لما كان له حركية .

مثلما لكل نص قضية يدافع عنها فإن له آليا قضية يهاجمها تمثلت في أفكار أو مؤسسات ممارسات أو اشخاص .

لا يشذّ هذا النص عن القاعدة، فضد من يكتب المشرّع العالمي ومن يدين بالغضب المكتوم الذي تنضح به الديباجة ؟

من تجاهل واحتقر حقوق الإنسان وارتكب أعمالا أثارت... الخ ؟

من يقوم بتعريض الإنسان للتعذيب أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة ؟
وفي عالم الواقع لا بدّ من ربط الأفكار المجرّدة بمن يحرّك هذه الأفكار وبمن يتحرّك داخلها ، فالحق لا يعزل عن فاعلين ولا يوجد خارجهم أو فوقهم أو مستقلاّ عنهم .
ترصد القراءة منهم ثلاثة :
- الشخص (أو الهيئة المعنوية) الذي يطالب بتمكينه من الحق ، ويشجّعه المحرومون أمثاله على الأمر بحكم من نوع " ما ضاع حق وراءه طالبه " ، علما و أن الجري وراء الحق شرط ضروري لكنه غير كافي للحصول عليه.
-الشخص(أو الهيئة المعنوية) الذي يحدّد طبيعة الحقوق ويسهر على آليات التمكن منها - مثل المشرّع المحلي أو في أعلى المستويات المشرّع العالمي.
- الشخص (أو الهيئة المعنوية) المطالب بالاضطلاع بواجبات موثّقة في الإعلان العالمي للواجبات والذي أدى تنكره لها إلى الوضع الذي يصفه النص المضادّ.
لا يتجاسر الكاتب في البداية على فضح اسم هذا المجرم .
هناك تلميح بخصوص هويته . لكن ثمة ايضا رهبة وإحجام عن تسمية من خان واجبه . إنّه أمر طبيعي في كتابة كل النصوص فنحن نكتب والخوف رفيقنا ،وعينا به أم لم نعي.
ثمة الخوف من العقيدة السائدة ، من السلطة السائدة ، من الخطأ، من التسفيه، من السخرية , من النقد و أحيانا من الحقيقة نفسها.
لا يشذ هذا النص عن القاعدة حيث لا يلمّح الكاتب لمسؤولية المظنون فيه إلا ويسارع لمداهنته . انظر صيغة الجملة التالية الواردة في الديباجة : "و لما كانت ***الدول*** الأعضاء قد تعهدت بالتعاون بالعمل مع الأمم المتحدة على ضمان تعزيز الاحترام الخ ".
كم مضحك أن يربط الكاتب الدولة بتعهّد الحقوق من البداية ، والحال أنها متهمنا الأوّل، أساسا في شكلها الاستبدادي، ولوأن ملفات بعض الدول الديمقراطية في منظمة العفو الدولي أثقل أحيانا من المنتظر.
قال ممثل هذه المنظمة العريقة في ندوة حول التعذيب وهو يرتعش غضبا : للدولة وظيفة رئيسية أساسية هي السهر على أمن كل شخص عبر تحريم المساس بالجسد قتلا أو اغتصابا أو حتى قرصا في الحافلة

و بالتالي فهي إن مارست ما جعلت لصده كالشرطي الذي يسرق .إن كل دولة تعذب تدمر شرعيتها بنفسها و بالتالي فإن تغييرها يصبح أمرا شرعيا .
نسي صاحبنا أن حساسية الدولة لتهمة التعذيب أمر حديث جدا . فكم من بشر عذبوا على قارعة الطريق طوال التاريخ وبمباركة السلطة , دون أن تشعر أنها تنقض شرعيتها , بل ومعتبرة أن هذه الشرعية المبنية على القوة تكتسب مزيدا من المتانة و الصلابة بالتعذيب و الإعدام .حتى في عصرنا هذا، لا تمنع الحساسية الجديدة عددا كبيرا من الدول من ممارسة التعذيب لأن الرهان ليس صورتها عند الرأي العام و إنما وجودها .
نسي صاحبنا أيضا أن وظيفة تحريم المساس بالجسد التي تضطلع بها الدولة هي الوجه الآخر للمونوبول الذي منحته لنفسها في الموضوع . هي تمنع هذا المساس بالجسد لغيرها لأنه في اعتبارها وبكل بساطة ***حقا من حقوقها وحدها***، شأنها في هذا الشأن جمع الضرائب ،أو القتل بالإعدام ، أو تنظيم التقتيل الجماعي الذي تسميه الحرب.
لا بدّ من الانتظار قرابة الأربعة عقود لنرى المشرّع العالمي يتخلّى عن ديبلوماسيته، أو جبنه، ليكتب بمنتهى الوضوح في إحدى الشروح العديدة للنص واجبات الدولة التي أدى عدم التقيد بها إلى الفضاعات التي جربها ولا يزال طوما .
ها هو يكتب في " المعاهدة العالمية ضدّ التعذيب" لا يخشى من ترديد اسم المتهم في كل جملة:
- تتخذ كل دولة طرف إجراءات تشريعية أو إدارية أو قضائية فعالة لمنع التعذيب أو المعاملة القاسية و اللاإنسانية و المهينة .
- تضمن كل دولة اعتبار التعذيب جريمة .
- تنظّم كل دولة قواعد الاستجواب و الحجز و الاعتقال و التوقيف .
- تضمن كل دولة الاستجابة السريعة و النزيهة لكل من قدم شكوى بالتعذيب .
- تعوّض كل دولة ضحية التعذيب .
- تضمن كل دولة إدراج التعليم و الإعلام فيما يتعلق بحضر التعذيب .
- لا يجوز للدولة طرد شخص في خطر التعرض للتعذيب .
المهمّ أن الكاتب تخلّص، ولو في الفرع لا في الأصل ، من الخوف . أليس التحرّر منه ، كما كتب في الديباجة الهدف الأسمى ؟
هيهات فالنص تجاوز مرحلة من مغالبة الخوف والدليل أن .....
تخلق المعاهدة لجنة تستغرق تركيبتها ومدة عملها و من يتحمّل نفقاتها وماذا يجب عمله في حالة وفاة أحد أعضائها أو استقالته من الجمل و الكلمات ما استغرقته ضمانات حق طوما في الحرمة الجسدية .
نصل بعدها إلى " صلاحيات " اللجنة ويبدأ تقطيب الجبين .
" تتلقى- اللجنة- المعلومات. تجري تحقيقا سريا. تحيل تقريرها إلى الدولة المتهمة (بصفة سرية). لا تتدخل إلا إذا تأكدت أنه تم الالتجاء إلى جميع وسائل الانتصاف المحلية (و كأن للدولة التي تعذب وسائل انتصاف محلية) . تعقد اجتماعات مغلقة. تعدّ تقارير موجزة إذا تم التوصل إلى الحل و غير موجزة إذا لم يتم التوصل إلى الحل ثم ..... . تبعث بوجهات نظرها إلى الشاكي والمشتكى منه .
و أخيرا النكتة .
" يمكن لأي دولة وقت التوقيع أو التصديق على هذه الاتفاقية أو الانضمام إليها أن تعلن أنها لا تعترف باختصاص اللجنة المنصوص عليه في المادة 20 و المادة 28 ".
تتعالى القهقهة ونحن نتصور الكاتب المسكين يتصبب عرقا وهو يكتب ويناور مشروع قانون هيكلة الشرطة البلدية تحت إملاء ممثلي المافيا .
لكن هل من معنى – أو من جدوى- لحصر هوية المجرم في الدولة ؟ وفي البداية ما هي هذه الدولة المتهمة بانتهاك حق أساسي مثل الحق في الحرمة الجسدية ؟
لنستعرض بعضا من التصورات التي تحفل بها الكتب عن الدولة ، مع الانتباه لكوننا لا نصغي لمفكرين في المطلق هم بصدد البحث عن الحقيقة وإنما لموظفين ثقافيين أو لمثقفين يتوهمون الاستقلالية ، والحال أنهم مكلفون بمهمة التشريع النظري للوضع القائم وتبرير وجوده.

-الدولة هي الأداة التي تمكّن الطبقة المحظوظة من أحكام سيطرتها على الطبقة العاملة (ماركس) .
- الدولة هي الجدار المحيط بالحديقة التي بنيت فيها أزهار الإنسانية و ثمارها (هولدرلين) .
- الدولة هي السلطة العليا التي لا تقاوم و لا تراقب (بلاكسون) .
- الدولة هي الخديعة الكبرى التي تمكّن كل أحد من العيش على حساب الآخر (باستيا) .
الدولة هي كل شيء ولا يمكن أن يوجد شيء ضدها أو خارجها (موسوليني).
- الدولة هي أداة مواجهة العدو الخارجي (توينبي) .
- الدولة هي جهاز تتتبع العدو الداخلي (كارل شميت)
لنتوقف عند تصوّر هذا الكاتب النازي، لا لأن فيها فظاظة الصراحة العارية فحسب، وإنما لأنها لمنظّر الدولة التي قتلت أكبر عدد من أعداء الداخل والخارج على مرّ التاريخ البشري.
يعتبر إذن كارل شميت أن مهمة الدولة تتبع العدو الداخلي والقضاء عليه أما ما تضطلع به من مهمات أخرى فمسألة جدّ ثانوية . ليكن أن هذا مفهوم شميت للدولة ولنلاحظ أن هناك رؤى أخرى لتعريفها وتحديد أولوياتها . السؤال من وراء هذه الاختلافات ومن يحدّد طبيعة الدولة وأولوياتها ؟
يتطلب الرد الخروج من مبهم المفهوم وعمويته لتفكيكه إلى أجزائه المكونة.
تؤدي العملية إلى اكتشاف تهيكل عمودي وآخر أفقي للدولة . هي في التحليل العمودي مثل هرم قاعدته أبسط الموظفين في الوزارات وباقي المؤسسات . أما قمته فتتمثل في أعلى مراكز القرار التي تنتهي عند رئيس الجهاز التنفيذي سمي ملكا أو رئيسا.
هي مكونة إذا حللناها أفقيا من كل الأنظمة الثانوية مثل مؤسسات الصحة والتعليم والأمن الداخلي والدفاع الخ ، المكلّفة بتقديم جملة من الخدمات المختصة في إطار الوظيفة العامة للنظام العام الذي يحتوي كل هذه الأنظمة وهي تسيير شؤون المجتمع .
لا معنى إذن لمطالبة ال380 ألف عامل داخل الدولة التونسية بتحمل مسؤولياتهم في قضية مثل التعذيب خاصة وأن الأغلبية الساحقة من افرادها تقدم خدمات جليلة على طرف النقيض من بشاعة الجريمة الكبرى. كما لا معنى للقول أن وظيفة كل هذه الأجهزة تتبع العدو الداخلي أو الخارجي لأنهما وظيفتان لجهازين من بين الأجهزة .
يأتي الغموض والتشويش المقصود من الخلط بين الدولة، بما هي الأداة المادية المتمثلة في جملة الموظفين، وبين محرّك هذه الأداة وهو مجموعة صغيرة توجد على رأس الهرم وتتوزع في تقاطعاته الهامة لتضخّ فيه إرادة قاهرة توجّه عمل أجزاء النظام .
إن هذه المجموعة الصغيرة هي التي تشكل ما تسميه كتب القانون النظام السياسي ويختزل فيه الاستبداد تجاوزا مفهوم الدولة بقصد التعمية والتمويه .
وبما أن الشكل الاستبدادي للدولة، الذي تتضخم فيه أجهزة العنف الداخلي والخارجي كأورام خبيثة ، هو أول متهم في قضية انتهاك أغلب الحقوق الدنيا ، فإن السؤال الهام هو لماذا يتهيكل النظام السياسي في أغلب الدول على الشكل الاستبدادي ،الأمر الذي أدى ولا زال إلى كل الأعمال التي أثارت بربريتها الضمير الإنساني ؟
إن أحسن مدخل فهم للظواهر متابعتها وهي تتكون . وفي هذا الصدد فإننا سنستعمل نصا ليس لمؤرخ ولا لمفكّر ، ولكن لأديب له ما يكفي من الحدس لكي يفهم ويفهمنا تلقائيا كل ما يريد المؤرخون والمفكرون نجاهله أو التغطية عليه.

*

وصف الكاتب الروسي فلاديمير سوروكين لتكوّن الشيء .

" لقد أثار في الكريملين دوما ،وأرجو أن لا يتغير ذلك، *رعبا مقدسا* إلى درجة أن أي ذكر لهذا المكان العتيق ، أي صورة ، أي إشارة له في نص ،في الراديو ، في التلفزيون أو حتى في حديث عابر، إلا ويدفعني إلى رسم إشارة الصليب و إلى السجود . لم انظر يوما للكريملين كمكان عادي .
لقد مثّل دوما بالنسبة إلي رمزا للدولة . كان إشعاعه المغناطيسي يمنعني من التثبت في خصائصه المعمارية .هل يطلب من إنسان أعطى له أن يملأ عينيه من العذراء أن يتذكر شيئا عن ثوبها . ها أنا مضطرب أشد الاضطراب كلما تكلموا عن الكريملين كمكان تاريخي ، كأثر من آثار التاريخ الروسي .

بسرعة تراني جاثيا على ركبتي *ارسم علامة الصليب* هامسا بكل رهبة : آسف أيها الأصدقاء ، لكن الكريملين ليس مجموعة هندسية و لا أثرا تاريخيا. كيف يمكن تعريفه إذن ؟
إن دراسة متمعنة لخارطة موسكو في عصرنا هذا أو في كل القرون الماضية تلاحظ أنه يحتل وسط المدينة في شكل مثلث قاتم اللون بل وأسود في غالب الأحيان .
يعلم المتعودون على الرموز أنه الرمز الذي يوضع فوق *رأس الإله سابوث ، إنه رمز الله ، رمز الثلاثي المقدس و رمز قوته الخارقة .*
إذا اعتبرنا الآن أن سلطة الدولة أخذت محل سلطة الله في روسيا منذ أمد بعيد, فإن هذا اللقاء في الرمز ليس من قبيل الصدفة . واللاشعور الجماعي الذي قاد يد الرسام كما نعرف، لا يخطئ أبدا، لذلك لا أدخل الكريملين إلا وكأني دخلت المثلث الأسود للسلطان .... المكان الإلهي .... قلب روسيا . فكل شيء هنا،السور ... البنايات ...الطرق المبسطة ممزوج بدم جحافل كهنة السلطة الذين ضحوا بحياتهم من أجل النشوى التي تمنحها و إلا كيف نفسر أن حيطان الكريملين حمراء اللون .
أبدأ في الارتعاش و في الصلاة حالما تلامس قدمي أرض الكريملين . كيف لا أرتعش و لا اصلي ، أنا الأديب الموسكوي التافه و الحال أن هناك، في مدخل الكاتدرائية، هشم إيفان الرابع بضربة صولجان رأس إيفان الثالث ، ليلبس التاج ويبدأ حرب كازان !
كيف لا أرتعش ولا أصلي وعلى أحجار هذا الطريق تهشم إيفان الرابع بعد أن رماه بوريس قودونوف من علو منارة إيفان الأكبر ليتوج الرجل نفسه معلنا الحرب مباشرة على بولونيا ولتوانيا !
كيف لا أرتعش وقد تدحرج رأس بوريس قودونوف من نافذة قصر الواجهات بعد أن جره ميخائيل رومانوف ليتوّج نفسه معلنا مباشرة ضم أوكرانيا إلى روسيا ! كيف لا أرتعش وقد قتل هذا الأخير تحت سنابك الخيل فإذا بابنه وخليفته يعلن خسوفا كاملا للشمس !
كيف لا أرتعش وقد حرق حيا الكسيس ميخاليوفيتش في قدر ملآنة بحليب الماعز قبل تتويج بطرس الأول والإعلان عن وضع أول حجر لمدينة سان بيترسبورغ !
كيف لا أرتعش وقد خنق بطرس الأول في الكاتدرائية لتجلس على العرش اليزابيث الأولى وتعلن مباشرة ولادة جامعة موسكو !
كيف لا أرتعش وهنا بالقرب من الحمامات، قتلت اليزابت بماء الفرق قبل أن تتسلم السلطة كاترين الثانية لتعلن مباشرة الحرب على تركيا !
كيف لا أرتعش وهنا في الحجرة الملكية ،اغتصب بول الأول كاترين الثانية إلى حد الموت ثم خلفها في حين استشرت في اثني وثلاثين مقاطعة ثورة الفلاحين !
كيف لا أرتعش وعلى مرمى حجر من مستودع السلاح، هشّم بول الأول ودق في المهراس الملكي قبل أن يلبس تاجه الكسندر الأول ليعلن الحرب على نابليون في ثورة الديسمبريين !
كيف لا أرتعش وقد تطاير مخ الكسندر الثاني هنا على الحائط قبل تمكّن نيكولا الأول من السلطة وكان ذلك يوم ولادة ليون تولستوي !
كيف لا أرتعش وقد قتل نيكولا الأول تحت باب بوروفيتسكي تاركا المكان لالكسندر الثاني وكان ذلك يوم صدور" رأس المال" بالروسية !
كيف لا أرتعش وقد قتل هنا، في هذه الأكمة من الورود، الكسندر الثاني وكان ذلك في نفس الفترة التي احتفل فيها بتتويجه الكسندر الثالث والذي عرف عهده تقييد حقوق المحاكم العرفية وبداية المجاعة في روسيا الأوروبية !
كيف لا أرتعش وقد مات الكسندر الثالث من الوحدة تاركا العرش لنيكولا الثاني وكان ذلك إبان الاستعداد للثورة الكبرى !
كيف لا أرتعش وقد أعلن عن موت هذا الأخير بملك المدافع !
ثم كانت الثورة الاشتراكية العظيمة التي لم تلبث أن فتحت مسابقة لأحسن محنّط للحفاظ على رفات الرفيق فلادمير اليتش لينين .
كيف لا أرتعش وقد مشى هنا ستالين ، حاملا وهو يبكي رأس لينين للمتحف مباشرة قبل أن يتوّج بدوره ويعلن استبدال الأرثوذكسية بالإسلام والتخلص من الإسكافيين كطبقة مضرة واستصلاح لوحة ربين

المرعب وابنه ايفان , إلى جانب المنع المطلق للفئران واللون الأزرق والطرد الجماعي لليوقور من سيبيريا، وحل جمعية المتطوعين لإنقاذ غرقى البحر ! كيف لا أرتعش وقد خنق ستالين في قصر الوجهات باللحم المشوي القوقازي ، عرض على إثره فيلم الملاك الأزرق وتم بعده استبدال الإسلام باللوثرية وإعلان تشبثنا بالبوذية وإعادة الاعتبار للاسكافين وتحريم المصافحة والسلام في الشارع وقص الأشجار القزمة ووضع أسس الحرب الباردة وتسمية الرفيق نيكيتا كروتشاف خليفة عاما لستالين ! كيف لا أرتعش وقد خرج من هذا الباب نفس هذا الكروتشاف مقيدا بربطات العنق ليحل محله الرفيق برجناف الذي أعلن نفسه دالاي لاما مقررا مباشرة استبدال الطرق المعبدة بالطرق غير المعبدة والسماح بالمصافحة والحكم بالإعدام على من يتبادلون التحية في الطريق ومنع استخدام الوقاية الدورية بالنسبة لكل امرأة تجاوزت سن السابعة والعشرين !
كيف لا أرتعش وقد مات بريجناف من الرعب ثمّ أعلن على إثر وفاته نشأة جمهورية ديمقراطية بدأت بتتويج الرفيق اندروبوف وإعلان انتصار الاشتراكية في روسيا وتدمير المعابد البوذية واستصلاح الكنائس الأرثوذكسية ! كيف لا أرتعش وقد اختفى من هذه النافذة الرفيق اندروبوف، الشيء الذي مكّن من ظهور جثمان الرفيق تشرننكو، الذي سمّي ذوّاقه للخيول العربية، في حين تم الإعلان عن تخليد ذكرى ونستون تشرشل والانتصار النهائي والتام للشيوعية في الاتحاد السوفياتي والغلق النهائي لغرفة التعذيب الكبرى في البرلمان الأعظم للاتحاد وإعطاء أراضي الكنيسة لضحايا الحرب وتغيير القانون الداخلي لضرب الخنازير وعقاب الضحك المتعمد في أماكن السعادة العمومية وإنهاء حالة الحصار في حي أكتوبر بموسكو !
كيف لا أرتعش وقد وضعت في مواجهة هذا الحائط قبعة تشرننكو، وقع بعدها توزيع لحم الخنزير على مناضلي الحزب والإعلان عن بداية البرتسرويكا والكلاسنوست والتعددية !"

*

تعليق على نصّ ينبش في أعماق مفهوم نظام الدولة الاستبدادية .
يرتعش المشاهد إذن من مجرّد ذكر وتصوّر ما يوجد في قلب السلطة . لا شكّ أنه صدى لخوف أعمق وأعمّ تنضح به جدران الكريملين .
عودة إلى المصطلحات المعبرة التي استعملها الكاتب باستمرار ومنها "*رعب مقدس* .... رسم إشارة الصليب .... السجود.... هل يطلب من إنسان أعطى له أن يملأ عينيه من العذراء أن يتذكر شيئا عن ثوبها... أنه الرمز الذي يوضع فوق *رأس الإله سابوث ، إنه رمز الله ، رمز الثلاثي المقدس و رمز قوته الخارقة"*.
نحن بداهة في قلب المقدّس لا داخل قصر حكومة في دولة عصرية تدّعي المادية والإلحاد . يفضح الكاتب الروسي المخفي في كل سلطة وهو ارتباطها الوثيق بمستوى خرافي يجعلها من غير طبيعة العالم المحسوس.
دافع الفيلسوف الألماني هيجل في القرن التاسع عشر عن هذا التصور البدائي للدولة كما لم يفعل أحد قبله .
لننصت إليه وهو يتغنى بالدولة كما يتغنى الرهبان بالمسيح .
- الدولة هي ذروة الأخلاق الواعية بذاتها .
- الدولة ما صنعه روح العالم لنفسه .
- إرادة الدولة هي إرادتنا الحقيقية .
- "الدولة المحاربة هي الروح و الشكل اللذان تتأكد فيهما بصراحة وتتحقق اللحظة الأساسية للجوهر الخلقي و الحرية المطلقة للوعي الذاتي الخلقي من الوجود ككلّ و من أي نوع منهم "
أخيرا وليس آخرا يعطينا الفيلسوف القول الفصل في الموضوع : *الدولة هي مشيئة الله على الأرض* .
يا للغرابة أن يكون هذا الفيلسوف الذي نشأت الماركسية من كتاباته هو المنظّر لأكثر الأفكار بدائية في السياسة ، يواصل الرؤى التي نشأت في الكهوف والتي تجعل من الملك ظلّ الله على الأرض ، همزة الوصل بينها وبين السماء... أداة القوة المبهمة التي تقول للشيء كن فيكون.

إذا كانت الدولة هي مشيئة الله على الأرض، فالجالس على قمة الهرم بالضرورة ملك- كاهن يقوم بوظيفة الوساطة بين السماء والأرض . هو متلقي الإرادة العليا وناقلها ومنفذها. نحن لا نعيرمصطلح " عبادة الشخصية" ما يستحقه من الاهتمام . نعتبره ضربا من ضروب البلاغة والمبالغة، والحال أننا أمام تعبير يفضح المسكوت عنه . فهذا الملك الكاهن عابد بجزئه البشري ومعبود بجزئه الإلهي نعبد فيه الوسيط ومن يتعامل معه مباشرة .
يبلغ النبي أو الفيلسوف أو الفنان ذروة سلطانه عندما يعطي الحياة لتشكيلة فكرية تعبر الزمان . يبلغ الملك -الكاهن ذروة سلطانه عندما يقتل الملايين دون أن يحاسبه أحد ، لأن السماء، التي هي نموذجه وهو أداتها ، تعطي هي الأخرى الموت دون حساب أو محاسبة. هذا ما يجعل قدرة القتل الفعلي و الرمزي لب السلطة في النظام الاستبدادي ويمكن اختزالها في قاعدة :" قل لي أي مقدرة لك على القتل أقول لك مدى سلطانك ".
لكن هذه السلطة المطلقة الممنوحة للملك الكاهن ليست بالمجان حيث لها مقابل هو ضرورة محاكاة السماء ***أيضا*** في إعطاء الحياة وتعهدها .
ثمة إذن مسئولية ضخمة في مقابل السلطة الضخمة
يقول عالم الانتربولوجيا Frazer في كتابه الشهير الغصن الذهبي *
"عندما تموت سنابل القمح، تٌتهم قبائل لوانجو الإفريقية قائدها بالقسوة وتخلعه ... وفي عهد جومالد بالسويد دامت المجاعة سنوات عدة ، فاجتمع زعماء القبائل باوبسالا وقرروا أن الملك هو سبب كل المصائب فقتلوه قربانا على مذبح الآلهة . وعند قبائل الآلفي الحبشية إذا ساد الجفاف وتأخر المطر يرجمون ملكهم إلى الموت ويجبر أقربائه على رميه بأولى الحجرات ".
أليس الجفاف والطوفان والمرض والهزيمة من علامات غضب السماء على ممثّلها في الأرض أو على الأقل دليل في فشله في استرضائها ؟ من المسؤول غير الملك - الكاهن ؟
يضيف الباحث في أعمق جذور مواقفنا وتصرفاتنا الجماعية :" عندما يموت الملك عند بعض قبائل كمبوديا ويصبح المنصب شاغرا ، يهرب كل الرجال الذين يخشون على أنفسهم من اختيارهم للعرش".
عبثا. لا بدّ ان يمسكوا بأحد يقدسونه ويعدونه لمراسم الذبح إن كان عطاءه الموت لا يوازيه خدمته للحياة .
ثمة طريقة أخرى لكي لا يبقى المنصب شاغرا هي تجنيد كل ما بداخل النفوس من جشع لأن طعم السلطة المطلقة لا يقاوم طويلا يسنده الوهم الأزلي بالتميز والقدرة على ترويض ما لا يروّض.
ها هو الممثل الأزلي للدور الخطير يقضي بدوره ايامه ولياليه خوفا من الذبح على درجات هيكل المعبد المقدّس. ينتهي كل المغامرين الذين سعوا للسلطة أو أجبروا عليها إلى اكتشاف الحقيقة الرهيبة وهي أن مقايضة أقصى الامتيازات مقابل أقصى المسؤولية مقايضة مغشوشة. لا أسهل على الرعية من الالتزام بطقوس احترام ليست موجهة للشخص وإنما لما يمثّل. لا أسهل عليها من التخلي عن بعض الصيد لتسمن أرداف الملك وحتى بطانته. لكن من أين للسلطان المسكين أن يضمن خصوبة البشر وخصوبة البقر ونزول المطر والعدالة والحرية والديمقراطية والوحدة والنصر والهوية والتقدم والسلام والأمن؟
يكتشف السلطان يوما ما أن المهمة مستحيلة وأنّ البقاء حيا هي المهمة الوحيدة التي يجب أن تتأثر بجهد كل لحظة ، فقلّ من يموت من هؤلاء المساكين في فراشه و إن حصل هذا فبعد حياة سممها خوف مزمن يحيل تجربة الحياة إلى كابوس النهار والليل .
كتب ماكيافال " الأمير" هذا " المصحف " السياسي ليعلّم راكب الأسد الجائع المتربص براكبه فنّ البقاء على قيد الحياة أطول وقت ممكن. يبدأ بشتم كل الذين وضعوا المسكين في الورطة يفتعلون الطاعة ويخططون للانقلاب عليه حال ظهور أوّل ضعف وأوّل فشل : " هناك شيء واحد يمكن أن نقوله عن كل البشر. هم لا يعترفون بالجميل , هم متغيرون , منافقون , جبناء , طماعون ... هم لك طالما أحسنت اليهم . يعدونك بدمهم ورزقهم و حياتهم و أطفالهم إذ كان الخطر بعيدا، لكنك لا تجد أحدا منهم في وقت الشدة."

** Georges Frazer :the golden bough*

لا تعامل إذن مع مثل هؤلاء الناس إلا باكتساب خصائص الثعلب كالحيلة و المراوغة و خصائص الأسد كالبطش الدموي . كذلك على الأمير ألا "يهاب دخول الشر إن لم يجد له بدا من ذلك ". فلا يتردّد في التقلب وخيانة تعهداته و العمل ضد الخير وضد الإنسانية و ضد الدين " لأن كل هذه الأمور حيل يستعملها أعدائه لتعجيزه والقضاء عليه .
ثمة بداهة مشكلة ضخمة في قلب" جهاز تعقب العدو الداخلي " ورأس الدولة مطوّق ، محاصر، مهدّد ، يعيش كل يوم وكأنه آخر أيامه .
لندقق في الحالة النفسية لهذا الآدمي الذي وضع نفسه في ورطة السلطة المطلقة أو أجبر عليها .
لا ننسى أن الظروف الوضوعية تعيّن مكان كل فرد داخل مجتمع له سلم واضح للاعتبار والمكانة شبيه بالموجود عند كل الثدييات . تعمل هذه الظروف لتضخيم أو لتقزيم الأنا كما تحث كل فرد على السعي إلى اكتساب أحسن مكان ممكن على سلم الاعتبار، مما يجعله في حالة استنفار دائم للخروج من الدرجات الدنيا والصعود إلى أعلاها . نحن هنا في مواجهة قوة جبارة تعمل وراء الستار لتعتصر من كل أحد أحسن ما فيه جاعلة من طموحه الشخصي عنصر ديناميكية الطموح الجماعي . وفي حالة فشل القوة الدافعة أو لوضع قاهر يجد الأنا نفسه في أدنى درجات السلم ليضمر إلى درجة ازدراء الذات لذاتها. أما في أعلى درجات السلم فيمكن للأنا ،وهو في قمة الهرم، أن يتضخم بصفة مرضية معتبرا نفسه لا مركز عالمه هو لكن مركز العالم . بديهي أن يتضخم أنا السلطان إلى مثل هذه الحدود وهو يعتبر نفسه ويعتبره من حوله همزة الوصل بين السماء والأرض . هو أوهم عبر الغطاء الايدولوجي للوضعية، أنه ممثل القوى السرمدية على الأرض وبالتالي أن ثمة شيئا من طبيعتها تسرّب إليه منها .
لكن هذا الأنا المنتفخ بقربه من الرب وبسلطاته التي لا تحدّ ، هو كما رأينا أنا مهدّد في وجوده... ومن ثمة لا همّ له إلا التمتع بكل مزايا وضعه واستعمال كل الوسائل المتاحة لإبعاد الخطر عنه.
وفي مثل هذا الوضع يتظافر العامل الأيدلوجي مع العامل النفسي لكي تنزلق السلطة سريعا إلى التسلط. فالسلطة هي قدرة جزء من النظام على التحكم في بقية الأجزاء لكي تتناسق أعمال كل الأجزاء في خدمة المصلحة العامة للنظام ككل .هي وظيفة فيزيولوجية وضرورية لبقاء وعمل أي نظام سواء كان بيولوجيا أو اجتماعيا . لكن عندما يصبح همّ الجزء المكلف بالتنسيق العمل لمصلحته الخاصة ضدّ مصلحة النظام واستعمال كل الوسائل لتسخير بقية أجزاء النظام في خدمة وجوده، ولو على حساب وجود النظام نفسه ، فإننا نصل سريعا حالة من الخلل تتطلب حلاً جذريا يمرّ بالقضاء على المنسق المجنون الذي لم يعد ينسق شيئا وإنما يدمر ويخرب .
لا غرابة أن يدخل هتلر وستالين وبول بوت وانور خوجة وصدّام وجنكيز خان ومراد الثالث في دوامة الشك والبارانيا والقتل بلا ضوابط . إلا أن الأمر لا يزيد إلا في تعميق قلق وخوف سجين القفص الذهبي فهو آخر من يجهل أن عواقب مثل هذا العنف المطلق من عنانه توسيع رقعة المتربصين به، وخاصة الحاشية المقربة محل كل الشبهات ومصدر كل الأخطار العاجلة والمؤجلة . يفرض الأمر تفاقم استعمال العنف وتوسيع مجاله مما يزيد في تهاوي السلطة وانقلابها إلى تسلط يفاقم عجز وشلل النظام .
هكذ يتزايد الغرق في مستنقع الدم ويتزايد اقتراب سكين الجزار من عنق القربان الأزلي المبلل عرقا . يأتي يوم النحر عاجلا أو آجلا.
ها نحن نعيش آخر لحظات الملك-الكاهن الذي قبضت يده طوال حياته على الفراغ وهو يظنها ملآنة بسلطة مطلقةأزلية .
يعرّض دكتاتور سمي دراكولا لمحاكمة صورية لأن من مشمولات مطلق السلطة العدالة الصورية .
نسمع القاضي , وهو المدعي العام، و لا نسمع دفاع المتهم . يشعر البعض في هذا المقطع من المسرحية بالشماتة ، إلا أنها شماتة لا تغني و لا تسمن من جوع فالإشكالية، رغم تعدد الممثلين و المسرحيات عبر العصور المتتالية قائمة ونحن نريد الحل لا الانتقام .
يصدر حكم الإعدام على دراكولا .نمر مباشرة إلى التنفيذ و كأن المخرج لا يريد أن يطيل علينا لأنه يعلم أننا نظارة وقتهم محدود وفهمهم للأمور بدائي وتعطشهم للدم بقوة ضغينتهم على كل الأسياد الذين نهبوا كل اللحم و لم يتركوا لنا إلا عظم الفريسة .
إنها فاجعة التكنولوجيا و إحدى أخطارها : مسرحية الحياة و الموت في سينما القاعة فيها العالم بأسره

و النظارة الأغلبية المخدوعة للأمة الإنسانية .
يقدم دراكولا و هو يحاول الابتسام ذراعه الأيسر إلى طبيب يقيس دمه بمنتهى الجد و هذه من أبجديات تقديم القربان . أنت لا تضحي إلا بخروف سمين يتمتع بكل قواه و إلا رفضه الإله الدموي.
تحاول السيدة دراكولا أن تخفي رعبها , لكن رعبها يستعصي على الإخفاء .
دراكولا وزوجته الآن جثتان مرميتان على الأرض مضرجتان بالدم .
تزداد البنت الصغرى حيرة .
" بابا ، لماذا يعالجونه ثم يقتلونه ؟ فسر لي. لا أحد يريد أن يفسر لي شيئا في هذه العائلة " .
كيف أفسر لطفلة في الثامنة العلاقة بين ذلك الذي أجثى على ركبتيه في ساحة جدة ليقطع رأسه أمام جماهير المدينة و بين هذا الدكتاتور الروماني الملقى مضرجا بدمه على شاشة التلفزيون لمليار متفرج.
وفي آخرة المطاف فإن السلطان نصف مذنب ونصف بريء، فالخلل هو في الوضع وخاصة في الاسطورة البدائية التي تريد السلطان ممثل الإله على الأرض، والحال أنه لا يوجد إلا الإنسان في وحدته وفي مواجهة مصيره الصعب . يدفع السلطان الضحية ثمنا باهظا لهذه الغلطة ويدفّع من وضعوه في هذه الورطة ثمنا أغلى .
أليس من الغباء أن نطالب شخصا في هذا الوضع وفي هذه الحالة النفسية أن يضمن الحرمة الجسدية لطوما وهو يقضي العمر في قلعته المحاصرة مرتجفا من فرط خوفه منه ؟

*

لقائل أن يقول أن مثل هذا التحليل لا يصدق إلا على النظام الاستبدادي لدولة بدائية ، أنه يكفي أن نتحول للنظام الديمقراطي في دولة متقدمة لكي تختفي العوامل الموضوعية والذاتية المؤدية إلى انقلاب السلطة إلى تسلّط وكل ما ينجر عن الأمر.
إنه اعتراض يدلّ على تفاؤل نخشى ألاّ يكون في محلّه ونحن في مواجهة تغييرات جذرية في طبيعة الدولة وسلطاتها أيا كان النظام الذي يحرك دوالبها .
قيل عن بعض السياسيين الإصلاحيين الذين نجحوا في الانتخابات الديمقراطية في بعض البلدان العريقة في الظلم لاجتماعي، مثل البرازيل أو فنزويلا ، أنهم وصلوا للحكم ولم يبقى عليهم إلا الوصول للسلطة .
والتلميح الساخر واضح في معناه حيث أن الحكم السياسي الذي توصل إليه الأصوات في النظام الديمقراطي ليس أحيانا إلا .... قلعة فارغة .
وهذه ليست ظاهرة جديدة أو تتميز بها بعض البلدان المتخلفة . إنها ظاهرة عامة تواجدت في الماضي وكل ما في الأمر أنها تكتسب في هذا العصر حدة وعمقا وشمولا لم تعرف من قبل.
انظر إلى الخرائط التي يطالب التلاميذ المساكين في كل أرجاء المعمورة بحفظها.
تأمّل في خريطة " الوطن المفدّى " الذي يقدّم لهم للتعرف على حدوده المحروسة بجيوشنا الباسلة والتي يجب أن يموتوا من أجل كل شبر من ثراه المقدّس .تساءل أين الخطأ .
ألسنا أمام وهم ، أمام أكذوبة كبرى ...أمام فكر من بقايا ماض ولىّ إلى غير رجعة و لا داعي للتحسّر عليه ؟
قلّ من يعي أن مثل هذه الخرائط ، التي تقبلها حتى عقول الكهول كحقيقة موضوعية، لا تعني شيئا في عالمنا المعاصر ، على فرض أنها عنت شيا يوما ما. فالحدود بين المساحات المتباينة الاتساع والألوان للأوطان، مجرّد سطور ملتوية على الورق، لم يتوقف عندها سحاب تشرنوبيل و تتجاهلها في كل لحظة الطائرات والعواصف وأنابيب الغاز والبترول والرساميل المتحركة وقوافل المهاجرين غير الشرعيين، ناهيك عن قراصنة وتجار ومبدعي الفضاء الافتراضي للأنترنت .
إن المساحات التي تحدّها هذه الخطوط الوهمية- والتي تعكس رؤية أساتذة جغرافيا المعاهد الثانوية وبعض المتخلفين من السياسيين والعسكر - ليست سوى مساحات سلطة بيروقراطية محلية على عدد متناقص من القضايا . الغريب في الأمر أن هوية شعوب هذه المرحلة من تاريخ الإنسانية محدّدة بعامل كهذا ، مما يجعل الفرنسي في آخر الأمر الشخص الذي يتلقى أوراقه وخدماته الأساسية من البيروقراطية

الفرنسية ،والتونسي من تراقبه البيروقراطية التونسية ،والمصري من تطلع روحه البيروقراطية المصرية.
تؤرّخ إن هذه الخرائط الرائجة لسلطة قديمة تفقد يوما بعد يوم مزيدا من قدرة القرار لصالح فاعلين جديدين أساسيين . الأوّل هو المجتمع المدني المحلّي. أمّا الثاني فهو التجمعات السياسية الإقليمية والمنظمات الدولية المختصة والمافيات العالمية وخاصة الشركات الصناعية والتجارية والمصرفية العالمية.
إن مقارنة موارد السلطات البيروقراطية القديمة بموارد السلطات الاقتصادية الجديدة هو المدخل لفهم حجم التغييرات العميقة التي يمر بها العالم .من يستطيع أن يحمل على محمل الجدّ هيكلا اسمه بوركينا فاسو، ولو تبجّح بصفة دولة ،والحال أن ميزانية هذا الهيكل أقل من ميزانية أوبرا باريس ؟هل الأمر مختلف حتى بالنسبة لدولة متقدّمة مثل فنلندا والحال أنّ ميزانيتها أقل من ميزانية جامعة هارفارد؟
أليس من حقنا إذن مطالبة خبراء الجغرافيا برسم خرائط أكثر جدية وحداثة بخصوص مساحات وهوية السلطات الفاعلة ؟ سنكتشف آنذاك أنه إذا كانت السلطة البيروقراطية الداخلية موزعة بين قرابة مائتي هيكل يطلق عليه اسم دولة ، فإن هذه السلطة موزعة بين قرابة خمس مئة هيكل يطلق عليها اسم شركة كبرى تتحكم في نصف دخل البشرية .
وفي إطار هذا التحوّل ، تسرّبت بكثير من الهدوء والصمت السلطة من السياسي المحاسب على كل شاردة وواردة إلى دوائر قرار لم ينتخبها أحد ولا يمكن لأحد محاسبتها هي الأرستقراطيات المالية التي تحكم من عواصمها مثل أطلانطا ، وسييتل ، ودالاس، ودبي، وهونج كونج، وسنغافورة، وشنغهاي وفرانكفورت، وموناكو، وزوريخ.
ولو رسموا لنا خارطة مناطق نفوذ أكسن، وشال، واسو ،وميكروسوفت، وكوكاكولا ، لاكتشفنا خريطة لا علاقة لها مطلقا بالتي يحب العسكريون الموت من أجلها. والسؤال الذي يخامرني عندما أحاول تخيل مناطق نفوذ هذه القوى العظمى الجديدة هو حول طول بقاء صراعها الجبّار على الموارد والأسواق سلميّا. ترى في صف من ستنحاز بيروقراطية محلية قديمة اسمها حكومة الولايات المتحدة إذا أعلنت أمبراطورية أكسن العابرة للقارات الحرب الشاملة على امبراطورية ميكروسوفت العالمية ؟
الهام بالنسبة لموضوعنا خصائص هذه السلطات الغازية التي لم تعد السلطات السياسية سوى غطاء هشّ لها وأداة طيعة بيدها .
هي إذن عابرة للحدود المرسومة على الورق والتي يحفظها الصبيان و يحافظ عليها العسكر. هي غير مسئولة أمام الشعوب التي لا تعرف حتى هويتها . هي خارجة عن نفوذ البيرقراطيات المحلية سواء كانت منتخبة أو غير منتخبة . هي لا تبحث عن إرضاء حاجات الناس بوضع التطور الاقتصادي في خدمة الإنماء البشري وإنما عن أقصى الربح لنفسها في ظروف حرب ضروس مع المنافس . ومثلما هو الحال في كل حرب، حتى ولو وقعت دون اللجوء مرحليا إلى السلاح، لا بد من منتصر ومن منهزم . فمن المنهزم في مثل هذه الحرب ؟ إنها دون شك او منازع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وكل الكلام الجميل الوارد في المادة الخامسة والعشرين.
آه صحيح . نسيت أن الليبرالية نظام اقتصادي ديناميكي يخلق الثروة ويجد فيه كل شخص مصلحته لأن لقداسته- السوق- حدس غريزي يجعله يعدّل دوما نفسه حتى يضمن حقوق الجميع.
خزعبلات لا تقل كذبا ونفاقا عن خزعبلات الشيوعية البيروقراطية القمعية التي صادرت لنفسها مفهوم العدالة مثلما تصادر الليبرالية لنفسها هذه القيمة الرائعة التي اسمها الحرية.
إن المنطق المرضي الذي يحكم الليبرالية المطلقة من عقالها والمتمثل في أن هاجس الاقتصاد لم يعد الإنماء البشري وإنما الربح، يجعلها تتصرّف في كل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية التي ينادي بها المشرّع العالمي في النصّ كما لو كانت آثارا جانبية وحتى هامشية للأهداف الحقيقية . هي تلبي الجزء اليسير من الحاجيات المادية إذا دخلت في خانة الربح، في إطار سياسة تعهّد قوى العمل التي يمارسها الراعي وهو يقتطع من ربحه تكلفة ما يكفي للمحافظة على القطيع . لكن الليبرالية المتوحشة لا تتأخر في تصفية كل هذه الحقوق دون رحمة أو شفقة إذا ضايقت أو هدّدت مشاريعها ...تماما كما يفعل الراعي عندما يضحي بقطيع لم يعد يوفّر له الربح الكافي.

لن تقدمنا الإدانه شيئا في فهم الظاهرة، بل يمكن أن تمنعنا من النفاذ للبّ الإشكالية وهي مجددا فهم طبيعة المنتهك للحق والأسباب العميقة التي تتحكم في هذا الانتهاك .
قلنا أننا لن نتقدم كثيرا في فهم الظاهرة عندما نحمل الدولة بصفة مبهمة المسؤولية وأن علينا البحث عن هذه الأخيرة في طبيعة النظام الذي أدى للموبقات "التي أثارت بربريتها الضمير البشري " وفي طبيعة البشر الذين أنتجهم وأنتجوا هذا النظام . مما يعني أن علينا المرور سريعا من مستوى الشركات العالمية أو الارستقراطيات المصرفية إلى مستوى طبيعة النظام الذي يؤدي هنا إلى موبقات ، هي الأخرى تثير الضمير البشري ببربريتها ، ومنه إلى نوعية البشر الذين أنتجهم وأنتجوا هذا النظام .
لن نتوقف طويلا عند طبيعة نظام اقتصادي هدفه الربح من أجل الربح، ولو على حساب البيئة وقوت وصحة الملايين ، فنقد مثل هذا النظام المجنون متداول منذ القرن التاسع عشر ولن نضيف له شيئا .
المهمّ هو النزول بالتحليل للطبقة الحاملة لوجوده وهي هنا أيضا تظافر عامل إيدولوجي خرافي عن الخير المطلق الذي يمثله السوق وعامل نفسي يتعلق هنا أيضا بالتضخم المرضي للأنا .
نحن لم نتسائل كثيرا عن طبيعة ومرامي الذين يحومون حول السلطان البدائي لحمله على خدمة مصالح يعتقدها مصالحه وهي مصالح الأيادي الخفية التي تحركه . رأينا أن ساعة النحر تدق عندما تجف الآبار ويهلك الزرع . معنى هذا أن هناك وراء السلطة السياسية تفويض للسهر على المصالح المادية للدوائر المختلفة التي يشكل السلطان الاستبدادي مركزها .
لكن حتى هذا السبب ليس كافيا لتفسير ضراوة أعداء السلطان الاستبدادي . هم لا يكفون عن التآمر عليه ولو فاضت الآبار لبنا وعسلا. لا بدّ أن تجد دوما في محيطه من يريد به شرّا ولو كان ذلك المستبدّ العادل الذي يروّج له الخبثاء ويصدق السدّج إمكانية وجوده .
وفي الواقع فإن وضع السلطان على صعوبته مثار طمع هائل . كيف لا يكون الأمر كذلك والحال أن الوجود على أعلى قمة الهرم يعني كما قلنا الاقتراب من الآلهة بكل ما يعنيه الأمر من جبروت ومهابة وخلود.
وحيث أن المكان صعب المنال والمرشحين لمنصب ظل الله على الأرض أكثر من واحد ،فإنه لا بدّ من البحث عن الوجاهة بطرق أخرى وفي ميادين أخرى أين يمكن للأنا أن يتضخم ليشارف تضخم أنا السلطان . ولأن هذا الأخير استأثر بالتسلط الذي يوفره السلاح، فإنه لا يبقى للطامعين في مشاركته جزءا أو كلا من الوهيته ، دون مشاركته الأخطار، سوى الركون إلى أحد ميدانين : المعرفة أوخاصة المال.*
قلّ من ينتبه لكون المؤسسات الاقتصادية والمصرفية الكبرى هي امبراطوريات بالمعنى السياسي للكلمة وليس بالمعنى الاقتصادي أو المجازي كما يخيل للبعض .
يعرّي رجل خبر جيدا المؤسسة الاقتصادية العصرية هو * Bernard Chambon الجذور البدائية للمواقف والتصرفات الفاعلة والفعلية وتواصلها في أحدث الامبراطوريات الصناعية والمصرفية.
يتقدم الرجل ساخرا ***بعشر وصايا*** للرئيس المدير العام ، مما يضعنا مباشرة على المستوى الصحيح للإشكالية أي مستوى القداسة والالوهية والنبوة . يفتعل السذاجة باقتراح تحسين طرق الحكم المطلق المعمول بها ومنها تقنيات القتل الرمزي بالطرد من المؤسسة.
يوصي الامبراطورأن يكون القتل عشوائيا حتى يكتسب أقصى فعاليته . فلا يجب أن يكتفي بالتخلص من منافسيه لأنه أمر بديهي ومبتذل، وإنما يجب أن يضرب بقوة في كل اتجاه لا يهم من تصيبه الضربة بل ومن المستحسن أن تصيب شخصا بريئا وحتى كفؤا . هكذا يمكن أن يسود الخوف والقلق " الرعية " وأن تعيش تحت وطأة القلق الدائم الأمر الذي من شأنه تعزيز سلطة الامبراطور فلا أسهل عليه آنذاك من رمي آلاف العمال إلى الشارع إذا عصوه أو ضايقوه أو لم يتماشوا في مخططاته للسيطرة وهو الذي

---

* Bernard Chambon Tu tueras de temps en temps – les dix commandememts du PDG- éditiond Max Millo-2005

لم يرحم المقربين والأكفّاء . أليست هذه تقنيات المتسلّط السياسي ؟ كيف نستغرب أن يتسلل أو أن يتواصل العنف الداخلي إلى الخارج حيث الحرب على الموارد والأسواق ،أي على السلطة ، على أشدها بين "دول" لا تملك حدودا . يفضح الشاهد ما يعرفه المنظرون والمؤرخون للمؤسسة الاقتصادية وما يدينه السياسيون اليساريون والنقابيون ويجهله الشعب وهو أن المؤسسة الاقتصادية دكتاتورية فعلية أو لا تكون . ففي مثل هذه الدولة التي تسعى لتكون امبراطورية، لا مجال لحرية الرأي وحرية التنظم والمشاركة في تعيين من يسيّر المؤسسة، وإنما كل المطلوب الطاعة المطلقة وإلا فإن الفصل ، هذا الموت الرمزي، مصير كل متمرّد. يقول Chambon ***" إنني أعتقد بقوة أنّ المؤسسة هي آخر معقل تمارس فيه السلطة المطلقة . ثمة مواجهة ضد هذه السلطة المطلقة في السياسة وفي الدين، لا داخل المؤسسة ، حيث نحن أبعد ما نكون عن الديمقراطية .إن المؤسسة نموذج للتسلط والاستبداد . لكن هناك مجال داخلها للتطور نحو مزيد من الديمقراطية دون أن يضرّ ذلك بقدرتها ."***

كيف نستغرب أن تكون المؤسسات الاقتصادية دوما حليفة الدكتاتوريات السياسية؟

أليس من السخرية أن تتقدم لنا الايدولوجيا الليبرالية بمثل هذه الدكتاتوريات كأساس لما تسميه العالم الحرّ؟

نحن إذن من جديد في مواجهة نفس الظاهرة التي رأيناها سبب انتهاك الحقوق السياسية لطوما . هنا أيضا ثمة وراء نظام مجعول لخدمة المصلحة العامة انزلاق من السلطة إلى التسلط لخدمة أنا متضخم أداته المال وليس السلاح الذي اضطر لتركه لأنا متضخم آخر يحركه نفسس الجشع للتأله.

يمكن توسيع نفس التحليل للاستبداد بالقيم كما يعرفه الدين، أو بالمعرفة كما تعرفه الجامعة، ففي هاتين الحالتين، أيضا ثمة تضخم أنا يعتبر نفسه امتدادا للمقدس أو للحقيقة ويوظف النظام الديني أو المعرفي لخدمة مصالحه الشخصية مستعملا الدين أو المعرفة لتكوين دويلة هو مركزها ورأسها وداخلها لا يتورع عن البطش بكل عدو يهدد مركزيته أو يحاول افتكاك الأداة لصالحه ...وربما لا يكون مختلفا عنه في طريقة التفكير ولا يقل عنه إصرارا على تخليد النظام .

وكما يؤدي الانزلاق في التسلّط السياسي إلى الجريمة ، يؤدي الانزلاق في التسلّط الاقتصادي هو الآخر إلى جرائم لا تقل خطورة عن جرائم الاستبداد السياسي ، لكن في الميادين التي تهم الحقوق الاقتصادية والاجتماعية .

مثلا قامت في الستينات شركات التبغ الأمريكية بتزوير محاضر علمية للادعاء بأنه لا علاقة بين التدخين وسرطان الرئة . ولما أصبحت العلاقة مستعصية على الإخفاء بعد موت الملايين ،اضطرت الشركات العملاقة للمناورة . لكن تضييق الخناق عليها في بلدان الشمال نظرا لتزايد وعي المواطنين، جعلها تنقل جل نشاطها إلى بلدان الجنوب غير المحمية بالقانون. مما يعني أنها نقلت بكل وعي موت الملايين من بلدان الشمال إلى بلدان الجنوب من أجل تواصل جني الأرباح .

وفي التسعينات أصبح وباء نقص المناعة المكتسب ظاهرة تهدد وجود شعوب بأكملها، خاصة في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء . لكن كبرى الشركات الصيدلية تصدّت بكل قواها لتمكين البلدان الفقيرة من الدواء الذي تتحكم في صنعه . فقد شنت حربا لا هوادة فيها ضد كل البلدان التي حاولت صنع هذه الأدوية بدون ترخيص من صاحب الملكية الفكرية أي من مختبرات هذه الشركات العملاقة . كيف تقبل بالأمر والمونوبول يمكنها من بيع علاج الفرد واحد لسنة بعشرة آلاف دولار والحال أن الثمن الحقيقي لا يتعدى مأئة وسبعين دولارا. إن الأرباح المسجلة على حساب المرضى مقزّزة أمّا حجة هذه الشركات بأن أرباحها هي لتغطية تكاليف البحث فأنها مضحكة ،لأن ميزانية الدعاية في هذه الشركات ضعف ميزانية البحث.

و في بداية الألفية انتبه العالم لظهور آفة جديدة هي البدانة، حيث يوجد اليوم بجانب 800 مليون جائع 300 مليون بدين ، بما يعنيه الأمر من أخطار على الصحة .

وبتحليل الظاهرة اتضح أنها ليست مرتبطة بتغيير التركيبة الجينية للبشر بقدر ما هي مرتبطة بتغيير جذري في نظامهم الغذائي . لم يحصل هذا التغيير بصفة تلقائية وإنما نتيجة سياسة شركات المشروبات والأغذية العالمية التي تغرق الأسواق بمادة غذائية رخيصة الثمن، لكنها غنية بالسكريات والدهنيات

والأملاح . أضف إلى هذا أن تربية أطفال العالم على مثل هذه التغذية المسمومة قضية تدرس بمنتهى العناية في مختبراتها للإشهار .
ثمة إذن قوى أخرى غير قوى النظام الاستبدادي تنتهك حقوق طوما اعتمادا على سلطة واسعة – وإن لم تكن لحسن الحظّ مطلقة- صادرتها لحاجياتها الخاصّة و ضاربة، في كيفية استعمالها ، بعرض الحائط حاجيات من تدّعي خدمتهم . هي تتصدّى لحقوق- حاجيات الإنسان بكل وعي بالثمن الهائل لسياستها دون أن يحرّك الأمر فيها ساكنا. هي تأتي كل هذا لأنها أدخلت في قائمة الحقوق تعديلات هامة تجعلها في خدمة مصلحة شخص أو مجموعة أشخاص لا في خدمة *كلّ* شخص.
كم من جرائم ضدّ الانسانية ترتكبها أيضا شركات البترول التي تلوّث البيئة وتتسبب في الاحتباس الحراري ! كم من جرائم ترتكبها الشركات التي صادرت لنفسها مورثات أغلب النباتات ويمكن أن تمارس كل أصناف الابتزاز في ميدان يرتبط به بقوت مئات الملايين من البشر.
إنه من المفارقات الغريبة أن تقبل المحاكم اليوم مبدأ الاختصاص في جريمة التعذيب أو أن يوقف أمام المحكمة الجنائية الدولية عتاة مجرمي الاستبداد بالسلاح ، لكن أن يفلت من الوقوف أمام هذه المحكمة كبار مجرمي الاستبداد بالمال .
نعم كيف نفسّر عدم مثول رؤساء شركات التبغ والأدوية والغذاء والمحروقات العالمية - خلافا للسياسيين- أمام المحكمة الجنائية الدولية بتهمة المشاركة في جريمة إبادة جماعية متمثلة في موت الملايين بالتخمة والجوع وسرطان الرئة وعدم الحصول على دواء متوفر ناهيك عن العبث بالمناخ وتهديد مستقبل الأجيال القادمة ؟
إنّ تعريض رجال السياسة للمتابعة والمحاكمة وتركيز الأنظار على فسادهم – في مجتمعات تمارس فيها الأغلبية الساحقة ،ومنهم المعارضين ومناضلي حقوق الإنسان ، شكلا أو آخر من الفساد – لا يعني ارتفاع مستوى العدل في عالم اليوم بقدر، ما يعني أن رجال السياسة فقدوا مناعتهم لأنهم فقدوا قوة تسللت من بين أيديهم ليتلقفها التجار والمقاولون الكبار وهي التي تمكنهم من الإفلات من كل صنف من المحاسبة فما بالك بالعقاب. إنّه تواصل مفعول قانون أزلي : عدم التعرض بالمحاسبة للأقوياء. البارحة كان الأقوياء رجال السياسة واليوم هم رجال الأعمال .
إن القول بمثل هذا الرأي لا يعني رفض العولمة أو التصدي للتجارة الحرة أو شيطنة شركات جل تنتج ما تحتاجه البشرية ، فمثل هذه الإدانة لا تقدم ولا تؤخر شيئا خاصة وأن كل هذه الظواهر جزء من صيرورة تاريخية . لكن كما لا يجب مواجهتها بالرفض السحري والإدانة الأخلاقية الجوفاء ، لا يجب الاستكانة إليها كما لو كانت قضاء وقدرا . فالمطلوب جعل العولمة والتجارة الحرة والشركات في خدمة جملة من الأهداف التي تصب في المصلحة العامة للقضاء على الفقر والمرض والجهل هذه الآفات التي تفتك بثلثي الإنسانية وتحرم جل البشر من متعة الحياة .
لكن مهمة كهذه غير قابلة للتحقيق خارج سياسة استعادت هيبتها واستقلالها عن المال وذات أفق عالمي لا نرى لها في الوقت الحاضر مرجعية فكرية وأخلاقية غير نص الإعلان .

*

هل أغلقنا ملف هوية المنتهكين الذين قصدهم المشرع العالمي ؟ طبعا لا لأننا لم نحدّد إلا الجزء الطافي من جبل الجليد؟
لنعد للواقع نسائله مرة أخرى عن طبيعة الانتهاكات التي تتعرض لها حقوق الإنسان غير السياسية والاقتصادية .
إذا اعتبرنا أن النساء ينتمين إلى الجنس البشري وأنهن يشكلن نصف البشرية وأن لهن الحق في الحرمة الجسدية ، وهو الأمر الذي يناقش فيه علماء شريعة ورجال سياسة وآباء وأزواج ،فإننا مطالبون بوضع تعرّض نصفهن للضرب والمعاملة المشينة والحاطة بالكرامة في موضع صدارة تساؤلنا عن توزّع المسؤوليات وهوية المسئولين*

----

* د.فيوليت داغر: المرأة والأسرة في المجتمعات العربية-الأهالي – دمشق 2004

ثمة ظاهرة أخرى قد تكون أفظع بكثير ولو أننا لسنا مطالبين بوضع سلّم للفظاعة في أمور كهذه.
إنها مأساة الأطفال في كل ربوع العالم.
لا شكّ أن كل الصور المنمقة عن الكائن العقلاني الذي امتدحته الثقافة الغربية، أوخليفة الله في أرضه الذي تغنّت به الثقافة العربية الإسلامية، تهشّمت في القرن الماضي بفعل اكتشاف الوعي الجماعي لفظاعة المحتشدات النازية والشيوعية من جهة وفظاعة وضع الأطفال الحقيقي من جهة أخرى.
وكما صدم الوعي الجماعي بصور محتشدات أوشفيتز ، صدم في بداية الستينات بظهور أبحاث حول ما يتعرّض له الأطفال كانت نتائجها بالكاد قابلة للتصديق.
يعود الفضل لفتح هذا الملف المغلق بعناية منذ الأزل لطبيب الأطفال الأمريكي Henri Kemp مؤسس الجمعية العالمية للوقاية من الاعتداء على الطفل وإهماله The International Society for prevention of child abuse and neglect
وطوال المؤتمرات العلمية لهذه الجمعية التي توالت في الثمانيات ، جاء الباحثون من كل البلدان والثقافات بنفس الدراسات التي تثبت الوضع المأساوي لعشرات الملايين من الأطفال الهائمين في الشوارع العاملين في ظروف تشابه ظروف العبودية ، المستغلين للدعارة ولكن أيضا لوضع أطفال مهملين يتعرضون للعنف وللاغتصاب. **
إنه تسلّط الضعفاء على الأضعف و نفس البحث المرضي للتأله والسيادة الذي رأيناه عند امبراطور الفضاء وامبراطور المال . كل ما في الأمر هو تغير حجم الفاعل وحجم المفعول به.
وحتى لا يحاول البعض التهرّب من تبعات الظاهرة الرهيبة باللجوء إلى التبرير السهل أي ربطها بالتأزم السياسي والاقتصادي- ومن ثمة وضعها على حساب الاستبداد والليبرالية- نسارع بالقول أنّ هناك جزء من الظاهرة مرتبط فعلا بالاستبداد السياسي والمالي ، لكن هناك جزء آخر مستقل عنهما فظاهرة إهمال الأطفال واغتصابهم موجودة حتى داخل العائلات الموسرة و في أعرق البلدان ديمقراطية.
ثمة إذن ميدان آخر تنبع منه قوى هائلة تهدّد حقوق الإنسان ، لكننا لا نستطيع تحديد هويتها بسهولة حتى نتوجه لها باللوم ونهدّدها إن تطلّب الأمر بالمحكمة الجنائية الدولية إن لم ترتدع وتتوب.
آه لو أمكننا حصر المسؤولية في كم معيّن من الأوباش والمجانين يشكلون وصمة عار في جبين عائلتنا الإنسانية التي جبلت في أغلبيتها الساحقة على حبّ المرأة والطفل وعلى كره الظلم والعدوان... وكلنا ضحاياهم !
وعلى افتراض أن المجتمع مليء بالضحايا الأبرياء ، فمن أين جاء الدكتاتوريون ورؤساء البوليس السياسي والجلادون والمدراء العامين لشركات التبغ والدواء ومجرمي الحرب والمتاجرين بدعارة الأطفال ؟ أليسوا هم أيضا من هذا الجنس الذي نحمل انتمائنا إليه إكليل غار وإكليل شوك ؟
إذا كان جوهر الاستبداد هو تضخم مرضي للأنا وانزلاقه في استعمال كل الأدوات الممكنة ليجعل من الآخر عبدا وعابدا ، فلا بد من القبول أن كل واحد منا يسعى لنفس الشيء بالإمكانيات المتاحة له وفي المستوى الذي هو فيه .
لم لا نصارح أنفسنا بالحقيقة الرهيبة التي هي ببساطة أن منتهك حقوق الإنسان هو بالضرورة إنسان ....أي إنسان ...أن هذا الإنسان ليس فقط هم وهنّ وهو وإنما أيضا نحن وأنا وأنت.

***

**Daniel Halperin and all – A contre-cœur , A contre-corps , regards pluriels sur les abus sexuels d’enfants –ed medicine et hygiene –Genève 1997

5- قراءة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ليس بديهيا أو سهلا
أن تكون إنسانا
غروب خريف

هايكو للشاعر الياباني إيسا

تبدأ القراءة من هنا فصاعدا في التعثّر. كيف لا وهي ترتطم بمفهوم بضخامة وخطورة وتعقيد وضبابية مفهوم الإنسان .
الإنسان ؟ من منّا يعرف ما الإنسان وحتى إن كان موجودا ؟
لا مناص مع هذا من رفع التحدّي والتعامل مع البعبع النظري وهوالمفهوم المركزي في كل النص .
وفي البداية تتدافع الأسئلة التي نودّ إلقائها على الكاتب وكأنّ بنا رغبة للتشكيك في جدّيته ...أولاختبار هذه الجدّية.

إنسان أفلاطون أم إنسان ديوجين ؟

أول صعوبة تعترضنا هي أن للإنسان في مختلف الثقافات البشرية صورا متعدّدة ومتناقضة، لا فكرة واحدة . يصبح السؤال فكرة من سنقبل ؟
خرج الفيلسوف اليوناني ديوجين ومصباحه بيده في وضح النهار باحثا لا عن الإنسان الذي تتدافع نماذجه المتعددة في السوق وإنما عن إنسان من اختراع شخص قال عنه ساخرا "من يعبأ بفيلسوف تفلسف خمسة وعشرين سنة دون أن يضايق أحدا".
كم أخطأ في هذا الحكم لأن أفلاطون تدبّر أمره ليجعل أجيالا من الفلاسفة وتلامذتهم يعبأون بنظرية عصماء عاشت القرون على وهمها تقول أن المظاهر المادية ، التي يحفل بها عالم الحواسّ ، ومنها البشر مجرّد أخيلة باهتة ومنقوصة لفكرة مطلقة سرمدية موجودة في فضاء هلامي.
معنى هذا أن أفلاطون بأن الإنسان " الحقيقي" موجود فوق ووراء وخارج البشر المتحوّلين الناقصين الذين يشكلون تمظهراته الزائلة.
يرفض ديوجين نظرية يعتبرها لا تعكس إلا ارستقراطية رجل خرج من الواقع وتعالى عليه.
يا لحماقة وغرور إدّعاء اختزال البشر بأعدادهم، بتباينهم ، بتعقيدهم ، بروائحهم وإفرازاتهم وصرخاتهم ومآسي حياتهم ومهازلها .... في كائن نظري هو مجرد فكرة .
لنفترض أن ديوجين كان متحاملا على الغريم المنافس إفلاطون، مثلما كان أفلاطون متحاملا على الغريم المنافس ديوجين . لنفترض أن أفلاطون على حق وأن الإنسان فكرة موجودة في سماء الأفكار المستقلة عن عالم المحسوسات.
لا بدّ لهذه الفكرة أن تتبلور في فكر ما حتى يعرضها علينا. المشكل أن الفكر البشري حافل بالأفكار الإطلاقية عن هذا الإنسان .
إذا اعتبر افلاطون أن سماء أفكاره هي السماء الفكرية في المطلق التي تعيش فيها الأفكار المجردة ، فإنه يحق لنا اتهام فيلسوف الفلاسفة بأن هذا موقف يليق بمجنون أو بمغرور لا بفيلسوف.
ما هي مقاييس الخيار الصحيح بين كل الأفكار المجرّدة التي تدعي اختزال الإنسان في تصور ما ؟
هل الإنسان ، داخل الثقافة الغازية حاليا، إنسان نيتشة المظفّر ، أم إنسان كيركيجارد المسكين التعيس المقهور؟ هل نقصد به الروبو البيولوجي المتطور الذي تصفه العلوم البيولوجية المعاصرة أم كوجيتو ديكارت؟ هل هو منبع ومصبّ كل قداسة كما هو الأمر عند فالميكي والحلاج وابن عربي، أم هل هو خنفس كافكا ؟ هل إنساننا خليفة الله في الأرض أم ابن عم قرد داروين ؟

وحيث أن المشرع العالمي لم يكتب " الإعلان العالمي لحقوق البشر" كما كنا ننصحه لو استشارنا في الأمر، وحيث أنه ورّط نفسه وورطنا معه في هذه المشكلة الفلسفية العويصة، فلا بدّ من متابعة الطريق معه إلى الآخر والتساؤل عن نوع الإنسان الذي يقصده وفي صفّ من يقف وهل هو مع إنسان أفلاطون أم مع إنسان نيتشة أم مع إنسان ابن عربي ؟

نكتشف بالعودة للنص أننا أمام كاتب يربأ بنفسه ان يكون بوقا أو أجيرا لأحد ولو طبقت شهرته الآفاق،أنه يعمل لحسابه الخاص ومن ثمة فالإنسان هو بكل بساطة ....إنسان المشرّع العالمي.

أتنفس الصعداء وأنا أكتشف أنه ليس إنسان أفلاطون وإنما الكائن الذي عرفته طوال ربع قرن من مباشرة ملفات ثقيلة وموثقة عن آمال وآلام لا تصدر ولا تعاني منها فكرة مجرّدة.

كم يسعدني أيضا أنه قريب جدا من إنسان ديوجين هذا الفيلسوف،الضاحك الساخر المتوقد حيوية وذكاء والذي تعجبني وقاحته في التصدّي للجبن وللغباء.

لكنه بداهة ليس إنسان العصر الذي عاش فيه ديوجين ذلك الانسان الذي تتحقق إنسانيته بالتمتع الهادئ البسيط بالحياة في كنف الحرية والبحث عن الملذات التي لا تكلف . فإنساننا هذا لا يحقق إنسانيته-حسب النصّ- إلا بممارسة حقه ..... في التجمعات السلمية والعمل النقابي والضمانة الاجتماعية والانتخابات الحرة والنزيهة .

ترى هل غياب الوثائق التاريخية هو سبب قلة معرفتنا بنضال الإنسان في كل العصور، ومنها العصر الحجري، من أجل الديمقراطية . أخشى أن غياب هذه المطالبة بهذه الحقوق في الماضي ليس نتيجة عمى تاريخي تسبّب فيه ضياع المصادر وإنما نتيجة غياب الحاجة أصلا إليها.

معنى هذا أن إنسان المشرع العالمي هو إنسان كل مكان – طبقا لقائمة الحاجيات المادية القارة ، لكنه إنسان هذا الزمان بحاجياته الجديدة.

هو إذن إنسان مختلف، شيئا ما ،عن إنسان العصر الحجري، مثلما قد يكون مختلفا شيئا ما عن إنسان مستقبلي قد تركب له قطع غيار معدنية في الدماغ وبقية الجسم تغيّر من شكله ومن عقليته . هو إذن كائن ثابت في بعض الحاجيات ومتحوّل في حاجيات أخرى ....مما يفسح المجال لصياغة جديدة للإعلان قد يحتاج لها أحفادنا في المستقبل البعيد أو القريب .

المهمّ أننا إذن أمام إنسان محسوس لا أمام إنسان هلامي ، أمام إنسان تاريخي لا أمام إنسان خارج الزمان. يبقى التعمق الآن في خيار كاتب النصّ ومتابعته في كل الزوايا التي قد تظهر ضعفا أو خللا في تفكيره .

***

الجلاّد أم الضحية ؟

نعود مرة أخرى للنصّ نستقرئ رأيه وتصوره لإنسانه الطبيعي هذا . يا للهول !

تخبرنا القراءة المضادة أنه يرى في الإنسان **كائنا يتعرض** للحرمان من الحياة ، من الكرامة ، من الحرية، من شروط الصحة والحياة الكريمة .... كائنا يمكن التعدي على حرمته الجسدية وتعريضه لكل أصناف الظلم واستعباده واضطهاده بحجة عيب في لونه أو جنسه أو عقيدته .

تخبرنا القراءة المعكوسة أن النص يرى فيه **كائنا يمنع** الآخرمن الحياة ، من الحرية ، من الكرامة من العدل ، من المساواة ، من التسامح ، من السلم والمشاركة في إدارة الشأن العام ، من العمل ، من الثقافة ، من الرفاهة .

إنسان النص إذن ضحية . لكن الضحية هي ايضا جلاّد ،علما وأن الجلاّد أيضا ضحية .

أي مفهوم هذا وماذا يمكن أن نفعل به ونحن مثل الفيزيائي الذي يقال له أن عليه فهم اللون "الأبيضالأسود" أو البيولوجي المطالب بتصور "الأنثذكر"

نقلّب الصورة مليّا نقارنها بالإنسان الذي نحتكّ به في الشارع والعمل والبيت فنكتشف أننا لا نعرف غالب الوقت هذا الكائن الذي تصفه القراءة المضادة أو القراءة المعاكسة.

من أين لنا تكذيب تجربتنا بالبشر وقد تشكلت عبر معاشرة طويلة أثبتت ما في الآدمي من مزايا وخصال .

ثمة إذن خلل ما، لكن أين هو؟

قد يكون في العدد المحدود من النماذج الآدمية التي اعترضت طريقنا والتي نلخّص بدءا منها رؤيتنا للإنسان.
قد يكون في قصر زمان الملاحظة والحياة مثل برق خاطف .
قد يكون في حسن الحظّ الذي وضعنا خارج مدار التجاوزات الخطيرة التي يرتكبها البعض ويعاني منها البعض الآخر.
قد يكون أن آليات فكرية معقدة جنّدت منذ صغرنا لتمنع عنّا رؤية صورة بشعة لأنفسنا لا تحتمل .
قد يكون في عجزنا عن تأليف صورة واضحة ثابتة لشيء بالغ العدد ، بالغ التعقيد ، بالغ التحرّك .
قد يكون السبب حصيلة كل هذه الأسباب زائد السبب التالي.
مثلما لا يستطيع الفيزيائي معرفة طبيعة المعادن التي يدرسها إلا بتعريضها لأقصى الحرارة واقصى الضغط وأكثر المواد الكيماوية حموضة ، فإننا لا نعرف الإنسان إلا في الحالات القصوى التي يتعرّض ويعرّض لها.
اعتبر من تشاء من الناس حولك وحتى أقرب المقربين إلى قلبك وفكرك. لا تتوهّم بهم معرفة والحياة بسيطة سهلة روتينية لا تطرح تحدّيات خطيرة ولا تضع على المحكّ الصورة التي كوّنتها عن هذا الشخص أو التي كوّنها هو عن نفسه.
والآن لتأتي الأزمة الخانقة ، الأزمة الخطيرة ورهانها الحياة أو الموت، السجن أو الحريّة ، المشاكل الضخمة أو تفاديها . كم ستفاجأ، إن لم تمرّ بمثل هذه التجربة، بتصرفات شخص كنت تظنه جبانا فإذا به أصلب عودا في الهيجاء من عنترة ...وبتصرفات شخص كنت تظنه عنترة فإذا به عنزة بل وأجبن من جديها. كم سيفاجأ الشخص نفسه بتصرفات كان لا يتصوّر إمكانية وجودها داخله.
ثمة إذن إنسان وراء الإنسان ....
هناك إنسان الظروف العادية وهو الذي نعايشه والأحداث تتأرجح حول نقطة توازن ليس فيها كثير خير أو كثير شرّ.
هناك إنسان بلا عطور أو مساحيق ، إنسان الظروف الاستثنائية ، الذي لا تكتشفه إلا عندما ينتهي المناخ المعتدل وتهبّ ريح الأزمات العاتية فترفع عنه الثياب وكل الأقنعة ليبان لك عاريا .
إنّه الإنسان الذي تفضحه القراءة المضادّة والمعكوسة.
ولأنه لا معنى ولا ضرورة لتعقيد إضافي يجرنا لصياغة جديدة تتخبط في بلورة إعلان عالمي لحقوق الإنسانين، فإننا سنعتبر من باب الحذر واقتصاد الجهد وايضا من باب الموضوعية هذين "الإنسانين" إنسانا واحدا لكن كتمثال "جانوس " تديره أنواء الأزمة على قاعدته فترى منه مرة وجهه الضاحك البشوش وفي اللحظة الموالية وجهه المقطّب المرعب.

*

للتعرّف على الوجهين لا بدّ من الحالات الاستثنائية التي تظهر مدى ما يستطيع الإنسان تحميله للإنسان و مدى ما يستطيع الإنسان تحمله من الإنسان ...ومدى التضحيات التي يمكن أن يقدمها الإنسان للإنسان.
نبدأ بالنقطة الأولى نقصر التحليل على وضعيتين لتركيز النص نفسه عليهما وأولهما مجدّدا إشكالية البند الخامس. ربما يحتجّ علينا البعض بالتذكير أنه يجب ان يكون للتعذيب مفهوم اوسع مما يحصره فيه المشرّع العالمي واتباعه . أليس العمل داخل مناجم الملح أو عمل الأطفال في مصانع الغزل والنسيج تعذيبا ؟ أليس التعسّف الذي يتعرّض له حتى عمال الياقات البيض من قبل رؤسائهم نوعا من التعذيب؟ بل أليس الفقر والمرض والجهل أسماء مختلفة لظاهرة نتيجتها واحدة : ألم الروح والجسد.
كل هذا صحيح ، لكن التعذيب الذي يشغل بال المشرّع العالمي يحوصل ويصعد ويختزل في الزمان الظاهرة الموزعة والمميّعة إن صح التعبير: تنكيل الحياة بالحي ّ .
ليكن شاهدنا شاب أرجنتيني في العشرين اسمه طوما * ينبئنا -عبر رسالة لحبيبته- الخبر اليقين عن بيوت الأشباح التي يمارس فيها التعذيب في كل لحظة المنتشرة على سطح الأرض انتشار البثور على جلد المصاب بالجدرى .

----

*Moi Thomas torturé et évadé- éditions Stock

" هل تتذكرين الحارس لوقا الذي حدثتك عنه؟ لقد وضع قنبلة موقوتة داخلي ، هي الآن بصدد الانفجار ليداهمني الجنون ويقودني مباشرة إلى الموت، انّ صوته يتردد في أذني دائما :
"ماذا تفعل هنا، من تنتظر؟ لماذا تبقى حيا ، لماذا لا تتشجع وتعدم نفسك ، صدّقني هذا أحسن ما يمكن عمله؟ لا أقول هذا الا لك أنت، نعم هذا بطلك.
لطالما لعب السادي القذر بالشيء الوحيد الذي كان يمنعني من الانهيار : الأمل.
كان تعذيبه النفساني لي ناجحا كل مرة.كنت عاجزا عن عدم الثقة به . لعب دوما على حبلين.يبدي لي صداقته ثم يسخر من سذاجتي، يبتسم ويقول:
-أنت يا ابن العاهرة، أعرف انك ستفلت.
لقد دمّر لوقا ذاتي يوما بعد يوم. هربت من الجحيم لكن بدون فائدة. لوقا في كل مكان ، في الهواء الذي أستنشقه في الكأس الذي أشرب منه، في العمل الذي أقتات منه. "
وعن ظروف لقاءه بالجلاد في غرفة تعذيب مركز "أمن" لا يهمّ أي دين وأي نظام يخدم، يقول:
"كانت أصوات مناضلي م 17 تتعالى من الغرفة المجاورة. كان من الواضح أنهم يتتابعون على فتاة يبدو أنها رئيسة المجموعة. كانت تصرخ طول الوقت لا ...لا . لم تعترف بشيء .عذّبوها طيلة يومين بالضرب، بالبيكانا " (عصا كهربائية)، بالحوض. لم أكن واعيا إبان تعذيبي بألم إذ كنت أصرخ طول الوقت و لم يكن هناك أية إمكانية لتقدير موضوعي للأشياء. أمّا وأنا أستمع إلى كل هذا الصراخ...صراخ الآخرين !!.كنت أنظر إلى نفسي من خلالهم . كان هدفهم تحطيمي أنا ، نعم أنا الذي كنت أتعذب .
كان الرعب أول شعور ينتابنا عند فتح الباب. لا تنفّس ... سكون رهيب . يبدأ البعض في الارتعاش .
هل هذا ما يراه السجانون عندما يفتحون الباب؟ إنه تصرف لم يبقى فيه شيء من كرامة الإنسان.
يبدأ الابتهال حالما يلاحظ المساجين أن الضربات لن تتهاطل.
- من فضلك سيدي هل يمكن أن أذهب إلى المرحاض؟
- من فضلك سيدي سيجارة ، سيجارة واحدة !!
كانوا يئنون فوق أسرتهم وقد جمّدتهم الرهبة وكنت أتساءل : أنا مثلهم ، أنا أيضا تسوّلت سيجارة !
ثم نقلني أحدهم بهدوء إلى الغرفة . قيدني على كرسي ثم ضربني ضربة كادت تخلع فكي . عضضت على نواجدي لتخفيف وقع اللطمة. أغمضت عيني وبدأت أتصور صراخ أمي عند ولادتي ، صراخ الجماهير على مدارج ملعب كرة القدم، كل أنواع الصراخ . غمرني الضجيج. ضعت فيه تماما. أغمي عليّ.أفاقوني بالركل. كانوا يضربونني كلهم في نفس الوقت. مدّدوني أخيرا على سرير حديدي ليسهّل مرورا لكهرباء. كانت الحصة هذه المرة أطول و أعنف من كل ما سبق.
تتواصل الشهادة : كانوا يمررون البيكانا – عصا كهربائية-بكل تمهل فوق الوجه ثم على الخصيتين ، يصرخون معا ليغطوا على صراخي وهم يمطرونني بالشتائم .
- قل لنا كل شيء.
إذا تكلمت ضربوني لأصمت.
- أنت تتكلم أكثر من اللزوم.
كانوا يتكلمون في نفس الوقت ويلقون أسئلة غريبة من نوع: هل تذهب للعاهرات؟ وعبر هذه الضوضاء كان الصوت القاطع يأتيني : أين يسكن فلان؟
كيف أفسّر لك ؟ تعوزني الكلمات".
يعود طوما إلى زنزانته مضرّجا بدماء الروح والجسد .....ليتواصل التعذيب على شكل آخر.
يتصاعد من الغرفة المجاورة صراخ وعويل الكائنات المرعوبة لا تترك له بصيص راحة أو أمل .
المهمّ في هذا الموضع من القراءة التركيز على ما تعلّمنا هذه التجربة – بالمعنى العلمي للكلمة- عن الإنسان.
تتحرّك تجربتنا للوجود على طيف يمتدّ من قطب إيجابي (المتعة القصوى ، الطمأنينة الكاملة ، السعادة التامة الخ) إلى قطب سلبي (الألم الأقصى ،الرعب الكلي ، الشقاء المطلق الخ) مرورا بكل الأحاسيس والمشاعر السلبية والايجابية الممكنة ...مع نقطة توازن في وسط هذا الطّيف تحثنا القوانين والأخلاق على التموقع الدائم حولها . هكذا نحاول ألا نبتعد عنها كثيرا أو في إتجاه واحد هو القطب الأيجابي للطيف

....بنجاح متفاوت. تدفعنا المشاكل والمآسي نحو القطب السلبي لكننا نفعل كل ما بوسعنا للعودة إلى أواسط الطيف حيث لا إفراط في المتعة ولا إفراط في الشقاء.
نادرا ما توصلنا ظروف الحياة إلى النقط القصوى للطيف. هذا ما يجعلنا لا نفهم حقيقة التعذيب لأن الأغلبية الساحقة منا لم تذق طعمه.
الغريب في الأمر هو قدرة الإنسان على الصمود أمام مثل هذه العواصف الحسية الشعورية والخروج من منطقة الإعصار سالما ولو بجروح غائرة صعبة الاندمال. ثمة إذن في الإنسان قوّة جبارة تجعله يصمد حتى في مثل هذه الظروف التي تشتعل فيها كل الأضواء الحمراء .
من يستطيع تصوّر الأهوال التي عرفها الملايين من البشر وما عاشوه في اقبية البوليس السري للدكتاتوريات او في اقبية كهنوت محاكم التفتيش ؟
قال رهين المحبسين
قضى الله أن الآدمي معذّب إلى أن يقول العالمون به قضى
فهنئ ولاة الميت يوم رحيله أصابوا تراثا واستراح الذي مضى
يحتدّ انتباه الشاهد ويحتد انتباهنا ونحن نتابع شهادته :
" كنا نتابع كل الأصوات : خرير الماء وهو يملأ الحمام ، صوت الرأس وهو يغمس في الماء، صوت الغرغرة والرأس تحت الماء، ، صوت الحشرجة والرأس يخرج من الماء.
كنت اسمعهم يصرخون : ما اسمه ؟
- لا أدري.
من جديد صوت الرأس وهو يغمس في الماء.
-هل تذكّرت الآن؟
-لا أدري.
دامت حصة الغواصة ساعتين و العجوز يصرخ كل مرة يخرجون فيه رأسه من الماء .
-يا قتلة يا أولاد العاهرة ."
وهكذا دواليك من التعذيب المباشر إلى التعذيب بالوكالة وطوما على قاب قوسين أو أدنى من القفز في جنون لا ينفع كثيرا في الهرب من عالم مجنون .
يقول طوما في وصف لوقا وبقية جلاديه :
" لا يمشون وإنما يجرون ، لا يفتحون بابا وإنما يخلعونه ، لا يتكلمون وإنما يصرخون ، وإن نظرت إليهم انهالوا عليك بالضرب . " لوقا! لوقا! كل أشكال *الوحوش* التي احتوتها الشرطة السرية اندمجت في لوقا: العنف الأعمى ، الغباء المدمر ، الجنون المرعب، كان كل هذا.
يتصرف طوما وفق السيناريو الثقافي الذي ربي عليه أي الهرولة لمصطلحات " الوحشية " و"اللانسانية". لوضعها في مضادة مع التصرفات الإنسانية التي تعبّر هي – لا التصرفات اللانسانية – عن الجوهر الطبيعي ، الحقيقي ، الثابت ، الغالب، للناس العاديين ، الطبيعيين ، الأسوياء .
لكن لوقا ليس نباتا أو حيوانا. هو لم ينزل على أرضنا من صاروخ آت من أعماق الفضاء بل تشير كل الدلائل إلى أنه إنسان يمشي على طرفين سفليين، يتكلم لغة ما وينجب أطفالا من جنس الآدميين ، يبكي ويضحك، وله مشاعر وتصرفات كل البشر . يستحيل إذن تجريده من الجنسية الإنسانية ورميه خارج حدود الأرض بتهمة التسلل غير القانوني عبر الحدود . فتصرفاته "اللإنسانية "، شئنا أم ابينا تصرفات إنسانية خاصة وأنه لم يعرف يوما عن "الوحوش" إنها تستمتع بتعذيب ما تصطاد . هي تقتل لتأكل وتختصر كلّ ألم زائد بضربة ناب أو مخلب حادة وسريعة تأتي بالموت الرحيم. أمّا استئصال العينين والأظافر والسحل والحرق والشنق والاغتصاب والتقطيع إربا إربا ، فتصرفات يختص بها ويمتاز بها الآدمي عن بقية سكان الأرض وربما حتى عن بقية سكان الكواكب الأخرى إن وجدوا؟
ومن بعض آراء المعرّي فينا: حيتان في بحار من الأذى سبحوا – و الشر مشتهر معرف - و الخير يلمح من وراء خمار - لو لا المخافة ما زكوّا و ما سجدوا - ويحهم بئس ما ربوا و ما حضنوا –أنحن أفضل أم أشياء جامدة – أترى حيوان الأرض غير أنيسها ؟

ينجح طوما في الهرب من هذا الجحيم ليشهد عما يجري في كل زنزانات التعذيب المنتشرة في أرجاء الأرض .
ثمة شبهة في سهولة هرب الرجل من بيت الأشباح .هل استطاع فعلا مغافلة الحرّاس كما يدّعي ؟ هل أقنع بأن يندس بين صفوف المقاومة ليشي بمن بقي يقاوم ؟ ربما لا هذا ولا ذاك وأنّهم تركوه يهرب حتى يروي ما عاش ليشيع الرعب من السلطة وهذه منذ بداية التعذيب وظيفته الأساسية.
قلت للزميلة وهي تقودني في أرجاء مركز من المراكز العديدة التي بدأت تنتشر في العالم لتأهيل ضحايا التعذيب: كم تستقبلون من زبائن؟ كم تستغرق مدة العلاج ؟ هل هناك مراكز أخرى من هذا النوع في العالم ؟ من أي بلد، من أي جنسيات يأتي المعذبون في الأرض؟
قالت:"يأتوننا من كل فج عميق، من الزايير، من غينيا بيساو من غانا ، تضاعف عدد الوافدين من آسيا نظرا لموجة الإيرانيين .حدث ولا حرج عن القادمين من أمريكا اللاتينية، من تركيا ، من الجزائر ، ، من كل الأعمار من النساء من الرجال.على فكرة ثمة موجة جديدة من مواطنيك فبلدك كما تعرف منذ التسعينات مصدر عمل متواصل لنا. لكنك أعرف بالموضوع مني بالطبع.
عبرت ذهني أقوال أحدهم : أفيق كل ليلة مبلّلا بالعرق ولا بدّ من وقت طويل حتى يهدأ روعي وأفهم أنه لا أحد يركض ورائي لإلقاء القبض عليّ . بقيت سنوات أكره الأكل لأنهم كانوا يبصقون في فمي أثناء تعذيب دام ثمانية أشهر . لا زلت أشعر ببصاقهم يلتصق بكل لقمة . عبثا حاولت أن أنسى . لكن ذاكرتي يا دكتور هي المشكلة ".
كيف لا تكون ذاكرته مشكلة المشاكل وهي بين أمرين متناقضين: أن تتلاشى حتى لا تحفظ كل الفظاعة التي عاشها الرجل وأن تقوى حتى يستطيع الرجل مواصلة العيش.
على فكرة لماذا لم تتبحّر الديانات في موضوع التعذيب والحال أن شغلها الشاغل إنقاذ الإنسان من الإنسان ؟ لماذا سكتت عنه الفلسفة فلا نجد إلا عند فولتير نصّا هزيلا في المعجم الفلسفي؟ لماذا لم يكتب أفلاطون وسقراط و أرسطو و ابن باجة و ابن عربي وكيركارد في هذه القضية البالغة الدلالة على أشياء بالغة الرهبة ؟ لماذا سكتوا كلهم عن الموضوع والحال أنه كان عليهم أن يخصّصوا له فصولا كاملة ومركزية في أعمالهم ؟ أتراهم كانوا يرهبون أن تتهشم صورهم عن الإنسان وأن يضطرّوا لإعادة النظر في كل البديهيات التي انبنت عليها أوهام غذّت ما لا يحصى من العقائد والفلسفات والأديان؟
تواصل المرأة اللطيفة الحديث عن أفظع ما في هذا العالم وكأنها تحكي لي تجولها في مغازات باريس بحثا عن جوارب وردية ومعطف الشتاء لحفيدتها .
- إنّ بقايا التعذيب التي يتعامل معها مركزنا متباينة ومختلفة: الحرق، الكسور التي لا تلتئم. تدفع المفاصل ثمنا باهظا وخاصة المعصمين للتعليق وتسميها لغة الجلادين تقنية الدجاج المصلي. هناك طبعا النحول الكبير المشاهد عند مضربي الجوع، لاحظنا أن أغلب الضحايا وحتى الشبان يعانون من ارتفاع كبير في ضغط الدم. وأنّ انتشار قرح المعدة يفوق المعهود والمتوقع.
ومما أذكره من الزيارة قول الزميلة :
- نرى في هذا المركز لتأهيل ضحايا التعذيب ما لا يخطر على بال أحد .أصعب شيء التغلب على خوفهم من الأيدي .لقد اكتسبت اليد البشرية بعد تجربتهم معنى آخر. ومن ثمة ضرورة اقتراب يدي المدلك بمنتهى البطء .لا بد أن تكونا دوما في متناول البصر. لا بد أن يكون اللمس بمنتهى الرفق، أن تستعدا للتراجع بكثير من الهدوء إذا تشنج الذراع أو ارتعدت الفرائص. تعاد الكرة بدون كلل أو تسرّع إلى أن تسترخي الأعصاب معيدة بهذا تعرّف الجسد على اليد البشرية كمصدر لغير العذاب.
هل لاحظت أنه لا وجود للكهرباء في هذه الغرفة باستثناء أزرار النور. لا تتصور الرعب الذي تثيره حتى بعد مرور السنوات الطوال، لذلك أصررت على أن تكون كل الحيطان خالية من كل منفذ لها .
تبقى الإشكالية الكبرى : الاضطرابات النفسية نظرا لطول استمرارها سنوات وعقود بعد المأساة . إنها الرمال المتحركة التي تتهدد في كل لحظة ما نعيد بناءه بمنتهى الصعوبة من الشخصية المحطمة.
تندمل الأظافر . تلتئم الجراح . تنسحب الزرقة والانتفاخ من حوالي العينين . تستعيد المفاصل شيئا من ليونتها ..يبرأ الكسر الذي في الساق لكن الروح مثخنة جراحا لا تندمل.

إن دمار الجسد لا شيء بالمقارنة مع دمار الروح .ومن المضاعفات النفسية ، ما يزول أحيانا بشيء من الإصغاء، وأغلبها ما يلزم المصاب إلى آخر حياته. مما أذكره عن أحد زبائننا قوله أن ما دمّر روحه لم تكن ظروف الإيقاف والتعذيب وإنما رميه عاريا وسط المساجين.

يصرخ كل جلاد في أذن كل ضحية :

-قل لنا كل شيء ولو أننا نعرف كل ما نريد معرفته وما تبحث عبثا عن إخفائه.

ما المطلوب منك أن تقول وأنت بين براثن الجلادين ؟: الطوفان أنا ،المجاعة أنا ،الإرهاب أنا ، حرب داحس والغبراء أنا ،من بقلوبهم مرض أنا ، انهيار سد مآرب كذلك أنا وطبعا اثنين واثنين تساوي الخمسة ما دام القائد والحزب قرّرا ذلك.

المطلوب منك إذن أن ترفع يديك ، أن تستسلم كليا ، أن تسلّم بعجزك المطلق ، أن تتخلّى عن كل ما اعتبرته دوما بديهيا مثل أن يقال لك صباح الخير وان يطرق الباب قبل فتحه عليك وألا يرفع أحد قبضته في وجهك .

المطلوب منك إذن أن ترفع يديك ، أن تستسلم كليا ، أن تسلّم بعجزك المطلق ، أن تتخلّى عن كل ما اعتبرته دوما بديهيا مثل أن يقال لك صباح الخير وان يطرق الباب قبل فتحه عليك وألا يرفع أحد قبضته في وجهك . المطلوب استسلام الروح لا استسلام الجسد . لكن ما وراء طلب الاستسلام هذا وما رهانه؟

قالت وهي تتنهّد : مشكلتنا الكبرى هي الأطفال .

ماذا ! أطفال ! أطفال هنا في غرف التأهيل مما يعني أطفال هناك في غرف التعذيب ؟

رسمت الزميلة على شفتيها ابتسامة باهتة وروت قصة من بين قصص مثيرة أبطالها أطفال حرموا من الطفولة .

كان عمر منى ستة أشهر يوم أخذت للسجن مع أمها الرهينة لإجبار زوجها المعارض الهارب على تسليم نفسه. كانوا يخرجون الأمّ من الزنزانة تاركين الطفلة وحدها تصرخ من الرعب ،إلى أن يتزايد الصراخ وهي ترى أمها تعود من حصة التعذيب مضرجة بدمائها. أي صراخ قادر على إفراغ منى من كل رعبها كلما أتى الجلادون لأخذ أمها للحصة الموالية!

في الشهر الحادي عشر من الإيقاف عهد السجن بمنى إلى جدتها لتبقى الطفلة تصرخ من الرعب ليالي بأكملها طيلة سنتين. ثم خرجت الأم لتبادر بالمجيء للمركز لا لعلاجها وإنما لعلاج منى.

يستمرّ علاج الطفلة في المركز أشهرا وأشهرا وكان تمثيلية.

تقوم الأم مبتسمة من مقعدها. تدخل على الطبيب المبتسم، تترك منى لممرضة مبتسمة وهي تتخبط بين ذراعيها. تتمدّد الأم على المنضدة الصفراء تدردش مع الطبيب ضاحكة بصوت عال. يبقى الباب بين قاعة الانتظار وقاعة التدليك مفتوحا طوال الوقت . ثم تعود الأم لطفلتها باسمة . هكذا تشكلت ببطء داخل ذهن الطفلة المريضة علاقات جديدة بين خروج الأم وعودتها ، بين ما يفعل بها الأغراب والنتيجة المرتقبة من أفعالهم ، بين علاقة الأيادي والجسد الذي توضع عليه.

تعود منى بعد سنة إلى المركز ويصفها الطبيب بأنها طفلة ضحوك تذهب إلى المدرسة بفرح وأنها أصبحت تنام أخيرا .

أمن المعقول أن تتولد عن رعب منى مدينة فاضلة أيا كان الطريق الذي يرسمه لها أصحاب هذه الايدولوجيا أو تلك ؟ هل ثمة قضية يمكن أن يستأهل الدفاع عنها تعذيب النساء والأطفال ؟ والقاعدة المطلقة للتثبت من صلاحية أي قضية هي التثبت من وسائل تحقيقها . فإذا كانت الوسائل قذرة فلا تأبه بفخامة الكلمات وكثرة التبرير فالقضية بالضرورة قذرة والساهرون على تحقيقها بمثل هذه الوسائل قذرون والطريق المنتهج لا يتجه بالإنسان للمدينة الفاضلة وإنما للمدينة الفاسقة.

*

قالت الزميلة في نهاية الزيارة : والآن هل تريد بعض الدراسات الطبية التي أصدرها المركز ؟ دراسات ؟ صحيح أن الطب اعترف أخيرا بوجود أمراض التعذيب والحال أنه تعامى عنها قرونا يتّهم الجراثيم والطفيليات والفيروسات بكل الأخطار التي تتهدّد حياة وصحة الإنسان ناسية أو متناسية أن أهمّ عدوّها الإنسان نفسه.

ثمة الأخطر من هذا بكثير.

باريس –المكان قاعة الاجتماع في مبنى اليونسكو والجمع الخليط المعتاد من الرجال والنساء في مثل هذه الاجتماعات العالمية . الداعي هو منظمة " العفو الدولي" والموضوع :الطبيب.....الجلاّد.
من المستندات التي وقع تداولها في الندوة .
- أطباء في أرجنتين العسكريفحصون طوما قبل وبعد التعذيب.
- أطباء من شيلي الانقلاب يراقبون طوما في الأثناء حتى لا يموت في غير وقته.
-أطباء في روسيا الاشتراكية يخدرون طوما بمختلف الأدوية لأن المعارضة مرض عقلي ولو أن كتب الطب، منذ أبو قراط إلى فلمنح، لم تورد له وصفا.
- أطباء أمريكا الليبرالية المسيحية يفحصون طوما للتأكد من لياقته البدنية للكرسي الكهربائي.
- أطباء في باكستان الإسلامية يقطعون يد طوما باسم إله قوّل ما يشاءون لإرهاب المستضعفين.
و مما بقي عالقا في الذاكرة من ذلك النقاش:
- الطبّ كما درسناه و ندرّسه تعهد الصحة و حفظها وردها ، ومن ثمة فكلّ تدخل في غير هذا المعنى لا طبي أي لا إنساني...وقسم أبو قراط ملزم واضح.
- آسف يا دكتور تقول: لا أعذب لأن أبو قراط يحرم هذا، فماذا تقول لجلاّد يردّ أعذب لأن الدولة تحلل هذا .أنت تقدّم مصلحة مريضك وهو يقدم مصلحة الجماعة المهدّدة بما يسميه الإرهاب، هذا المنطق مرفوض أساسا. يجب أن تقول أرفض التعذيب لا لأنني مهني من طينة خاصة و إنما لأنني إنسان يرفض التعذيب. بهذا تجبر الجلاد على أن يكشف هويته كجلاد.
-لا أرى تناقضا فأنا إنسان و طبيب ومن ثمة فإن رفضي للتعذيب نابع من مصدرين .
- خطأ، يجب أن يكون مصدر الرفض ضميرك لا غير.
- معه حق ، يشتمّ من كلامنا استهجان مركز أساسا على كون الجلاد طبيبا و كأن شيئا ما داخل مهنة الطب يمنع الطبيب من المشاركة في التعذيب. أضف إلى هذا أننا لازلنا نتعامل مع القضية بصفة تقنية بحتة وكأن الأمر يتعلق بإجراءات و تراتيب إدارية و تنظمية.
-آسف ، لا أوافق هذا الرأي . أقترح إصدار منشور إلى الجامعات الطبية العالمية لتذكير منخرطيها بتوصيات ِمؤتمر طوكيو حول تحريم مشاركة الأطباء في التعذيب .
- من الضروري إدراج دروس الأخلاق في الطب و رفع ضاربها لكي لا يقامر الطلبة بعدم حفظها أو بحفظها ليلة الامتحان لنسيانها من الغد.
- أقترح أيضا إدراج أسماء الزملاء المورطين في مثل هذه القضايا في قائمة سوداء و عدم التزاوج معهم أو دعوتهم إلى المؤتمرات العلمية أو إقراضهم دولارا واحدا؟
ٍ-لا بدّ من التعرض لهذه الفظاعات بجملة من التدابير الحازمة منها :إعلان (آخر) يسمى إعلان باريس لشجب هذه التصرفات و بعبارات شديدة اللهجة .
نهض رجل وعلى محياه علامات القرف صارخا وهو يصفق باب القاعة :
-أما إعلانكم الجديد فيمكن أن تصنعوا منه تمائم تضعونها حول أعناقكم لتقيكم من عين الحسود.
اللعنة من هذا المشاكس الذي يسخر من الأطباء ومن توصيات "شديدة اللهجة"أمضوا يومين كاملين في مناقشتها. من هذا الرجل؟
قالت منظمة الندوة ضاحكة :"اسمه ميجوال ..أرجنتيني،حمل السلاح ضدّ الدكتاتورية.عذّب طويلا .حكى لي أن طبيبا كان يقيس ضغطه بين الفينة و الأخرى إبّان الحصص ثم يسرّ بأشياء في أذن الجلادين. ماتت زوجته تحت التعذيب، لاجئ سياسي، محلل نفساني في إحدى المستشفيات، له أيضا بعض الكتب منها ّدراسة قيمة عن التعذيب " .
طوما بيننا، طوما أصبح طبيبا نفسانيا ليبرأ من مرض النفس !!
كأنني اسمع احتجاج الزملاء العاتب المؤدب المطمئن : كيف يجوز لرجل مثلك أن ينسى أن الدكتور لوقا شاذة تحصى ولا يقاس عليها و لماذا هذا التركيز المشبوه عليه لا على الدكتور شفايتزر وكم من طبيب ضحى بحياته من أجل.... الخ .

زحمة الشوارع باريز ثم المترو بأروقته المترامية الأطراف وعرباته المزدحمة والسؤال الضخم يحتل كل تلافيف الدماغ: لوقا ليس وحشا آدميا من سقط متاع الشرطة السرية..لوقا متعلم ، جامعي ، متحضّر ، اختار أكثر المهن "إنسانية " وأحوجها إليها . ما معنى هذا الهوس؟ *
أيعقل أن يكون لوقا طبيبا؟ طبيب، نعم طبيب. أقسم ويده اليمنى مرفوعة بأبوقراط على أن يحمي الحياة . قبّلته ذلك اليوم أم فخورة و زوجة عاشقة و بنية لا تحب شيئا قدر اكتشاف العالم من فوق كتفي والدها.
لكن الدكتور لوقا لم يقلّم الأظافر، لم يضع خازوقها في دبر طوما، لم يعلقه كالدجاج المصلي.
ولو ! ألم يحضر كل العمليات؟ ألم يعط نصائحه للوقا الشرطي حتى يمكن تقديم طوما للمحاكمة بلا أثار، ألم يعطيه بعض الجرعات من هذا الدواء أو ذاك لكي لا يلتجئ إلي الإغماء،هربا من الفظاعة المطلقة !
نعم وألف نعم .يمكن للجلاّد أن يكون طبيبا بل و أستاذا في الطب ....بل وباحثا في الطبّ . أنسيت بهذه السهولة ما اكتشفت إبان إعدادك لأطروحتك حول التجارب الطبية على الإنسان ؟
أليست كل أنواع التعذيب التي مارسها زبانية البوليس السياسي للدكتاتوريات الحقيرة "لعب عيال" بالمقارنة مع التعذيب الذي مارسه كبار الأطباء في المحتشدات النازية إبان الحرب العالمية الثانية .....علما وأن هذه التجارب لم تكن الأولى من نوعها ولن تكون الأخيرة.
تداهمني تفاصيل تجارب بتر ذراع أو ساق سجين لمحاولة زرعها في جندي فقد ذراعه أو ساقه .
تسترجع الذاكرة شيئا فشيئا آلاف التجارب التي تعرّض لها الغجر واليهود والروس وحتى الألمان ، من المدنيين وأسرى الحرب ، نساء ورجالا... وكل واحدة أفظع من الأخرى. من يصدّق أن أجساد البشر استعملت كقطع غيار وكمخابر لتجربة هذا السمّ والدواء المجهول المفعول أو ذاك ، أوعرّضت لأقصى حالات الجوع والعطش والبرد لدراسات فيزولوجية لم تقدّم شيئا للعلم .* *
تأمل في تجربة حول فيزيولوجيا التنفس في الطبقات العليا للفضاء التي تعرّض لها الطيارون للأستاذRASHER سنة 1941 و تطلبت 200 سجين سياسي كفئران التجربة (مات منهم 80) .
المكان قفص من زجاج برمجت داخله الظروف الموضوعية للطبقات العليا ، من جملتها درجة حرارة تصل الخمسين تحت الصفر ونسبة قليلة جدّا من الأكسيجين.
من ملاحظات المحضر كما أوردها البحث الدقيق :
العلو النظري 15 كيلومتر : تشنج عصبي
14.5 : وضعية الجنين .
14.3 : يمدّد ذراعه ، يجلس كالكلب.
13.7 : وضعية الجنين.
13.2: حشرجة ، اختناق.
12.2 : يلهث ، يسترخي.
7.2 : حركات غير طبيعية للأطراف.
6 : اختلاجات عصبية .
5.5 : يصرخ بقوة.
2.9 : يصرخ بقوة ، تشنج الأطراف ، الرأس ساقط إلى الأمام.
2 : يصرخ ، يتشنج ، يعض لسانه.
0 كلم : لا يرد على الأسئلة . تائه تماما .
7 دقائق بعد نهاية التجربة: يحاول أن يقف عند الأمر .يردد بصفة أوتوماتيكية لا من فضلك.
9 دقائق بعد نهاية التجربة: يقف عند الأمر ، انعدام التوازن ، يرد على كل الأسئلة. يحاول تذكر تاريخ ولادته .
10 دقائق بعد نهاية التجربة: حركات لا طبيعية ، يردد أرقاما لنفسه .

----
*Moncef marzouki – L'arrache-corps ou l'expérimentation humaine en médecine –ed Alternatives – Paris 1979
**François Bayle : caducée contre croix gammée –Ed neustadt 1951

11 دقيقة بعد نهاية التجربة: يمسك برأسه مديرا إياه إلى اليسار، يحاول الرد على السؤال الأول أي تاريخ الولادة .
12 دقيقة بعد نهاية التجربة: يطرح أسئلة : هل أستطيع أن أقطع جزءا ، أيمكنني أن أتنفس ، هل سيكون ذلك حسنا لو تنفست بعمق ، ثم يقول : حسنا ، شكرا جزيلا.
17 دقيقة بعد نهاية التجربة: يعطي اسمه، يقول أنه ولد سنة 1928 (والصحيح 1908)، يطلب الباحث أين ؟ فيردّ شيء في 1928 ، العمل ؟ 18 – 1928 .
18 دقيقة بعد نهاية التجربة: يسأل : هل أستطيع أن أتنفس؟ نعم ؟ إنني مسرور جدا .
28 دقيقة بعد نهاية التجربة: لا يرى شيئا . يجري نحو النافذة. يردّد أعذروني من فضلكم.
30 دقيقة بعد نهاية التجربة: يذكر اسمه ومكان ولادته ، ارتعاش الطرفين السفليين، تواصل حالة الذهول لا يرتعب لطلق ناري
50 دقيقة بعد نهاية التجربة: لا يعرف أين هو.
70 دقيقة بعد نهاية التجربة:: لا يعرف تاريخ اليوم .
بعد 24 ساعة : حالة طبيعية ، نسيان تام للتجربة "
تجربة شاذّة لطبيب مجنون ؟ طبعا لا وإنما نموذج لآلاف التجارب ارتكبتها – ولا نقول قامت بها- نخبة من الأطباء الألمان ومنهم على سبيل الذكر لا الحصر Brand handlose, Rostok, Rudolf Becker, Brandt, Poppendik, Siewers, ،Schroeder, Genzken, Gebhard, Rose, Ruff, Brach, Bomberg, Frepenez,
ومن الفظاعات كما أوردها François Bayle في كتابه الضخم عن التجارب الطبية في المحتشدات النازية تجارب Mrugowsk حول تأثير الرصاص المسموم على العضلات
و Shilling حول تطور البرداء بعد حقن المساجين بالطفيلي و Brank حول تحديد الكمية من الأشعة لتعقيم الخصيتين عند "الأجناس المنحطة" وتجارب Pokorrry حول تعقيم النساء بالحشائش
و تجارب Stumfegger حول تكسير العظام بالمطرقة على سجينات ...... و التمرن على جبرها.
يسترعي انتباهي من كل القائمة اسم Brandt, وهو أخصائي مشهور في أمراض القلب اختار أن يرحل للمحتشدات ليكون واحدا من كبار المشرفين على التجارب.
لماذا هذا الرجل بالضبط ؟ لخصائص ثلاث شكل لي وجودها فيه مشكلة ذاتية بالغة الخطورة .
الأولى أن الرجل كان يحب زراعة الورد وتعهّده في حديقته الصغيرة .
والثانية أنه كان يحب حبّا جمّا طفلته الصغيرة.
والثالثة أنه كان من عشّاق الموسيقى الهادئة الرومانطيقية الشاعرية المطبوعة بشي من الكآبة وخاصة موسيقى أبرز مؤلفي هذا النوع من الموسيقى : فرانز شوبرت .
ولمعلوماتكم فإن كاتب هذه السطور – وهذا سرّ الاهتمام- رجل يعشق زراعة الورد وتعهّده و يحب حبا جمّا ابنته ولا يضع موسيقى فوق رباعية الفتاة والموت وسوناطات البيانو وكل الرباعيات والخماسيات والسمفونيات التي جاد بها شوبرت على الإنسانية المعذبة قبل ان تختطفه يد المنايا وهو لم يبلغ الثلاثين.
ثمة عدة استنتاجات وكلها بنفس الخطورة تستقى من هذه المقاربة.
أولها أن بقدرة طبيب يحب ابنته والورد وشوبرت أن يرتكب أفظع التجارب في حق أبرياء جردهم من كل إنسانية .
وثانيها أنه من الممكن على أي محبّ للورد وابنته وشوبرت أن يرتكب جرائم ترتعد منها فرائص أعتى المجرمين. مما يعني أن كاتب هذه السطور- لو وجد نفسه في نفس الوضع التاريخي- لربما رفض بقوة أي مساهمة ولربما استهوته إمكانية تحقيق كشف عظيم تهون أمامه التضحية ببعض اسرى الحرب للعدوّ البغيض.
وثالثها أنه لا يهمّ من امسك بالمشرط ليفتح الجسم الحيّ المكبّل وهل هو كاتب هذه السطور أم الطبيب النازي كارل براندت ، بما أنه وجد إنسان قبل واستطاع القيام بكل هذه الفظاعات مما يعني أن الإنسان كجنس من الأحياء- ايا كانت الفوارق الفردية داخله- قادر على مستوى من الفظاعة لم تصله أي من الكائنات التي تسكن هذه الأرض .

وإبان محاكمة هذا الرجل وبقية الشلة أمام محكمة نورمبرج جاء لسان الدفاع بقائمة لأطباء .....امريكيين قاموا بتجارب لا تقل بشاعة في الفيلبين وفي سجون الولايات المتحدة . من المؤكّد ان اغلبهم كان من عشاق قرشوين وربما من قرّاء ملفيل وشتاينبك .
اضف للقائمة أطباء يابانيون- لا شكّ أن بعضهم كانوا يكتبون قصائد الهايكو- جرّبوا الجراثيم والغازات السامة على السجناء الصينيين إبان الحرب العالمية الثانية تحصل على الصورة الكاملة.
ما أبعد الصورة التي يعطيها هذا التجريب الفظيع على الإنسان - بما هو شكل من أشكال التعذيب - وما أمرّ الاستنتاجات التي يفرضها .

هل هذا الإنسان الذي تفضح بعض أركان طبيعته قدرة قطع ذراع على حيّ يصرخ ليزرعه على جريح جدير بمعرفة الحقيقة في هذا الميدان أو أي ميدان آخر.

إن كان الردّ بلا فتلك مصيبة لأنه لم يعد للفلسفة والعلم أي موجب أو دور ، وأن كان بنعم فالمصيبة أعظم إذ ينتهي مشروع المعرفة الذي اعتبرته الفلسفة دوما نوعا من تعرّف الطفل على محيطه وإرضاء فضوله الطبيعي وبحثا عن منافعه وتمتعا بجماله وانسجامه فيه.

تصبح المعرفة كعملية دخول غول مخيف بسراجه الملتهب كهفا تختبيء فيه الكائنات البريئة المرعوبة والتي لا تنتظر من وصول أشعة النور إليها إلا الهول.

*

ما من شكّ أن الإنسانويين – إذا بقي لهذا الجنس الفكري وجود - بحاجة لمراجعة جذرية لمفهوم الإنسانية أخذوه عن رؤيا غرب النهضة - وأصبح مفهوما فارغا من كل محتوى وقد اتضح عمق اللاإنسانية في إنسانهم .
يبقى مغزى الظاهرة مخفيا . أواصل سنينا البحث عنه تارة في طبيعة الايدولوجيا وتارة أخرى في طبيعة العلم ، والحل مثل كتاب تبحث عنه الساعات في كل أرجاء المكتب وهو موجود على الطاولة في متناول البصر واليد.
نحن من البداية أمام تجارب كلاسيكية في البيولوجيا والطب ، معروفة السيناريو ، موثقة المنطلقات العلمية ، تمارس منذ أكثر من قرن في كل مختبرات العالم ، لا تثير إلا ما قل وما ندر من الاعتراضات لأنها كانت – ولا تزال – تمارس على الفئران والضفادع والطيور والخنازير وحتى أبناء عمومتنا القردة ....أي على الكائنات التي نجمعها في مصطلح الحيوان.
معنى هذا أن فظاعة التجارب النازية لم تكن في البتر والقطع والتسميم وإنما كانت في تطبيقها على الإنسان لا على الحيوان.
لننتبه لكون العمليات التي تمارس على المعذّب هي الدفع والضرب والشتم والتعليق والحرق والبتر والتجويع والإذلال ....كل هذا في إطار التجاهل التامّ لما يمكن أن يشعر به الكائن الأسير وعدم الأخذ بمظاهرها ولو كانت صراخا يصمّ الآذان .
أليس هذا تصرفنا بالضبط مع الخروف والبقرة والدجاجة والكلب، تلك الكائنات التي نفعل بها ما نشاء بدءا من التلطف والرعاية وصولا إلى التنكيل بها وتمزيقها إربا إربا وأكل لحمها ورمي عظامها في سلّة المهملات. من منّا ينتبه لما يمكن أن يعانيه حمار أو بغل ينوء بالأثقال ويركض تحت وابل الضرب والشتائم ،أو ما يعنيه ثغاء شاة تفصل بفظاظة عن جديها لترمى على الأرض مقيدة الأطراف بانتظار إتمام الجزّار لشحذ سكّينه ؟
تأمل الآن في وضعية ضحية الأفعال التي تعرضنا لها سابقا. إنها نتيجة انهيار كل حاجز وتخطّى الخطّ الأحمر الفاصل بين الإنسان والحيوان .لقد رفع في التعذيب وفي التجربة الطبية ما يمكن تسميته بالحصانة الإجتماعية والقانونية التي كان يتمتع بها الشخص قبل دخوله غرفة التعذيب. وحال تخطيه عتبة الباب فإنه لا يجرّد فقط من ثيابه وإنما من كل اعتبار أو صفة تربطه بالإنسان الموجود خارج الغرفة.
طوما بين براثن لوقا الشرطي أو تحت مشرط لوقا استاذ الطب العامل في مستشفيات أوشفيتز ***إنسان سابق*** . ولأنه أقيل من جنسيته الإنسانية فإنه يحق للجلاد والمجرّب أن يفعل به ما يشاء ، بالضبط كما

يفعل مع الكائنات التي لم تتمتع يوما "بالجنسية" الإنسانية وغير المشمولة إذن بكل الحقوق التي توفرها هذه "الجنسية ".
ماذا الآن عن الجلاّد؟
لنحاول التوغّل داخل التجربة التي يمرّ بها نستقيها من المعلومات المتناثرة هنا وهناك عن نفسية الجلادين. هنا أيضا سنواجه بتعدّد طبقات التفاسير.
أنا أو أنت إذن الممسك بالبيكانا أمررها أو تمررها بتمهل على خصيتي طوما . ها نحن نناقش نفسنا، نبحث عن أعذار ومبررات .
لا بد من إجباره على البوح حتى لا تنفجر القنبلة فيموت الأبرياء . لا بد أن هناك أطفالا أبرياء مهددون هذه اللحظة بالموت...الأطفال... الأطفال... منهم من يشبهون أطفالي، اضرب الكلب حتى لا يموت الأطفال الأبرياء .لا بد إجبار طوما على البوح لأن هؤلاء الملحدين ....الرجعيين ....العملاء....الإرهابيين ..... يهددون سلامة الدين، المجتمع ، النظام ، الدولة ، الحضارة . قلع أظافره حتى لكي لا ينشبها في سلامة النظام الثوري والدين الحنيف المجتمع السليم والديمقراطية المسئولة و دولة العمّال والفلاحين ....لا بد من إجبار ابن العاهرة على البوح بكل أسراره . الخ
ثمة لتبرير تصرفنا إذن الدفاع عن المجتمع والفضيلة والدولة الخ .
ثمة الإرهاق الكبير.
لا بد أن يتكلم...اللعنة عليه وعليهم... عشرة ساعات عمل وهذا الكلب لا يريد أن ننتهي. عجّل يا مخنّث ، فمثانتي تكاد تنفجر.
نواصل الحفر .
ثمة تصفية الحسابات مع عدد من البشر هذا الإنسان ممثل جنسهم اللعين ويمكن الانتقام من كامل الجنس عبر الانتقام من ممثله : تقولون عني وحش وخادم الطاغية ... أنا سيدك يا كلب .. تريد أن أرحمك . وهل رحمتموني أنتم يوم توسلت ، يوم تضرعت؟ أتتحداني؟ هذه المرة لن تتحدوني...هذه المرة لن يكسرني أحد منكم. أنا الذي سأكسرك... أنا الذي سأسركم كلكم... مظلوم ؟ ها ها ....وأنا ؟ لست مظلوما ؟
ثمة ايضا خوف قد يكون صدى خوف الطاغية الذي يخدمه هذا ا لموظف المكلف بالذفاع عن مصالح مستخدمه .
ولأننا نعرف بالغريزة إلى أي مدى نستطيع أن نكون عنيفين إذا تهددنا خطر كبير، ولأننا نضرب الأفعى بالنعل في حالة هستيريا لحدة الخوف الذي أصابتنا به وهي تتسلل إلى فراشنا في ظلمة الليل ، يصبح السؤال : أي خوف وأي رعب تسببت فيه ، من أو ماذا هددت يا طوما لكي يكون رد الفعل بهذا الحجم؟
ثمة طبقة الشعور بمطلق القوّة هذا الشعور الذي يتمتع به طول الوقت امبراطور الفضاء وامبراطور المال والذي نسعى له جميعا : تصرخ مناديا ربك. ابتهل إلي أنا أحسن....توسّل إلي فأنا الآن إلهك ، أنا ربك ...أنا قاتلك ومحييك...استرحمني أنا ...لا أحد يمكنه إغاثتك سواي.
وفي هذا المستوى تتجمّع كل القوى الجبارة التي يلعب عليها الظرف الاستثنائي لشحن الجلاد بكل طاقته المدمّرة حتى ينقض على ضحيته وهو كالقطّ الغاضب الجائع الذي رمي بين مخالبه بفأر سمين خائف.
طوما إذن كائن نزعت عنه حالته المؤقتة شخصيته القانونية ووضعه كإنسان- إنسان لتجعل منه إنسانا-حيوانا في شكل فريسة. كذلك الأمر بالنسبة للوقا التي نزعت عنه نفس الحالة الغشاء الرقيق للإنسان-الإنسان لتعيده إلى وضع الإنسان الحيوان في شكل السبع المفترس.
الحيوان ! هل يكون حجر زاوية في كل تفكير وتنظير حول الإنسان ؟
إن أعمق مخاوف الطفل هي أن يؤكل وان يفصل عن أمه وأغلب التي تتواصل فينا إلى لحظة الموت هي أن نتعرّض للعنف الجسدي ،أن نستغلّ وان نتسعبد ، أن تنكر كرامتنا والا يعترف بنا كاشخاص ....أي أن نعامل كالحيوانات ، هذه الكائنات التي لا تتمتّع - ولا نرى حرجا أوغرابة في الأمر- بالحق في الحياة والحرية والكرامة والحرمة الجسدية وتأسيس عائلة ... حسب مصطلحات المشرع العالمي الذي قلنا عنه أن عالميته تتوقف عند عالم الإنسان ولا تشمل عوالم الكائنات الأخرى التي تسكن معنا هذا الكوكب.
ثمة إذن وعي قوي بالغ الحضور ، يهدّدنا به التعذيب وكل المعاملات المهينة والحاطة بالكرامة ، أن أنسانيتنا المعترف بها غطاء هشّ موضوع على فوهة بركان ، أننا نستطيع في أي لحظة السقوط في خانة

الحيوان لأن من "طبيعتنا" الإنسانية معاملة أي حيوان كإنسان ومعاملة أي إنسان كحيوان لأننا كائن مركّب من إنسان –إنسان يرمي جذوره في إنسان –حيوان.
إذا صدق هذا التحليل فإن الاستنتاج الوحيد هو أن التوجه بالإعلان للإنسان بمثابة توجيه رسالة إلى سبع ليس له عنوان ولا يقرأ الرسائل الموجهة إليه من مستويات أخرى من الواقع ،خاصة تلك التي تدعوه بكل جدية وحزم، للتخلي عن أكل صغار الغزلان واعتماد حمية تقتصر في المستقبل على الخيار والياغرت.

*

تصل عملية " حيونة" الإنسان ذروتها في طقوس الإعدام وهي طقوس لا بدّ من التوقف عندها لأنها تشكل التجربة القصوى الثانية التي تظهر ما هو مطمور بكثير من العناية بخصوص الزوايا المظلمة من طبيعة الإنسان .
عن مناضل يساري أمضى قرابة عشر سنوات في سجون الدكتاتورية أخذت عنه ظروف القتل بالقانون.
قال: آخر ما ينقص السجن وسائل الاتصال حتى مع المعزولين من المحكوم عليهم بالشنق . كنا نتابع كل تفاصيل حياتهم ....أو ما يجوز تسميته حياة . كان أغلبهم من الفلاحين الفقراء والأميين والعاطلين. حال صدور الحكم كان الحراس يحلقون شعر الرجل وشاربه كأنهم ينفون عنه بحلق الشارب توقه إلى الرجولة ، وينفون عنه بحلق الشعر توقه إلى الجمال.
و بعد الحلق، يعزل الرجل عن بقية المساجين في زنزانة ضيقة. ينام على حصير موثق الرجلين واليدين.
تصوّر المسكين ملقى على حصيره مبللا بالعرق ،يحاول نسيان وضعه ،يستحضر مفاتن امرأة غابت ملامحها. يغفو ويستيقظ على نفس الأحلام: تلف الضحية ردفيها الغليظين حول عنقه تكسره فتسمع له طرطقة الجوز في كسارته.

قال محدثي : يأكل المحكوم ويدخن تحت المراقبة الصارمة . يؤخذ أحيانا بضعة دقائق في اليوم لفسحة في ساحة السجن . عرفت منهم شابا أبيض يميل إلى الحمرة، طويل القامة عريض المنكبين. بمرور الأشهر رأيت بشرته تمر بكل ألوان قوس قزح: الشحوب ثم الصفرة فالاخضرار.أقسم أنه كان أخضر اللون مع شيء من الزرقة عشية إعدامه. هل تتصور إنسانا أخضر اللون؟
لم أر في حياتي إنسانا أخضر إلا هذا الرجل...كنا نشاهد تقوّس ظهره يوما بعد يوم. قصرت منه القامة، انحنى الرأس، تهدل الجلد. تساقطت أسنانه. إنها أعراض مرض الانتظار .
تعجز الكلمات عن وصف فحوى هذا المرض .
هم يغفون موثقي الأيدي والأرجل وأعينهم مشرئبة إلى الباب ينتظرون. يدخل عليهم الصبح ليبدأ يوم طويل آخر لا عمل لهم إلا أن ينتظروا.
نسيان عابر وقت الفسحة القصيرة في بهو السجن... ثم يعودون إلى الانتظار...في الضوضاء والزحام وتحت أنظار الحراس يصرخ الرجل في أهله.
- ماذا جدّ من جديد؟
- لا شيء. نحن ننتظر.
يعيش الرجل قابعا داخل كابوس اسمه انتظار المحامي...انتظار الخطاب... انتظار المقابلة...انتظار الإجراءات.
يصبح الانتظار المرض المعدي ...مرضنا.نحن أيضا.
كم نخطئ عندما نتكلم عن "عقوبة الإعدام" ، فالعقوبة ليست الإعدام وإنما كل هذا التعذيب النفسي الذي يمهّد له معقّنا الجسم والروح قبل أن يأتي الخلاص.
من التقاليد في أمريكا أن يعلم المحكوم بموعد التنفيذ. يقولون له ستموت يوم الاثنين الرابع من الشهر المقبل على الساعة الخامسة والربع صباحا. تصوّر بقية حياة يسيطر عليها غول اسمه الرقم : باقي شهر أسبوع ، باقي يوم، أربع ساعات، ساعة، عشرون دقيقة، دقيقة أخرى من فضلك سيدي الجلاد...لا ..لا .

أما تقاليدنا نحن فمأخوذة من الفرنسيين ككل شيء. نحن لا نعلمهم بالموعد. أي الاختيارين ارحم ؟ قديما قال أجدادنا " حتى الهم فيه ما تختار". منهم من ينتظر الساعة سنوات ومنهم من ينتظر شهرا والمحظوظ من لا ينتظر إلا أياما.
انتظر بعضهم في أمريكا الكرسي الكهربائي أكثر من عشر سنوات. وفي بلد عربي انتظر أحدهم تسع عشرة سنة بلوغ ابن ضحيته سن الرشد . يومها خيّر الفتى بين الدم والدية. ولأنه ربي منذ نعومة أظافره على الثأر فإنه طالب بالرأس فأخرج الرجل للذبح بعد تسعة عشر عاما من الانتظار.
أمّا الرقم القياسي فقد حطمه ياباني انتظر إعدامه ثلاثين سنة.
أبرز أثر تخلفه أنياب الانتظار المعقوفة التأويل الذي لا ينتهي.
هل أتوا ليذهبوا به إلى الدّش ؟ إذن هم يعدونه. هذه آخر ليلة.
لم يأتوا ليذهبوا به إلى الاستحمام والحال إنه يوم الدش !! ما الفائدة من قتله نظيفا ؟هذه إذن آخر ليلة.
لم يأتوا لإخراجه للفسحة. إذن ...طالت الفسحة في بهو السجن أكثر من العادة...لا بدّ أن...ابتسم الحارس في وجهه العبوس القمطرير !! مؤكد أنها ابتسامة الشفقة لأنه يعلم أن هذه آخر ليلة.
عبس الحارس في وجهه وهو الضاحك البشوش...هو يعلم إذن أن مطلب العفو قد رفض.
وهكذا دون انقطاع، النهار وطوله والليل وعمق كوابيسه.
أليست أعراض المرض العقلي الذي تدرسونه للطلبة تحت اسم البارانويا وفحواه على ما أتذكّر جحيم التأويل المستمر. تصور كل هذه الفظاعة : يهينونهم. يدمرون أجسامهم. ويجننونهم، ثم...
لم يكن لنا نحن المساجين السياسيين إلا همّا واحدا : تغذية الأمل فيهم سواء بالمورس أو بصريح العبارة .
كنا نقول لهم مباشرة أو خفية :سمعنا خطاب "المجاهد الأكبر". لقد دعا إلى المصالحة الوطنية ونبذ العنف والانتقام...إنه خطاب سياسي هام ومعناه واضح. . لا تقلق إذن ... كل المؤشرات ايجابية .
يعود اللون إلى الوجه الممتقع .
وأحيانا كنا نبلغهم : آه لقد وصلتنا معلومات بأن العفو بمناسبة عيد الاستقلال أو عيد الجمهورية سيكون شاملا وأنه لن يستثني المحكوم عليهم بالاعدام. على فكرة كل هذه الشائعات عن تزايد تعطش المجنون الأكبر للدم خرافات يروجها أعداؤه . إنه أب الشعب المحب والأب لا يريد إلا الخير لأبنائه وأنت ابن من أبناء هذا الشعب. من المؤكد إذن أن العفو سيشملك أنت الآخر.
تتوقف الفرائص عن الارتعاش في عز الظهيرة .
وأحيانا كنا نعهد لأخبث الحيل فنبعث بالرسالة التالية : يقال أن لمحاميك صلاته الخاصة وإنه من المقربين إلى أحد أقرب المقربين من حاشية أبينا الذي في القصر . سيتدخل لديه قبل أن يستقبل الرئيس محاميك لتقديم طلب العفو الخاص.
يبقى الرجل يبلع الأكاذيب بنهم غريب وبتصديق أعمى إلى يوم يزل اللسان: على فكرة ماذا عندك من أخبار؟

قال محدثي بنبرة من عايش الهول ويعجز عن وصفه: الشعراء يتبعهم الغاوون والحراس يتبعهم الضجيج. ترنّ المفاتيح . تفتح الأبواب بسرعة لتصفق بعنف. يتعالى الصراخ بالعبارات النابية ...... إلا في حالات الإعدام، فلهم أخصائيون يجندونهم لمثل هذه المناسبات.
هؤلاء على خلاف كل زملائهم يمشون كالقطط في الأروقة المظلمة، يدخلون المفتاح في القفل بمنتهى الحذر. يدفعون الباب فلا يسمع له صرير.
انتهى كابوس الانتظار يا إنسان. كلنا محكوم علينا بالإعدام .الساعة أنت والأخرى أنا . ها هم يكممون فمك ، يحكمون الوثاق حول يديك ويدفعونك بسرعة ومهارة عبرالأروقة الفارغة في هذا الهزيع الأخير من الليل حيث ينتظرك الجلاّد القلق. .
انتهى الكابوس. بعد لحظات قلائل لن يتخلل نومك الأبدي حلم مروع...على الأقل هذا ما نعتقد وما نتمناه لك ولنا جميعا، ولو أن البعض يتوعدنا بقاعة تعذيب لا تغلق بابها كأنه لا يكفي ما عشناه من العذاب في الدنيا حتى يتواصل في الآخرة .
ألم يقل المعرّي :
يدل على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعب

إذا افتقرت أجزاؤنا حط ثقلنا   ونحمل عبئا حين يلتئم الشعب
قلت لمحدثي هل عندك معلومات عن الجلاّد ؟
قال نعم هو حارس ليلي في شركة ما، يدعى للخدمة مقابل عشرة دنانير للرأس الواحد كلما قرّر المجنون الأكبر رفض العفو وهو ما كان يفعله دوما، لأن زعيمنا الأوحد الذي لا يرتفع عن سطح الأرض إلا بمتر ونصف، كان بحاجة مرضية ليقال عنه أنه بلا شفقة قوي ، مهيب ومهاب ...والإعدام كان من بين تقنياته المفضّلة لأيهام الناس وإيهام نفسه بجبروته . هل توجد سلطة أعظم من سلطة القتل.
عودة للسبب الأكبر في كل هذا الهوس : التضخم المرضي للأنا ومحاولة الخروج من وضع الإنسان كأنه لا يكفي لبلورة طموحاتنا , أليس التصرّف في حياة الإنسان من اختصاصات الآلهة وحدها والتأله على ما يبدو رغبة كل إنسان ؟
تصور المجنون الأكبر وهو في حالة متقدمة من الهذيان يؤوب لفراشه وقد اسكرته سلطته الإلهية هذه بينما تتكثف الاستعدادات للانتهاء من جريمة تكتسب جلّ فظاعتها من كونها جريمة ترتكبها الدولة باسم القانون وبحجة العدالة .
قيل لي أن الجلاد يبدأ بتفقد المحكوم لان العملية ليست بالبساطة التي يتصورها البعض , فالمطلوب من الحبل كسر فقرات العنق وليس الخنق . يجب إذن حساب طوله بدقة حسب قامة الضحية ووزنها.
تصورّ المشهد والجلاّد يأخذ قياسات عنق الرجل كالخياط الذي يقيس لك استدارته حتى لا تضايقك ياقة القميص.
تظهر أحيانا صعوبات تقنية غير متوقعة كما حدث مع ذلك الفلاح الذي ما أنفك يصرخ وهو يساق للمقصلة إلى آخر غرغرة " شرفي يا ناس، قتلتها من أجل شرفي ".
كان طويلا، سمينا ، له عنق كعنق الثور . أعادوا الكرة معه أربع مرات وعاد الحراس يومها يتقيئون.
ويوم حصل الجلاد دفعة واحدة على مائة وعشر دنانير ثمنا لإحدى عشر رأسا ، لم يفرح بل أصيب بانهيار عصبي . لابد أن تكلفة الأدوية أتت على دنانيره هذه .
الانهيار العصبي ؟
ترى هل ينام الجلاد ليلة القتل هو الآخر يغفو ويستيقظ وقد بلل العرق البارد جسمه الملتهب ؟
قال محدّثي : لا أملك تفاصيل العملية ذاتها، ففي سجن 9 أفريل لا يدعى المساجين لحفل الإعدام خلافا لتقاليد سجن " كايان" أو سجون بعض الأنظمة الأكثر توحشا من نظامنا .
قلت : لا يهمّ. اسمع مني الآن بقية المشهد فقد جمعت بعض الملاحظات عن لحظة النحر....في ظروف أخرى صادفتني على الطريق.
عالمنا العربي المنكوب، الملوث، المدنّس بالاستبداد آخر أرض   تقام فيها حفلات إعدام بل في وضح النهار وفي أكبر ساحات المدينة ؟
يومها دفعني مرافقي في اتجاه وسط جدّة قائلا بحماس واضح : تعال، ثمة قطع رأس بعد صلاة الجمعة .
تغلب فيّ الفضول على الغثيان وأندمجت بدوري في صفوف غوغاء تتدافع نحو مكان المشهد الطريف .
يتهامس الناس وهم يتدافعون بالمناكب لاحتلال أقرب موقع للمذبح .
- تأخروا. الصلاة انتهت منذ ساعة .
- لا تقلق سيقطعون رأسه في كل الحالات .
- الجلاد ، على ما يحكي يتدرب يوميا على الماعز.
- لا أريد أن أضيع لحظة سقوط الرأس.
آه من هذه الغوغاء البائسة التي عبدناها وحشوناها بكل قدرات وخصائص الآلهة يوم أعوزتنا وخذلتنا الآلهة وبقيت فينا حاجة الإيمان . إنها غوغاء ملاعب الرومان و ساحات المقاصل والأعراس العربية ومباريات كرة القدم البريطانية و الانتخابات المزيفة في كل مكان .
تصدمني الحقيقة الرهيبة:جماهيرك العزيزة يا هذا تريد الإعدام وستدافع عنه لأنها خرفان ربّيت على قيم الذئب.
فجأة صمتت كل الأصوات . ها أنا أسمع معلقا يصف هامسا ما يرى .أصيخ السمع بكل انتباه لأنني لا أستطيع من موقعي أن أرى ما يحدث .

- وصلت سيارة تشبه سيارة إسعاف ..إنهم يسحبون منها الرجل .
من يستطيع تصور معاناة هذا الإنسان منذ صدور الحكم و في هذه اللحظة بالذات ؟ من يستطيع تصوّر الكم المفزع من المعاناة ،طوال القرن الماضي ولا نتحدّث عن قرون الرقّ والعبودية، لعشرات الملايين من الأشخاص وهم محشورين في اقبية السجون أو في المحتشدات ينتظرون خنقهم ورميهم بالرصاص وتسميمهم بالغازات.
- أنظر ، أنظر . يتقدم المجرم الآن محفوفا بالشرطة .إنه يترنّح وهم يحملونه ...بل يجرّونه .
سارق صغير أم مهرب مخدرات مبتدئ سقط في قبضة كبار اللصوص والمهربين؟
الثابت أنه سيقتل طبقا لجهل هذه الغوغاء بالقوانين الخمسة التي تحكم من الأزل ما يسمى بعقوبة الإعدام
القانون الأوّل: تسعة وتسعون في المائة من الإعدامات عبر التاريخ هي لإرهاب الخصم السياسي الذي يهدد السلطة والتنكيل بالخصم الطبقي الذي يهدّد الملكية..كل هذا بتبرير يتخذ كل الأشكال منها إقحام إرادة الله وحماية المجتمع وباقي الأكاذيب . معنى هذا أن المجرم هو القاتل وليس المقتول.
القانون الثاني: الواحد في المائة المتبقي الذي يشمل اعدام مجرم الحق العام الذي اغتصب طفلة صغيرة أوذبح أمه أو قتل غريمه ، ليس تعويضا عن فظاعة لا جدال فيها وإنما إضافة فظاعة أخرى إليها .
القانون الثالث : عند مراجعة ملفات الذين نفذ فيهم الحكم في البلدان الديمقراطية بعد سنوات اتضح أن نسبة قد تصل عشرة في المائة كانوا أبرياء ، لكن السيف سبق العذل ولا مجال لتعويضهم الحياة التي سلبوا ظلما والخيار هو بين إلغاء العقوبة أو الإبقاء عليها علما أن من ثمن بقائها إعدام عدد من الأبرياء.
القانون الرابع : ليس لجريمة الدولة هذه أي دور وقائي أو تربوي لأنه لو كان الأمر كذلك لاختفت جريمة الأشخاص منذ قرون، أو لأدى وقف العمل بالعقوبة في المجتمعات المتحضرة إلى ارتفاع الجرائم والحال أن العكس هو الذي حصل.
القانون الخامس : أن وجود العقوبة مؤشر على مدى التأزم السياسي والاقتصادي والأخلاقي لمجتمع ما والغاؤها أحسن مؤشر على تصالح مكونات المجتمع ما بينها ووجود جوّ أكثر صفاء واقل عنفا بينها .
- إنهم يجثونه على ركبتيه . الجلاّد أسود فارع الطول ، إنه يرفع سيفه ....الآن !!!.
تتصاعد مني صلاة صامتة في اتجاه قوة يطلق عليها البشر كل الأسماء وكل الصفات لا يستنفذها اسم أو صفة : أعنه على العبور، يكفيه ما عانى من الطريق.
تتعالى همهمة من الموج البشري المتلاطم ثمّ يدوّى التصفيق . نعم التصفيق.... فالدهماء تصفق عندما تنفجر الدماء ويسقط الرأس جاحظ العينين. ثمّ تنصرف الجماهير راضية عن نفسها بعد أن ساهمت دون وعي في أفظع طقوس ماض سحيق لا زال يفعل فينا فعله، تساهم في تمتين خوف الرعية من الراعي . ما أغرب أن تنحر في مثل هذا العصر القرابين البشرية في أرض تدين بالعبادة لإله يصف نفسه بأنه رحمان ورحيم وحرّم على عباده نحر الأوادم .
يكشف الإعدام أخطر أبعاد وتعقيد مكونات الإنسان لا لأنه مؤشر على تعثر الايديولوجيا وفشل الدولة وإفلاس السياسة ، وإنما لأنه يدلّل على تواصل وعمق الهمجية في إنسان لم يبعد بالقدر الذي يتصوره عما تسميه اللغة البدائية ؟

***

الملاك أم الشيطان ؟

ليكن أن هذه رؤيا أوقات هبوب العواصف السود على الروح والفكر ، وأن علينا انتظار انقشاع السحاب ليتضح لنا ما فيه من مبالغة وتجنّي على واقع لا يستنفذه صنف واحد من التجارب.
فثمة كثير من الأدلة على أن التحليل لحسن الحظّ لا يتعلق إلا بالنصف الفارغ من الكأس.ماذا عن النصف الآخر؟

أعطتنا القراءة المضادة للنص الصورة البشعة عن الإنسان استمدها الكاتب من الواقع لا من كوابيسه .
لكن لنفس الكاتب رؤيا مناقضة تماما مستمدّة هي الأخرى من الواقع لا من أحلامه الوردية، حيث يقول النص أيضا وخصوصا :
- أن في الإنسان توق للعدالة ، للكرامة ، للمساواة ، للتسامح ، للتعاضد ، للسلام ، لكل الحقوق والحريات الواردة في الإعلان
-أنّ الإنسان *جدير* بالكرامة ، بالمساواة ، بالعدل ، بالتسامح ، بالتعاضد ، بالسلام ، بكل الحقوق والحريات الواردة في الإعلان
- أنّ الإنسان *قادر* على تحقيق : الكرامة ، المساواة ، العدل ـ التسامح ، التعاضد ، السلام وكل الحقوق والحريات الواردة في الإعلان
-أنّ الإنسان *ساع لتحقيق* الكرامة ، المساواة ، العدل ـ التسامح ، التعاضد ، السلام و كل الحقوق والحريات الواردة في الإعلان.
لا يسع المرء إلا الاتفاق مع كل ما سبق وهو يستحضر تجاربه الأخرى مع الإنسان وكلها تدعم الموقف.
قال : أدخلني الحارس إلى بيت الهول للحصة الموالية وأغلق خلفي الباب . نظر الجلاد حوله بكثير من الحيطة ثم بدأ يشتمني بأعلى صوت ويضرب على الطاولة بقبضتيه كالمجنون. غمزني، أشار إلى فمي . فهمت . أخذت في الصراخ بدوري. يا إلهي لماذا فعل هذا ؟

قلت: أنت أدرى مني بما يعنيه يوم الزيارة في السجون وفي أي ظروف تحصل هذه الخناقة العامة . كنت أصرخ مع الواقفين من جهتي القضبان الحديدية أحاول أن يصل صوتي أخي المصرّ منذ سنوات على السياحة في كل سجون الدكتاتورية... والناس مثلي تحاول أن تشق طريقا لصوتها . فجأة نظر الحارس المكلف بمراقبة الحشد من جهة الزائرين في كل الاتجاهات . لما تأكد من عدم وجود حارس آخر أخذ البنيّة من حضن أمها بسرعة . رفعها إلى مستوى وجه أبيها وقدم له وجهها. تبادل الأب و البنت قبلة طويلة، لا شكّ أنها كانت أحلى قبلة في حياتهما رغم طعم صدأ الحديد . ثم أرجعها إلى أمها بنفس السرعة متلفتا حوله بقلق واضح . ولمّا اكتشف أن لا أحد غيري انتبه لفعلته، تنفس الصعداء وانصرف لشغله يصرخ في الناس بالتزام الانضباط.

قال الزميل ونحن نتجوّل بين أشجار البرتقال في المستشفى المترامي الأطراف.
" هناك شنق نفسه، كان مصابا بانهيار عصبي ، لم يتحمل على ما يبدو ما فعله بالناس. وكادت أن تحصل لنا مشاكل مع الشرطة السرية لأننا لم نراقبه كما ينبغي".
أي قوة تمحق الضحية والجلاد بنفس القسوة ولأي غرض تضحي بهذا وبذاك ؟
حتى يتأكّد القارئ من جدّية انتقالي من موقع المدّعي العام إلى لسان الدفاع، هذه وثيقة أخرى في صالح متهم سبق وأن قلت فيه أنه كائن يعامل الإنسان كحيوان والحال أنه يعامل أيضا الحيوان كإنسان. إنها مقالة نشرتها صحيفة اليوم اثارت فضولي و نشّطت تفاؤلي .
"باغت شتاء القطب الشمالي هذه السنة ثلاث حيتان ضخمة وجدت نفسها محبوسة في حفرة مائية لا يتجاوز قطرها بضعة أمتار و الجليد من حولها جدران سميكة لا تخترق ....هكذا استحال عليها السباحة إلى الماء الطليق لتبدأ موسم الهجرة إلى المياه الدافئة كعادتها . وقد تظافرت جهود الخبراء الروس والأمريكيين لإنقاذ الحيتان من الموت غرقا -لأن الحيتان كما لا يعرفه الكثيرون ثدييات لا أسماك - وذلك بفتح ممرّ في الجليد نحو البحر ، الأمر الذي تطلب كثيرا من الجهد والمال والتنسيق. وقد تم إكمال

القنال في وقت كاف مكّن من إنقاذ حوتين في حين غرق الأصغر. وقد شدت عملية الإنقاذ انتباه العالم لأسابيع عديدة"
حقا إنه خبر يصالحك لا مع الإنسان فقط وإنما مع إعلام ممرض ومريض لا يفسح أبدا صفحاته للغابات التي تنمو بصمت وسلام وإنما فقط للغابات التي تحترق ممّا يعطي عن الواقع رؤية كاذبة حتى وهو يدعي الموضوعية في وصف النصف الفارغ من الكأس . على فكرة ما رأيكم في قانون يفرض على كل الصحف والتلفزات تخصيص نصف أخبارها للنصف الملآن من الكأس وإلا يسلّط عليها العقاب بتهمة تزييف رؤيتنا للعالم والحط من المعنويات العامة في مقابل الإثارة الرخيصة والربح الوفير؟ ويكون هذا العقاب في شكل توزيع الجريدة ممزقة لنصفين يباع كل نصف على حدة، وإيجاد حيلة تقنية لكي لا تحتل الأخبار إلا نصف شاشة التلفزيون.
ها قد تملكتني الشهوة للأخبار الطيبة بعد أن شبعنا من أخبار الشريرين التي تتصدر وحدها صفحات جرائد لا تعتبر أخبار أبطال الخفاء جديرة بالتعريف؟
الخيرين والشريرين ! يا إلهي ! كل هذا التفكير للوصول إلى استنتاج بابتذال أن الإنسان خير وشرّ .
لكن ما العمل ونحن نرتطم دوما بهذه الثنائية الكبرى التي تتحكم في أفكارنا منذ غابر الزمان وشكلت المادّة الفكرية الخامّ لأغلب أساطيرنا ورؤانا حول " طبيعة" الإنسان و أعطتنا الملاك والشيطان !
يسمي الفيلسوف الفرنسي Deleuze مثل هذه الكائنات المفاهيم المجسّدة Personnages conceptuels لأن فكرنا ينحو لتشخيص الأفكار والصور والقيم في كائنات مثل الملائكة والشياطين في الدين والأسطورة لنختزل الخير والشر أو تتحرّك في فضاء الفلسفة مثل سقراط الممثل للحكمة أو في فضاء الأدب مثل دون جوان وشهرزاد ودون كيشوط ولكل واحد ما يجسد ويختزل .
لنلاحظ عرضا ولع الفكر بثنائيات أخرى مثل" اليين" و"اليانج" عند الصينيين، والحق والباطل في ثقافتنا العربية الإسلامية. إنها في الواقع نسج الفكر أفكاره على منوال النموذج التي تقدمه له الطبيعة بثنائياتها الواضحة مثل الليل والنهار ، الحياة والموت ، الذكر والأنثى.
لكن إذا قلنا بالثنائية كنواة صلبة للطبيعة البشرية فلا بدّ من تغليب عنصر على آخر وإلا شلّ الملاك الشيطان وشلّ الشيطان الملاك وتساوت القوى المضادة وتوقف كل فعل . وبما أن الأفعال متواصلة فلا بدّ أن يغلب عنصر الآخر.
انتصر Hobbes لنظرية غلبة الشيطان و قال Rousseau بأن الإنسان ملاك أفسده المجتمع ،ولا بدّ من تصحيح المجتمع –الذي بناه الشيطان- لظهور الملاك المخفي داخلنا . لكن Rousseau، مثل المشرع العالمي،، لا يفسّر لنا كيف ولماذا سيبقى الشيطان مكتوف الأيدي والمؤامرة عليه تتبلور تحت بصره .
هل يكون Hobbes هو المصيب؟ لكن كيف يفسّر هو الآخر أن الإنسان ليس فقط ذئب الإنسان وإنما منقذه الوحيد من الذئب ؟
لا بد من مخرج من إشكالية قد تكون مغلوطة من الأساس.
إن الخطأ عند Hobbes هو نفس الخطأ عند Rousseau. ففي كلا الخيارين ثمة انتقاء لبعض الخصائص وتضخيمها والتركيز عليها وإعطائها الأولوية واعتبارها هي المركزية وما عداها ثانوي هامشي.
لا شك أن خيار هذا وذاك مسألة مرتبطة بالمواقف المسبقة وربما حتى بالمزاج ، لكننا لا نستطيع ولا يحق لنا بناء رؤيا للإنسان على مزاج الفلاسفة ومواقفهم المسبقة .أما المخرج فهو بكل بساطة في رصد **كل** المواقف والتصرفات التي يأتيها الإنسان دون تقديم هذه على تلك وبكل تجرد وموضوعية وأن نوقف مرحليا الأحكام المعيارية أي أن نكتب : الإنسان *قادر على* كذا و كذا عوض أن نقول الإنسان هو كذا أو كذا.
لنكتب مثلا (اعتمادا على صحيفة اليوم) الإنسان قادر على : قتل زوجته ، على رمي القنابل على المدن الآهلة بالسكان ، على ممارسة التعذيب ، على الانتحار ، على الصيد لمتعة القتل ، علىالاستغلال... الخ .
لنكتب الآن اعتمادا على نفس المصدر:الإنسان قادر على صرف أموال طائلة و تجنيد طاقات جبارة

لحماية الحيوانات المهددة بالانقراض ، على إجراء عملية جراحية مطولة لجبر كسر في رجل طائر جريح ، على التظاهر من أجل السلام ، على تحمل أشد أنواع الألم الجسدي و المعنوي من أجل فكرة و مبدأ ، على تنظيم المساعدات العاجلة لضحايا الكوارث الطبيعية ..الخ
ولو دققنا في كل المواقف والتصرفات الممكنة وحللناها إلى مكوناتها الأساسية ، لحصلنا على قائمة بالغة الطول من الأفعال والتفاعلات مثل كره وأحبّ واستغلّ وأعان ودمّر وأغاث ونكّل ورحم وعبث وصان وميّز وعدل ، تحدّد طيف استعدادات فطرية هي جميع طرق فعلنا في العالم وتفاعلنا معه.
لنترك لعلماء "النفس "عناء اكتشاف مدخل لتصنيف كل هذه الإمكانيات المتضاربة حسب نوعها و مصدرها و هدفها. كما سنترك للمختصين في علوم الإحصائيات حصر انتشار و شيوعها عند عينات ممثلة من النساء و الأطفال و الشيوخ .
ولقائل أن يقول أننا ندور في نفس الحلقة المفرغة. فما الذي فعلناه غير تجزئة "طبيعة" الشيطان إلى أجزاء صغيرة وتجزئة" طبيعة" الملاك إلى جملة التصرفات التي تخلق هذه الملائكية . فلا نحن تجاوزنا مفهوم الطبيعة ولا نحن خلصنا من مفهوم الازدواجية. مهلا فلا زال للحديث بقية .
رأينا أن ما يوحي لنا بثنائية الخير والشرّ هي الطبيعة ، لكن الحدود واضحة بين طرفي ثنائياتها فالذكر ذكر وألأنثى أنثى . أما الليل فهو لا يوجد عند حلول النهار والنهار غائب تماما عند حلول الليل .
أما عند الإنسان فثمة دوما تمازج و تواصل بين الأفعال والخصائص التي توضع تحت سامي إشراف الشيطان أوالتي توضع تحت سامي إشراف غريمه الملاك . هذا مايجعله أحيانا خيّرا دون أن يكون شريرا أو شرّيرا دون أن يكون خيرا والحالة الغالبة تواجد كم معين من الخير بموازاة كم من الشر في نسب تتغير كل الوقت .
معنى هذا أنه ليس للإنسان طبيعة بمفهومها الكلاسيكي أي جملة من الخصائص الثابته القابلة للتنبؤ وإنما جملة من الاستعدادات المفرّقة على طيف من الاستعدادات الفطرية ، قطبه الإيجابي مواقف وتصرفات شخّصناها في الملاك ،وقطبه الآخر المعاكس مواقف وتصرفات شخّصناها في الشيطان.
ولو تكلف علماء النفس عناء القيام بجرد كامل لكل المواقف والتصرفات المترجمة لاستعداداته الفطرية ، لحصلوا على كاتالوج مطوّل من المعلومات شبيه بذلك الذي يحاول علماء الوراثة وضعه تحت اسم الخارطة الجينية . الاختلاف الوحيد أنهم سيرسمون خريطة " الجينات " النفسية لا الجينات البيولوجية .
ومن نافلة القول أنه لا توجد داخل هذه الخارطة استعدادات يمكن اعتبارها الأصل أو الأرقي . إنه كلام لا جدوى له لأن كل المواقف والتصرفات ، التي نحب والتي نكره ، التي يصطفيها مزاجنا والتي لا يصطفيها ، التي تفضلها عقيدتنا الدينية أو تنكرها ، موجودة داخلنا شئنا أم أبينا ، وستبقى موجودة بالضرورة لوظيفة هامّة ما ... ولو لم يكن الأمر كذلك لصفيت من زمان.
والقاعدة أنه كما لا يمكن أن يكون لنا عيون زرق وسود وخضر ، أن علينا بلورة لون من دون الألوان الأخرى، فإن زيدا لن " يترجم " في حياته إلا لبعض مقاطع الطيف النفساني بينما سيعزف عمر على مقاطع أخرى منه ، قد تتمحور حول نقطة التوازن بين القطبين .... أوتواصل التحرك دخل فضاء محدد من الطيف ...أو تتجاوز المساحة المألوفة التي تتحرك داخلها الأغلبية لتصل القطب الإيجابي عند زيد ٍ فيصبح قدّيسا صالحا والقطب السلبي عند عمر فيصبح دكتاتورا دمويا .
معنى هذا أن "طبيعة " كل واحد منا ترجمة لجزء من " طبيعة " أشمل نحملها كلنا داخلنا منها أشدّ الفظاعة وألطف الرقة.
ما الذي يبلور الاستعدادات عند هذا وذاك مؤدّيا إلى ظهور مواقف وتصرفات تبدو متضاربة وتصل بنا أحيانا إلى توهم وجود إنسانين في صراع دائم لا إنسانا واحدا؟
إنه عامل لا ننتبه لخطورته ويمكن تسميته ..***الوضع المحدِّد*** (بكسر الدال الأولى) .

*

عن الكاتب الروماني Séneque هذه الشهادة : " يا لهؤلاء الناس الذين يرون من العار تناول الطعام مع عبيدهم. أن موضة وقحة تجعل السيد لا يتناول طعامه إلا وحوله كل عبيده وقوفا بين يديه ، يأكل أكثر مما يستطيع الهضم، يحمّل معدته أكثر من طاقاتها , يتقيأ ما التهمه بأكثر صعوبة من عملية الأكل نفسها .

و في الأثناء لا حق للعبيد أن ينبسوا ببنت شفة . فمآلهم السوط لأي همسة ولأي صوت يأتون به و لو كان لا إراديا كالسعال أو العطس . هكذا يقضّون كامل الليل وقوفا بدون طعام وفي صمت مطبق . نحن نعاملهم***كحيوانات*** لا كبشر . نتمدّد على أرائكنا فيمسح العبد بصاقنا بينما يركع آخر لجمع فتات المائدة " .
بداهة نحن أمام ثلاثة مقاطع من الطيف الإنساني .
أول مقطع هو الذي يترجمه الإنسان العبد بمواقفه و تصرفاته المتجلية في قدرته على الوقوف ليلة كاملة جائعا، صامتا , خائفا، ماسحا بصاق سيده ،جامعا فتاته، كارها له ، حاقدا عليه ولا شكّ حالما بالانتقام.
ثاني مقطع هو الذي يترجمه الإنسان السيد وتظهر" إنسانيته" في مطالبة إنسان مثله بالوقوف ليلة كاملة بين يديه، مع كل ما يعنيه الأمر من تضخم الأنا والمشاعر المرافقة ومنها لذة التسلط على هذا العبد الذي يراد منه أن يكون عابدا .
هناك أخيرا المقطع الثالث الذي يترجم له الفيلسوف المتألم من الوضع والناقم عليه.
ما الذي جعل العبد عبدا و السيد سيدا و الفيلسوف فيلسوفا... مع العلم أنه كان بوسع عامل الصدفة أن يجعل العبد يلعب دور السيد والسيد يلبس جبة الفيلسوف و الفيلسوف متكئ على أريكته يتقيأ غذائه ويركل عبده لجمعه بيديه العاريتين ؟
إنها وضعية نتيجة خصائص الشخص في أي عائلة وبلد وزمن ولد،لكنها أيضا نتيجة ألف عامل وعامل مثل من أنتصر في الحروب السابقة و ما هي العقيدة السائدة وموازين القوى السياسية والاقتصادية داخل المجتمع الخ .
إنها حصيلة كل القوى الإيجابية التي تدفع بنا إلى الأمام وكل القوى السلبية التي هي حجر العثرة . يبقى أن مشهدا كالذي يصفه الفيلسوف غير قابل للتصوّر في عالمنا المعاصر لأن هناك أوضاع محددة حسب الزمان والمكان وحسب المجموعات و الأفراد وتتميز بخاصية أو أخرى تفرض التنوع واالتباين بينها.
ثمة دوما عامل رئيسي يهيكل الوضع المحدّد وهو بالطبع العبودية هنا . فهي ضرورية لوجود العبد والسيد والفيلسوف الثائر على الوضع كل بمواقفه وتصرفاته .
الوضع المحدد هو إذن جملة من المعطيات الموضوعية الخارجة عن نطاق الشخص و المستقلةعن إرادة الممثلين - و المتقدّمة على وجودهم - توزع الأدوار وتبلور مقاطع مختلفة من طيف الاستعدادات الفطرية التي نحملها .
هناك مثال آخر قد يعمّق فهمنا للمقصود بالوضع المحدّد.
لا يختلف اثنان في أنه لو خيّر أي إنسان بين أن يكون في بيته بين أهله ينعم بالدفء والرفاهة، وبين أن يكون في خندق من خنادق الحرب العالمية الأولى ،غارقا في الوحل ،ترتعد فرائصه من البرد والرعب، ينتظر أمر الخروج لرشّاشات العدو....لفضّل ان يكون في بيته.
لكن هذا الرجل الذي يكره الوحل والظلام والبرد والخوف والقنابل والرصاص والغازات السامة والحراب المثبتة على أفواه البنادق وإراقة الدم والأوامر الفظّة ،هو نفس الشخص الذي يصبر على العيش في الخنادق الملآنة بالفئران والذي سيمتثل لكل الأوامر الصارخة التي منها الخروج للموت والقتل.
المثير للاستغراب أنك لو درت على ملايين الجنود وحتى على أغلب الضباط في الجيشين المتواجهين، لما ووجهت إلا بنفس الكره الشديد للفئران والوحل والبرد والخوف والأوامر الفظة والغازات السامة والقنابل المسيلة للدماء والرماح المثبتة على أفواه البنادق. ومع ذلك فبمجرّد إطلاق صفّارة سيخرج كل هؤلاء الرجال لأشد ما يكرهون : إعطاء الموت وتلقيها.
لا يفسّر أمر غريب كهذا إلا بوجود قوة قاهرة تكسر كل مقاومة فردية لتجعل الشخص يأتي أشد ما يكرهه.
هذه الأرادة الجماعية ليست الجمع الحسابي البسيط لإراة الأفراد .
لنحسب في جهة عدد الشواذ الذين يحبون الرصاص والقنابل والغازات السامة ويلتذون بالموت كأبطال وقتل الأعداء البغيضين. لنضف لهم المجانين الذين يريدون الانتحار مجانا والمجانين الآخرين الذين يريدون أخيرا معرفة لذة القتل دون المخاطرة بالوقوف تحت حبل المشنقة.
لنحسب من جهة أخرى عدد كل الذين يفضلون الوجود في بيوتهم مع زوجاتهم وأطفالهم .

وعلى حدّ علمنا بالبشر فإن الفرضية الأولى هو أن الجيوش ستتفرق عند أول طلقة رصاص. تاركة كمشة المجانين لشؤونهم . لكننا نعرف أن الأمور لا تحصل بهذا الشكل .
إذا لم تكن القوّة التي تحرّك الجيشين حصيلة الرغبات الفردية فما تكون ؟
إنها نتيجة إحدى أغرب خصائص النظام سواء في الميدان البيولوجي او الاجتماعي. فعندما تتجمع مكونات النظام (خلايا أو أفراد) في منظومة متكاملة ومرتبطة ومتبادلة التأثير، فإنها تتمخض عن خصائص جديدة انبثقت أو تبلورت عن التشكيل الجماعي ولا علاقة لها مطلقا بخصائص الأجزاء المكونة . هذا بالضبط ما يفسّر أن للجيش كجيش مواقف وتصرفات تجعله لا يتوانى عن التضحية بوجود كل ما تتطلبه المعركة من جنود لا همّ لكل واحد منهم إلا عدم التضحية بوجوده .
خذ الأنظمة الأخرى التي يتحرّك داخلها كل إنسان مثل العائلة والحي والمدينة والمدرسة والمعمل والمجتمع والشعب والأمة والإنسانية ، بكل الزخم والتعقيد والتاريخ لكل نظام ، تحصل على فكرة عن التعقيد المريع والثقل الهائل للوضع المحدّد التي نتعامل معه جميعا .
هذا الوضع المحدّد هو صيرورة وليس حالة ثابتة لأنه في آخر المطاف نتيجة تراكم مواقف وتصرفات الأجيال السابقة التي رسمت ملامح المجتمع الذي نعيش فيه ونوع وحجم المشاكل التي نتخبط فيها .
ونتيجة طبيعته هذه هو يمر بتغييرات متواصلة من نوعين.
هناك التعييرات الصغرى التي تظهر إبان الثورة السياسية . آنذاك تتحرّك الطبقات الإيدولوجية الحاملة لمظاهر الوضع المحدّد ليعاد ترتيب المجتمع على السطح بتغيير شكل النظام السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي. .
هذه الثورة السياسية هي دوما نتيجة إرادة مجموعة متحركة فاعلة ونشيطة تعيد هيكلة الأنظمة . لكن التغيير الأكثر جذرية في حياة المجتمعات هوالثورة التكنولوجية حيث يعرف الوضع المحدّد إنقلابا تبدو أمامه تغييرات أكبر الثورة السياسية مجرّد تحوّل بسيط .
لنلاحظ أن لا Séneque ولا العبد ولا حتى السيد ، لو أرادوا إلغاء العبودية في عصرهم ، لما نجحوا في الأمر، لأن الظاهرة كانت تتجاوزهم شخصيا ، والدليل على ذلك أنها لن تختفي بصراخ الفلاسفة والأنبياء أو نبل السادة أو وخز الضمير أو شجاعة العبيد المتمردين ، وإنما بفضل اكتشاف الطاقة الميكانيكية التي سمحت بالتخلي عن طاقة الحيوان الآدمي الوحيدة المتوفّرة طيلة قرون وبلورة وضع محدّد جديد استبدل البروليتاري بالعبد.
بديهي أنه لم يكن هناك تدخل واعي ومبرمج في مثل هذا الانقلاب . هو عادة نتيجة حادث عرضي لم ينتظره ولم يتوقعه ولم يخطط له أحد مثلما كان الأمر مع اكتشاف النار أو الزراعة أو الحاسوب.
نحن لا نواجه بالطبع في حياتنا اليومية إلا النقطة التي انتهى إليها الوضع المحدّد لا بكل مساره التاريخي الطويل . كما لا نواجه إلا بالحالة التي يتخذها في مستوى المشاكل التي نتخبط فيها. مما يعني أننا لا نكتشف له إلا وجها من بعض الأوجه الكثيرة التي يتخذها إذا انتقلنا لمستويات أخرى ومشاكل أخرى .
فالوضع المحدّد الذي يحصي علينا الأنفاس ويوجه أعمالنا جد مختلف ونحن نتحرك داخل العائلة عنه ونحن نتحرك داخل مدينة في بلد نحن فيه غرباء. هو على طرفي نقيض في السلم و في الحرب .
مثلا سنرى الجندي الذي تركناه في خندقه ممسوكا من خناقه بوضع فرضه عليه تاريخ أوروبا والعالم وطبيعة الأنظمة الحاكمة وعلاقات أفرادها ببعضها البعض وسوء الحظ والطالع الذي شاء أن يولد في تلك الحقبة. وهو في مواجهته معه مجبر على الانطلاق من إرادته الالهيه والبحث في طيف استعداداته الفطرية عن أنسبها لمواجهة الحلول القليلة للتعامل معه .فلو هرب مثلا لحظة إعطاء الأمر بالهجوم خوفا من الرصاص الطائش ، لواجه حتما الرصاص غير الطائش لفيلق الإعدام أو لرصاصة من ضابطه ومن ثمة خياره تجربة حظّه في المعركة بالتغلب على خوفه والركض مع الراكضين لقتل ما يمكن من الأعداء علّه ينقذ حياته وربما يحصل على وسام. وفي الأثناء فإن الوضع المحدّد حيّد عنده –مؤقتا ـ كل مشاعر الشفقة وبقية الاستعدادات الفطرية التي يربطها الإنسانويون بالإنسانية. هكذا يقلب الوضع المحدّد هذا الشخص المسالم إلى وحش كاسر ، لا بفعل تحييد الاستعدادات التي نسميها الخيرة فحسب ، وإنما أيضا ببلورة كل الاستعدادات داخله التي نسميها الشريرة، وهي دوما جاهزة تحت الطلب . فلولاها لما

استطاع حتى هذا الوضع المحدّد على خطورته وجبروته جعله ينقلب إلى وحش كاسر يضرم النار في منازل المدنيين ويغتصب كل امرأة تعترض طريقه.
قد تكون هذه الظاهرة سبب فشل كل محاولة إصلاح بالتوجّه إلى الأخلاق وخاصة على مستوى الفرد.كأنه بوسع هذا الجندي، الذي يشكل خلية من نظام له رؤى واهداف وطرق عمل القدرة على أن يكون مسالما وشهما ورحيما ووديعا .
لحسن الحظ هناك عامل هام لا يكتمل بدونه النموذج النظري الذي نحاول بلورته لفهم الإنسان.
قلنا إن مواقفه وتصرفاته محكومة بخارطة متكاملة من "الجينات النفسية" وبالوضع المحدّد الذي يصطفي منها حسب حاجياته هذا المقطع أو ذاك.
لو تلخص الأمرفي تفاعل هذين العنصرين العاملين لأمكننا التنبؤ بمواقف وتصرفات أي إنسان .
لكن الأمر مستحيل ففي حالة الجنود الذين خرجوا لساحة القتل ، ثمة منهم من سيرفض الإجهاز على عدو جريح في حين أن آخر لن يتردّد عن فعل ذلك... ولا أحد قادر عند انطلاق الهجوم على القول من سيجهز على العدو الجريح ومن سيترفّع عن ذلك.
يمكن للإنسان إذن في نفس الوضع وبنفس الاستعدادات أن يختار حلاّ ونقيضه.
ا لخيار !
نعم ، لكن داخل طيف محدود. نستطيع أمام كل وضع محدّد الرضوخ له كليا دونمقابل ، أو محاولة استغلال هذا الذي يريد استغلالنا ، أو رفضه لكن دون مواجهة ، أو الهروب منه(بالخمر أو التنسّك) أو التصدي له بشكل من اشكال الحيلة أو بشكل من اشكال القوة لتغييره.
ورغم أن الخيارات تبدو قليلة عدديا فإنها بالغة الأهمية من حيث دلالتها المعنوية والرمزية . إنها تعني وجود إرادة مشخصة ومستقلة عن الإرادة العمياء للبعبع غير المشخّص الذي سميناه الوضع المحدّد والذي يتحرك منذ فجر التاريخ كالسيل المتدافع من علياء الشلال .
سمّ هذا العامل إن شئت الحرية، شريطة الا تكون حرية الايدولوجيا الإنسانوية التي تنكر صبغتها المحدودة وخاصة ازدواجيتها أي قدرتها على أن تكون تارة في خدمة ما تسميه الشرّ وتارة أخرى في خدمة ما تسميه الخير.
إنها القيمة التي تغنى بها الكثيرين من المفكرين والفلاسفة جاهلين أو متجاهلين ثقل الوضع المحدّد وما يضعه أمامها من عراقيل ، مثلما تجاهلوا أن الحرية هي قدرة اختيار المواقف والتصرفات داخل الطيف الذي يحدد إنسانيتنا .....مما يعني أنّ بوسعها اختيار كل ما هو مناف للأخلاق والمصلحة العامة.

لكنها أيضا الملكة التي تجعلنا نواجه كل ضغوط الوضع المحدد وبالتالي فإنها هي التي توجد وراء العناد والاصرار على تغييره.

وثمة من المفكرين من لا يرون إلا هذا الوضع المحدّد وتسميه لغة الضاّد القدرية: الدهر.

هكذا احتدم دوما داخل الثقافة نقاش عبثي حول وضعنا الحقيقي وهل حن مخيرين أم مسيرين والحال أن الكوب نصف ملآن ونصف فارغ أي أننا مسيرين ومخيرين.

نحن مسيرين بالدفع الهائل للتراكمات التي كدسها التاريخ من مواقف وتصرفات وتنظيمات ومعتقدات وتقنيات . نحن تجاهها كالقشة التي يحملها الطوفان.

نحن مخيرين لأن كل وضع محدد، مهما بلغ من القدم والعمق والثقل والتعقيد، قابل للتغيير وإلا لما عرفت الإنسانية كل التغييرات الجذرية التي عرفتها والتي ستواصلها جيلا بعد جيل إلى أن تنتهي مغامرتها,

وكل هذه التغييرات هي نتيجة الحرية ومشتقاتها.

فهل ستكون هذه الخاصية هي طوق النجاة ؟

***

إنسان سطح "الحضارة " أم إنسان عمق التاريخ ؟

نقرأ في الديباجة ما يلي "ولما كان تجاهل حقوق الإنسان و ازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال أثارت بربريتها الضمير الإنساني"....
ثمة في هذه الجملة أيحاء بأن شيئا رهيبا وقع وأثار الضمير الإنساني وأنه وقع في ماضي مبهم غير محدّد. يعجز من لا يعرف التاريخ عن فهم معنى هذه الجملة ومن ثمة إيحاء النص .
هناك قاعدة لفهم عميق لأي موضوع ، سنّها أرسطو منذ أكثر من ألفي سنة، هي ضرورة معرفة تاريخ كل ما ندرس لأن هذا ما يسمح بالتمكن من أهم جوانبه : نبضه، إيقاعه ، ديناميكيته ، وجهته , تطوره ..... حياته.
وحتى لا نتهم بالتبسيط، نسارع للقول أن القراءة التاريخية لا تلغي ولا تعوّض القراءة الجغرافية والاقتصادية والسيكولوجية والبيولوجية و الفنية. هي تضاف فقط لمعالجات تدور حول نفس قطعة النرد وكلها شرعية وضرورية ومتكاملة لإنها إضاءات مختلفة وطواف حول سطوح المكعب.
إذن ، نحن مطالبون بمعرفة تاريخ الإنسان لفهم الوضع المحدّد الذي نتعامل معه كلنا بما أننا قلنا أنه تراكم أفعال وتفاعلات كل الأجيال التي سبقتنا ومنها هذه الأعمال التي أثارت بربريتها الضمير البشري ويبدو أنها كانت حافز أساسيا لولادة النصّ .
المشكلة أننا لا نعرف عمق الماضي الذي يجب ان نبحث فيه عن سرّ هذه الأعمال .هل نتوقف عند الثامن من شهر أغسطس سنة 1945 أم نتجاوز هذا المنعطف لكي نتوغّل في أعماق السنين والقرون نمسح كل التاريخ ....شريطة معرفة أين يبدأ التاريخ نفسه.
نواجه بحالة غريبة قلما تسترعي انتباه المفكرين، أيا كانت اختصاصاتهم العلمية وتوجهاتهم الإيدولوجية وهي ضيق الأفق الزمني الذي يعتبر دوما تاريخ الإنسان.
لنتصوّر وضعا مشابها ، لكن في مستوى التعامل مع الفضاء ويتمثل في شخص لا يعرف من العالم إلا غرفة نومه و له بعض الصور المبهمة عن الصالون لأنه يدخله أحيانا ، إضافة لأنه لا يعرف المطبخ إلا بالضجيج الذي يتصاعد منه .
أما بخصوص الأشخاص فهو لا يعرف سوى المرأة التي تقاسمه الفراش وأطفاله وأقرب المقربين الذين يدخلون غرفة نومه ولو إنه يعلم بصفة مشوشة بوجود أماكن مثل التي يسكن وببشر مثل الذين يعاشرهم من أين لشخص كهذا أن يكوّن صورة جدية عن العالم بزخمه وتعقيده وغناه المذهل، بالأماكن والأشياء والكائنات التي يفيض بها . من أين له خاصة أن يفهم نفسه ومكانه من العالم ؟
نحن في علاقتنا بالزمن مثل هذا الرجل لأننا مسجونين داخل فضاء زمني عمقه عشرة آلاف سنة على أكثر تقدير، هي الفترة التي نسميها تجاوزا الحضارة ....كأن الإنسان بدأ مع اكتشاف الزراعة وظهور أولى المدن والممالك أواكتشاف الكتابة . أضف إلى هذا أن لكل أمّة منحى لجعل التاريخ يبدأ من حدث عظيم خاص بها وحدها (ولادة المسيح قبل ألفي سنة أو الهجرة قبل خمسة عشر قرنا الخ) وكأن ما سبق غير موجود أو غير مهمّ أو انه لم يكن إلا فترة سلبية ، فارغة ، مظلمة انتهت بدخول التاريخ الحقيقي . لا يخرج حتى المؤرخون الماديون عن هذه الرؤيا البالغة الضيق ، حيث يواصلون نفس المنهج في التفكير، مع فارق بسيط هو ربط الحدث الجليل الذي يبدأ به التاريخ، لا بولادة أو موت إله أو هجرة نبي، وإنما بظهور تكنولوجيا الحجارة المذببة أو النحاس أو الحديد . ها قد ربحنا عمق ثلاثين أو أربعين ألف سنة إضافية يسمونها فترة ما قبل التاريخ وكأن هناك تاريخ قبل التاريخ وفضاء قبل الفضاء .
السؤال إذن ما هو العمق الحقيقي للتاريخ البشري ؟
لقد بدأنا نعي بوادر الإجابة بنفس الكيفية التي تعرّفنا بها على شكل العالم الذي يوجد خارج غرفة النوم الطريف في الأمر أن يعود الفضل في رسم خريطة الفضاء الذي نتحرك فيه واكتشاف صوره وتبادلها بين البشر عبر وسائل الإعلام والاتصالات، لا للجغرافيين، وإنما لجحافل المغامرين والتجار والبحارة والقراصنة والمتشردين والحجاج والعسكريين والحسابيين والفلكيين والمصورين .

كذلك نستطيع اليوم تقدير عمق تاريخ الإنسان، لا بفضل المؤرخين ، وإنما بفضل جحافل من الباحثين في علوم الأحياء والوراثة والأعضاء والجيولوجيا.
ولأن الأبحاث متواصلة وتتغيّر بسرعة(ويتوقف أحيانا مصير نظرية بأكملها على اكتشاف ناب أو جزء من عظم الحوض في سهول كينيا أو صحاري تشاد) فإنني سأكتفي بتقديم خلاصة الرؤيا التي يتفق عليها الباحثون* – ملخصة في خمس أفكار رئيسية ، لا تشكل حقائق مطلقة وثابتة وإنما معطيات متينة حاليا لكن من المحتمل أن تتغير مستقبلا .
1-الإنسان ، بأعراقه المختلفة موجود بالخصائص التي نعرفها له اليوم منذ حوالي مائتي ألف سنة .
2- وقبله وجدت أصناف عديدة من "إنسانيات " أكثر بدائية ترمي جذورها في عمق مليوني سنة انقرضت الواحدة تلو الأخرى كأغصان شجرة لا تثمر.....باستثناء الغصن الذي أثمر جنسنا والذي يسميه الباحثون لسبب لا يبدو بديهيا الإنسان العاقل العاقل .
3- تتفرّع كلّ الأغصان ،التي أثمرت ولم تثمر، من جذع حمل أجناسا متعددة من كائنات تفرعت عنها أصناف القردة والآدميات المتعددة وتضرب جذورها في عمق خمسة وعشرين مليون سنة. *علما وأن الثدييات ظهرت منذ خمسة وخمسين مليون سنة، والحياة على سطح الأرض منذ خمس مئة مليون سنة، والحياة في أعماق المحيط منذ مليارى سنة، في كوكب يقدر عمره بأربعة ملايير سنة وكون يقدر عمره بخمسة عشر مليار سنة.*
4-وجد إلى حوالي أربعين ألف سنة خلت *إنسانان* : الذي ننحدر منه و إنسان "نياندرتال" المنقرض منذ حوالي أربعين ألف عام . وقد انفصلا عن نفس الجذع منذ حوالي ثلاث مئة وثمانين ألف عام . مما يعني أن الكوكب عرف لأكثر من ثلاثمائة ألف سنة بشريتان . ومن المرجح أن اختفاء إنسان" نياندرتال" ناجم عن مصادرة أراضي صيده وطرده نحو مناطق استحال العيش فيها من قبل أوائلنا . هكذا تكون أسطورة قابيل وهابيل قد وضحت مرة أخرى أن الأساطير صدى باهت لأحداث ضاعت تفاصيل وقوعها فأعيدت صياغتها بشيء من الحرية . المشكلة أن هذا الاغتيال الجماعي لجنس شقيق لم يبشّر بخير وربما يفسّر الكثير مما نعاني منه إلى اليوم .
5-تزامنت الفترة الزمنية القصيرة لما يسمى الحضارة - وهذا ليس صدفة – مع انتهاء فترة جليدية طويلة واستقرار مناخ معتدل. حدث هذا التحوّل البالغ الأهمية منذ 13 ألف سنة ممّا سمح بظهور الزراعة وما انجرّ عنها . ربما نعيش نهاية هذه النافذة المناخية الملائمة للحياة السهلة بما أن المناخ بصدد التغيير نظرا لديناميكيته الخاصية (المتسمة بتتابع فترات طويلة من الدفء وأخرى من البرد المفرط) وأيضا لتأثير الإنسان السلبي عليه.
لنتوجه الآن إلى أبسط حاسبة نسألها ما نسبة "التاريخ " من عمق الماضي – بانتظار تحسّن المعطيات وتزايدها دقة وربما دفع الخطّ الأحمر بعيدا إلى الوراء-
نكتشف أن العشرة آلاف سنة المعتمدة للتاريخ الأكاديمي لا تشكل سوى نسبة 5 % من عمق التاريخ الفعلي . إنها هي التي جعلنا منها فترة "الحضارة" - أي الرقيّ المادي و الأخلاقي -تواجهها فترة "الهمجية"- أي البؤس المادي والأخلاقي.- والتي استغرقت كل ما سبقها من الزمان.
إلاّ أن نظرة كهذه لا تستقيم لأن البشرية عرفت أعلى نسب الموت حربا وجوعا إبان فترة "الحضارة " ، ناهيك عن ظهور العبودية والأسلحة الفتاكة ومحتشدات التصفية الجماعية. لن نرتكب بالطبع الغلطة المعاكسة والانخراط في أسطورة المتوحش السعيد الذي عاش في كنف الانسجام مع الطبيعة. ربما تمتع بما لا نتمتع به اليوم من هواء نقي وطبيعة خلابة وحرية مطلقة ،لكنه عرف هو الآخر كل صعوبات العيش و لم يتمتع بما نتمتع به اليوم من أدوية ولباس وطعام مضمون ....على الأقل بالنسبة للذين لم يخنهم الحظّ.
معنى هذا أن العلاقة بين الفترتين أكثر تعقيدا وتواصلا مما يدعو إليه أصحاب هذه الثنائية الأخرى.

----
*Jacques ATTali : L’homme nomade – Fayard –Paris 2004

لنتنبه لمغزى شعورنا بالإعجاب والتعجّب من القدرات التكنولوجية للعمال المصريين أو الأزتاك ونحن نتأمل أهرامات لا نتصور إلى اليوم طريقة بنائها . إنه نفس الإعجاب والتعجب أمام ما تظهره لوحات مغارات لسكو الرائعة من ملكة فنية مرهفة عند إنسان عاش منذ ثلاثين ألف سنة في المغارات .
إنّ هذا الشعور ناجم عن إيماننا الساذج بأن إنسان العصر الذي ننتمي إليه هو الصورة المكتملة للإنسان وأن " الحضارة " تبدا وتنتهي به ، أما ما سبق فهو محض همجية وجهل وعجز الخ . لكن الحقيقة أن القدرة الفنية التي تظهرها "لاسكو" ،والتكنولوجية التي تظهرها الأهرامات، هي نفس القدرة التي تمكن إنسان اليوم من إرسال الصواريخ إلى أعماق النظام الشمسي. إن ما يتغيّر هو تراكم الاكتشافات والتحسينات والتغييرات لكن الذكاء هو نفس الذكاء والقدرة على الإبداع و الخلق والتأقلم والتطور هي نفس القدرة عند إنسان ثابت على خصائصه الذهنية ثباته على خصائصه البدنية ، حيث لم يجعله "التقدم "في الزمن يكتسب يدا ثالثة أو فصا ثالثا في الدماغ.
هذا ما جعل عالم الاجتماعي الأمريكي Alvin Toffler* يدعو في الثمانيات إلى مراجعة جذرية لمفهوم الحضارة بغسله من كل حكم معياري (أي من السذاجة والغرور) وتناسي كل ما ينطوي عليه من أفكار التطوّر والتحسّن والأفضلية الخ . وقد اقترح *اعتبار الحضارة فترة معينة من تاريخ الإنسان تتميز عن سابقاتها بطبيعة وسائل العيش المادية التي تكفل البقاء و المتحكمة بدورها في تصورنا للعالم وطريقة بناء أنظمتنا الاجتماعية مثل النظام السياسي والديني والمعرفي .*
إن النقطة الأساسية في نظرية "ألفان توفلر" هي قدرة وسائل العيش المادية على فرض القيم والقوانين والتنظيم التي تتماشى معها، مما يعني أن التكنولوجيا هي التي تلد الايدولوجيا.
هكذا يمكن القول بوجود حضارة صناعية قطعت مع الحضارة الزراعية لأن وسائل العيش تغيرت جذريا فتغيرت معها كل المعطيات السياسية و الثقافية . فلولا ظهور الصناعة لما ظهرت كل الآلات التي غيرت حياتنا وكذلك الثورات السياسية والثقافية مثل الرأسمالية والإمبريالية التي ولدت الشيوعية . كذلك لولا التغييرات التكنولوجية لماعرفنا المؤسسات مثل المدرسة والمستشفى ونموذجهما هو المصنع.
أما الحضارة الزراعية فقد قطعت هي الأخرى مع فترة متقدمة عليها عاش الإنسان خلالها من الصيد والجني و أدّت إلى ظهور الدولة المركزية والإقطاع والعبودية و نماذج الإله المخلص للعبيد.
وفي إطار هذه الرؤيا لا معنى للقول بوجود حضارة عربية –إسلامية أو حضارة غربية . فمن الأصحّ الحديث عن ازدهار *الثقافة* العربية الإسلامية إبان الحضارة الزراعية واتضاح قلة صلاحيتها للحضارة الصناعية وتجددها إبان الحضارة المعلوماتية. فالثقافة إذن بمفهوم Alvin Toffler هي الاختلافات البسيطة في طرق تعامل مجموعات بشرية عزلها عن بعضها البعض مرحليا اتساع الفضاء ، لكنها تتشارك في نفس الحضارة لتشابه التكنولوجيا . هكذا يمكن القول أن المجتمعات الصينية القديمة والمصرية والبابلية شكلت ثقافات مختلفة داخل الحضارة الزراعية مثلما تشكل اليوم الثقافة الغربية واليابانية الثقافاتان الأكثر تقدما داخل الحضارة المعلوماتية .
صحيح أنه يمكن لهنود غابات الأمازون أن يعيشوا كما عاش أجدادهم منذ غابر الزمان في نفس العصر الذي " يسكنه" فلاحو الحضارة الزراعية العائشين بدورهم في عصر سكان سنغافورة و هوليود . لكن تداخل الأزمنة عرضي ومؤهل للاختفاء السريع – بمقياس زمن البشرية لا زمن الأفراد - لأن من طبيعة الحضارة المهيمنة أن تدمج بطول الوقت ما سبقها حتى ولو تركت هنا وهناك بعض الجزر الزمنية المعزولة. يمكن اعتمادا على رؤية Alvin Toffler تقسيم ماضينا ،لا إلى تاريخ وما قبل التاريخ، وإنما إلى زمن متواصل كالنهر، عرف إلى حدّ الآن أربع حضارات:
- الحضارة الأولى التي اعتمدت كليا على الصيد والجني ودامت 190.000 سنة أي 95 % من كل التاريخ
- الحضارة الثانية التي عتمدت كليا على الزراعة ودامت 9800 سنة.

Alvin Toeffler، la troisième vague – Fayard

-الحضارة الثالثة التي اعتمدت أساسا على الصناعة وعمرها200 سنة فقط.

ـ الحضــارة الرابعـة التـي تتعـايش مـع بقايـا الحضــارتين السـابقتين فـي الوقـت الـذي تبسـط سـيطرة تكنولوجيتها وإيدولوجيتها بصفة كاملة على كل العالم يوما بعد يوم .
المشكل هو التأقلم وصعوبته. تتغير معطيات هامة في الوضع المحدّد و نحن لا نـزال متشبّعين بالصـور التي ورثناها عن أبائنا و أجدادنا . نعيش بأجسامنا عالم الصواريخ عابرات القارات
و الطائرات النفاثة و المكوكات و الأقمار الصناعية لكن عقولنا تبقى مصنوعة من صور وأفكار وقيم ركاب الجمال و البغال و الحمير و كأن التطور فاجئنا بسرعة لم تترك لنا وقتا كافيا لتعديل الإيدولوجيا على التكنولوجيا .

*

يفرض المنطق البسيط الاعتقاد أن المواقف والتصرفات التي اكتسبها الإنسان طوال 95% من ماضيه – أي طوال فترة الهمجية بمقياس القيم والرؤى الإنسانوية ـ لا يمكن أن تختفي وأنها تواصل فينا فعلها إلى اليوم، وربما يوجد داخلها جزء هام من سرّ إنسانيتنا اللاإنسانية.
نتصرف عندما نرفض الأمر مثل وصولي منحدر من عائلة متواضعة يحاول إنكار نسبه بعد أن أسعفه الحظّ بمصاهرة صاحب المصنع . لكن كل تصرفاته ستفضح زيف ادعائه.
السؤال الآن ما هي نواة مواقف وتصرفات إنسان جل التاريخ و التي يمكن أنها توجهنا بقوّة التيار الذي يتحكم في القطرات التي جادت بها آخر الأمطار.
ليس من الصعب تصوّر إشكالية الأوائل الرئيسية وهم لا يعيشون في عالم يجدون " ماكدونالد" في كل تقاطع طريق وإنما في عالم يفرض الركض طويلا وراء" همبورقر " أسرع منهم في الركض وما زال له قرنان مذببان للدفاع عن النفس.إن إشكالية إنساننا هذا ليست التأفف من أكل "الماكدو" وتأثيره المدمّر على الصحة العمومية والذوق العام والتنوع ا لثقافي وإنما سدّ الرمق بما توفّر من اللحم ، أكان لحم جيفة أو لحم قنفذ وحتى لحم الطفل أو رفيقة الفراش. إنه عالم لا يرحم عاجزا عن تأمين معيشة هي دوما على حساب جنس آخر من الأحياء ولا هاجس فيه لأحد أكبر من البقاء.
لا توجد إذن طوال هذه الفترة وسيلة للبقاء غير جني كل ما يثمر على النبات ولا يصيب بالمغص والتسمم و خاصة عملية بالغة الصعوبة ، قليلة المردود ودوما غير مضمونة النجاح اسمها الصيد ،حيث لا غناء عن البروتينات والفيتامينات التي لاتوفرها إلا كائنات حية مصنوعة من الشحم واللحم ولها جلد وأمعاء وعظام للإنسان فيها شتى المنافع .
وفي اعتقادي أنه لا يوجد فعل أثر في " طبيعة" الإنسان وشكّلها تشكيلا قدر الصيد. وبدون الرجوع إليه دوما نحن لا نفهم من الإنسان إلى سطحه وتبقى الأعماق التي تسيّره منذ بداية التاريخ عصية على الإدراك.

لا يجب أن ننسى ما يفرضه الصيد على الصيادين من ضرورة التجمّع و التنسيق والترابط و توزيع الأدوار و التنظيم و الانضباط...... مما يعني ضرورة وجود آمر ومأمور.
إنه الشرط الأول للنجاح في صيد حيوانات ضخمة مثل الماموت يجب حصاره من كل الجهات وفصله عن القطيع ودفعه الى الهاوية وغرس الرماح في أجزاء مختلفة ومتباعدة من جسمه الهائل.
لنركز هنا على أن هذه الوضعية هي منطلق النظام السياسي بشقيه الاستبدادي والديمقراطي منطلقين من ملاحظة بالغة الوجاهة للباحث الاقتصادي knight* .
يقول الرجل – في معرض حديث عن نشأة المؤسسة الاقتصادية – أن أي مجتمع لا يعرف الحركة والتغير هو ضرورة مجتمع غير معرض للخطر. وفي مثل هذا المجتمع النظري لا حاجة للسلطة حيث يعرف كل واحد ما له وما عليه داخل مجتمع بلا تحديات أو رهان . لكن سلط كل الأخطار

----

*F .knight, Risk , uncertainty and profit, Harper Torchbooks, New York,1965.

الممكنة عليه وستظهر الحاجة الماسة لأخذ قرارات قد يتوقف عليها الحياة والموت. وبتعاظم و تواصل الأخطار- وهو الوضع العادي للصيادين ومن بعد لأحفادهم- تزداد الحاجة لسلطة تتمركز في قائد يأمر ويطاع. ها قد وضعت الأسس للنظام الاستبدادي الذي تتجمع فيه سلطة دفع الأخطار بين يدي شخص. لكن العملية نفسها قد تكون مصدر أخطار أخرى تضاف للأخطار التي يفترض دفعها منها الاستئثار بالغنيمة وخاصة اتخاذ القارات الخاطئة . تنشأ آنذاك إرادة توزيع خطر سوء استعمال السلطة على أطراف متعددة تراقب بعضها البعض وتحد من خطر أخذ القرارات التي تضر بالمجموعة. ها قد وضعت بذور ما سيسمى يوما النظام الديمقراطي .

ما من شكّ أن الصيد يكيّف بعمق نفسية الصيادين. هو ينمّي حب الاستكشاف و المغامرة و الجرأة للتوغل في الفضاءات العذراء . هو يربي على تحمل المعاناة ، على القسوة، على غياب الشفقة تجاه النفس والآخر حيوانا أو آدميا ، على عدم التأثر أمام القتل و السلخ و تقطيع الأوصال . من المؤكد أيضا أنه، بحكم أهمية الرهان، لا توجد مرارة تعادل مرارة الفشل في الصيد ولا إثارة تضاهي إثارة العملية، ولا نشوة تعادل نشوة النصر وقد سقط الحيوان أخيرا مضرجا بدمائه .

ينمّي الصيد أيضا العقل ويكيف أهم طرق عمله ، فالمطلوب ليس فقط مغالبة تقطع الأنفاس ووجع العظلات والمفاصل وإنما أيضا التمرّن على الملاحظة ، على دقة الرصد، على البحث المتواصل عن المعلومات، على مكافحة التجارب لتحسين الأداء والتنبؤ ، على مواصلة الاختراع لاكتشاف السلاح الأفضل ، على التعلّم المتواصل، على التكتيك ، على البرمجة والتخطيط.

من يقدّر ما يظهره ذهن الصياد من قدرات عجيبة على التجريد هو يربط آثار الطريدة، أي الظاهر والمرئي ، بالغائب غير المرئي -أي الحيوان صاحبها – أو قدرته على الحساب والتوقع الصحيح وهو يضع الخطة وراء الخطة لتقفي آثار غير المرئي لاكتشاف هذا الذي تبخّر أ وذاب فيه.

نجد كذلك جذور التقييم الذي يوجه كل اشكال حياتنا في فكر الصياد .

هذا التقييم الدائم من ضروريات الفكر و من تقنياته لإحكام السيطرة على المحيط و هو تواصل الردّ على أقدم وأخطر الأسئلة : هل الغزال أبعد من مرمى السهم ؟ هل الخصم أسرع ؟ هل سلاح الأعداء أمضى

تتبلور وظيفة التقييم و تتعقد لتشمل كل مرافق الحياة لأنها منطلق القرار . هكذا يبني سلم التصنيف : جاري أقوى - كلبي أسرع - زوجتي أجمل . يتجرد التصنيف و ينظّر و يعمم في مرحلة ثالثة :الرجل أقوى من المرأة - الثري أحسن من الفقير... يصبح الأمر قانونا معهودا : الثروة أفضل من الفقر الخ...
الفارق بين تقييم الصياد وهو يرصد الغزال (أسرع , أبعد , أثقل , أطيب) و تقييم الفرد لقومه أو دينه , أو جنسه (أنبل , أشجع) هو الفارق بين البسيط المركب . أما اللب فواحد : القيمة المضافة لموضوع التقييم تبعا لميزان القوى على خارطة المصالح الآنية و البعيدة المدى محافظة و انتزاعا .

إنه من المضحك أن يروّج بعض المفكرين الغربيين لكون الثورة العلمية التي نعيشها اليوم هي وليدة فكر غربي أضاء فجأة ظلمات الجهل وشعّ نوره من يونان القرن الخامس قبل الميلاد، والحال أن كل جذوره موجودة في فكر صيّاد العصور الحجرية.

والصيد هو الذي وضع أيضا في نفس فترة " الهمجية" دعامة كل الأديان حيث أدرك هذا الإنسان بالسليقة أن هناك قوى يمكنه السيطرة عليها، فحاول ترويضها بفكره، وقوى لا يمكن السيطرة عليها فحاول ترويضها بالتملق والابتهال ومحاولة شراءها بتقديم نسبة مائوية معقولة من الصيد المطلوب منها تسهيله . إنه الأمر الذي يتواصل إلى اليوم عبر تقديم الأضاحي الحيوانية والآدمية . ولا نستطيع إلا أن نعجب بذكاء أوائلنا وقد رفضوا وضعهم بيضهم في سلة واحدة، يعولون من جهة على قدراتهم العقلية ومن جهة أخرى على قوى الخلق والدمار التي تحركهم وتتحرك حولهم وهم لا يعرفون لها اسما أو غاية .

من الضروري التأكيد هنا على الوجه الآخر لعلاقة الصياد بالحيوان . فهذا الأخير بالنسبة للصياد ليس الكائن الناقص الذي نراه في هذا العصر و ليس مجرّد لحم متجوّل مثلما تثبت اللوحات الفنية الرائعة المرسومة على جدران مغارات" لاسكو"، وغيرها كثيرة منتشرة في كل أنحاء العالم .

قلّ من نعي أن موقف التقديس للحيوان الذي تظهره هذه المغارات – المعابد لا زال متواصلا عبر * علاقة الهندوس مثلا بالبقرة أو القرد أو الفيل. إنها صدى مشاعر الخشية والإعجاب والامتنان القديمة التي جعلت الآلهة تتخذ عصورا طويلة شكل احيوانات مختلفة .

إن مشاعر التفوّق والاحتقار والسيادة والريادة والحق في التصرف المطلق وليدة المنعطف التاريخي الهام الذي حصل منذ حوالي تسعة آلاف سنة، في الشرق الأوسط تحديدا ،أي استعباد أربعة عشر جنسا من الثدييات الكبرى (على قرابة المائة وخمسين) منها الماعز والغنم والأبقار والجمال والخيل في منطقتنا واللاما في أمريكا الجنوبية والفيل والخنزير في آسيا .

حدث ذلك تزامنا مع اكتشاف كيفية ترويض نباتات اسمها القمح والذرة أذنت بانطلاق الحضارة الزراعية.

أليس غريبا أن انطلاق عبودية البشر تزامن مع استعباد الحيوانات ؟ أننا لا زلنا نتحدّث في ثقافتنا العربية الإسلامية عن ....الراعي والرعية لوصف علاقة الحاكم بالمحكوم ؟ هل من دليل أحسن على وجود ارتباط وثيق بين الوضعين وأنه من الممكن أنه لا تحرّر للإنسان إلا بتحرير الحيوان.

*

ثمة سؤال ليس عرضي وإنما مركزي :إلى أي مدى شكّل الإنسان صيدا عاديا للإنسان طوال ال95% من تاريخنا في هذا العالم ؟

هو لا يركض مثل الغزال ولا يجيد الاختفاء مثل الحرباء، ولا وجود في تلك الفترة من التاريخ لموانع ذوق أو أخلاق ضد استعمال القيمة الغذائية للنهود والأرداف .

لا أحد من المؤرخين قادر على رسم صورة واضحة لظاهرة أكل اللحم البشري . فثمة غياب أو قلة المصادر وثمة خاصة إرادة التعتيم على موضوع محرج كهذا، مع أن أكل اللحم البشري تواصل طويلا حتى إبان فترة "الحضارة ". فالصليبيين أكلوا اللحم الطري في البلدة التي أنجبت رهين المحبسين .كما لم تغب الظاهرة يوما في أي حرب طالت أو عند حدوث مجاعة. وقريبا منا عاش جزء من الأوكرانيين على اللحم البشري إبان مجاعة العشرينات، كما بيع اللحم الأوروبي الطازج في أسواق شرقي الكونغو في الستينات.

أما العرب، الذين لا يتصورون أكل اللحم البشري إلا كظاهرة يمارسها من يسمونهم في أغلب لهجاتهم العامية العبيد، فمن المستحسن نصحهم بالعودة إلى التراث.

عن الجاحظ بعض الأشعار التي عيّرت فيها قبائل العرب بعضها البعض بالمحظور الأكبر.

قال الشاعر في ذمّ هذيل

وأنتم أكلتم سحفة بن محدّم	زمانا فلا يأمنكم أحد بعد
تداعوا له من بين خمس وأربع	وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد

وقال شاعر آخر فيهم.

إن سرّك الغدر صرفا لا مزاج له	فأت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم	فالشاة والكلب والإنسان سيان .

----

*إن مفهوم النشوء والارتقاء الذي اخترعه داروين جاعلا من الإنسان قمة هرم الكائنات هو ،على أعلى المستويات، من نفس طبيعة القول بالشعب المختار وخير امة اخرجت للناس وحمل الرجل الأبيض ,,,أي انه التعبير عن عنصرية جنس بأكمله قرّر من تلقاء ذاته وبشهادة من نفسه أنه خير ما جادت به قدرة الطبيعة او الله .من حسن الحظ أن لأهل النكتة رأي أكثر تواضعا لخصوه في شعار ظهر على جدران المترو : في عالم مثالي لا يمكن أن يوجد شيء اسمه الإنسانية . الثابت أن رؤيا داروين الساذجة والخطيرة تحتاج لمراجعة جذرية والعلم يكشف أن كل الأجناس الحية تتضمن على تعقيدات هائلة وقدرات تتميز بها وحدها . كما ينحو كبار الباحثين اليوم لتصور تنظيمها لا على شكل هرم وإنما كأغصان شجرة يحملها جذع واحد وتضرب في عمق الزمان بنفس الجذور. متى عرف لغصن فضلا على غصن في أي شجرة ؟

وقال ثالث في بني فقعس

عدمت نساء بعد رملة فائد بني فقعس تأتيكم بأمان
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها جلا في قدور بينكم وجفان

وقال شاعر يهجو باهلة

إن غفاقا اكلته باهله تمشّشوا عظامه وكاهله
وأصبحت أم غفاق ثاكله .

والقوم على ما يبدو ذواقة يعرفون أطيب أجزاء الآدمي

أبلغ لديك بني كلب واخوتهم كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم كما أكلتم خصاكم في بني أسد.

لا شكّ أن الإنسان مثّل إما صيدا يؤكل كما يؤكل الغزال ، إما منافسا يجب طرده بالقوة من فضاء الصيد المحتل كما هو الشأن مع أي أسد أو ضبع يجري وراء نفس الفرائس.
يجرّنا هذا إلى طرح علاقة جماعات الصيادين ببعضها البعض .
وفي البداية ثمة العلاقة داخل نفس المجموعة .
انظر لتركيبها . هي مكونة بالضرورة من مجموعة مسلحة ترصد الهدف و تحاصره وتنقض عليه وتقتله .
هي تخضع لقيادة تنسق وتأمروتفرض بكيفية أو أخرى الانضباط الضروري لنجاح ....الحملة.
نحن إذن أمام النموذج الكامل للوحدة العسكرية الصغيرة التي لن تشكّل أضخم الجيوش إلاّ بإعادة نموذجها الأصلي على نطاق اوسع وبإمكانيات أكبر. مما يعني أن الصياد البدائي لم يضع فقط أسس الدين والعلم والفنّ وإنما ايضا أسس الحرب . إن الفرق بين السهم المسموم والصاروخ العابر للقارات المحمل بالرؤوس النووية، ليس في الكيف وإنما في الكم . فطبيعة الشيئين واحدة : سلاح مدفوع نحو الآخر بقوة نفسية وبجهد فكري و مادي يبغي أقصى القتل .
كذلك بذر الصيد جذور الوطن هذه المساحة المطوقة من الفضاء التي لا يصطاد فيها غيرنا أو بإذن ونسبة مئوية من الأرباح . إنها الفكرة التي ستتواصل عبر العصور وقد اصبح فضاء الصيد فضاء الزراعة ثم فضاء التجارة والمبدا دوما واحد: غزو أكبر قدر ممكن منه.
ما الذي يحدث عادة عند تلاقي مجموعتين من الصيادين تنحدران من مجموعة سابقة توزعت على امتداد قرون طويلة في مختلف أنحاء الفضاء ثم تداخلت فضاءات الصيد ليصبح التنافس على الموارد النادرة محور العلاقة.
لا نجانب الصواب إن قلنا أنه من الأرجح أن الفريقين تبادلا ضربات العصي والرماح بدل تبادل القبل والذكريات حول الأجداد المشتركين.
وحتى تكتمل الصورة لنذكّر بأن إحدى وسائل مكافحة زيجات الأقارب التي تنتج نسلا هزيلا بطول الوقت هو تبادل اختطاف النساء .لا غرابة أن تكون المشاعر التي تطبع علاقة جماعات مسلحة ومتنافسة مبنية على التباغض وخاصة على الخوف....هذا الشعور المركزي في علاقتنا مع الآخر منذ بداية التاريخ .

*

تواصل عقلية صياد البداية فعلها فينا في كل المجالات إلى اليوم تشير إلى وجود صدى قوي في النفوس وربما حتى وجود حنين لتلك الفترة .
إن ما نسيناه أو تناسيناه سريعا مغزى بقاء الصيد طوال الحضارات المتلاحقة في كل أرجاء العالم رياضة الملوك والطبقة الأرستقراطية ... أو سبب بقاء حق منح رخصة الصيد في أوروبا إلى القرن التاسع عشر حكرا على الملوك... أو لماذا كان الشنق نصيب أي فلاح يتطاول على صيد حيوان يعبر أرضه.... أو لماذا أصرّت البرجوازية الغربية الصاعدة على التمتع بهذا الحق في إطار صعودها الاجتماعي .
أليس هذا أبلغ تعبير عن الحنين المتواصل للعصر الذهبي...لعصر لا يواصله إلا نخبة النخبة ؟

لا يتحدّث الشاعر الأندلسي إلا بلغة ذاكرة موغلة في القدم وهو يتغني بحبيبه
نصبت عيناي له شركا
فعزّ تصيّده .
انظر الآن لروايات الخيال العلمي الهائلة الانتشار . إنها لا تخرج عن سيناريو غزونا لفضاءات صيد بحجم كواكب موجودة في أقاصي الكون أو في غزو سكان المجرّات البعيدة لكوكبنا ومعاملتهم لنا كما نعامل الحيوانات.

أنظر حتى لعالم الفكر وستجد أنه هو الآخر ساحة صيد وحرب .

ولو تابعت المعارك النظرية بين المدارس الفكرية وداخلها لاكتشفت آليات مختلفة وهدف واحد : السيطرة على فضاء الرموز أو اقتطاع أكبر جزء منه تماما كما هو الحال في فضاء الحواسّ.

إن الدين والفلسفة والعلم ليست مراحل تطوّر الفكر البشري كما يقول كومت وإنما حالات أساسية لإرادة القوة والسيطرة على الواقع. لا تتابع هذه المراحل وفق خطّ تصاعدي تلغي مرحلة اللحظة مرحلة البارحة ممهدّة لمرحة الغد و إنما هي استراتيجيات في حالة صراع وتنافس لا تقلّ شراسة عن حالة الصراع و التنافس في دنيا الطبيعة .

يستولي الدين على كامل الفضاء الفكري لشعب أو أمة فتنتصب الفلسفة حركة للمعارضة تقمع بشدّة للتواصل الدائم بين الفكر و العمل بين المستويات العليا و المستويات الدنيا، بين إرادة القوة في عالم الفكر وإرادة القوة في عالم السياسة، بين الانتصاب قيما على الحقيقة وبين الانتصاب قيّما على الناس وما يكسبون.يقتل ابن المقفع ويرهب ابن رشد و يهدّد ابن عربي بنفس الطريقة التي يعامل بها المنافسون على جلد ولحم الفريسة .تخسر المعارضة الطامعة لكي تكون هي صاحبة اليد العليا في توزيع المغانم في جنوب المتوسط المعركة. لأسباب معقدة تنتصر في شماله رغم حرق جيورلانو برونو و سجن قاليلي

و تهديد داروين .ها قد فقد الدين سلطانه لفائدة الفلسفة ومن أسماء بعض قادة المعارضة المنتصرة مونتسكيو، روسو وماركس. يتطور العلم داخل الفلسفة كجزء من الحزب الأقوى إلاّ أنه لا يلبث أن يشبّ عن الطوق عندما يكتشف قدرته على التحرك وإمكانياته الخاصة للسيطرة بدون حاجة إلى إيديولوجيا اللجنة المركزية . تحدّث آنذاك عملية الانشقاق فيدخل فافيلوف في صراع مع " الحقيقة " الماركسية اللينينية فإذا به ضيف المحتشد الفلسفي مثلما دخل قبله قاليلي الزنزانة الدينية.

ها هو العلم منتصرا يفرض تصوّره " الحقيقي " للعالم أي سلطانه على الفضاء الرمزي وهو الوجه الآخر لعالم الآدميين . ها هو الدين قابع في بعض الزوايا المظلمة للمجتمع ينتظر أن يبرز العلم كلّ أخطائه وكل فظائعه ليحاول العودة إلى السلطة كما يفعل أي حزب مهزوم عندما ينتظر فشل الوعود الانتخابية للغريم.

غيّر الآن المجتمع وانظر إلى حالة الفلسفة أو حالة العلم في عالمنا العربي الإسلامي وسترى سلطة دينية تحاول اكتساح مواقع الفلسفة "المستوردة" وتدجين العلم لخدمة سيطرتها على الفضاء الذي تدار منه أهم عملية القنص . لكنها حالة عابرة طال الزمان أو قصر.
قلّ من ينتبه لتواصل عقلية الصيد داخل أكثر نظمنا السياسية حضارة وتقدما .
لنتفحّص مثلا آليات النظام الديمقراطي الذي يدعو له المشرّع العالمي . إنها كلها آليات حرب بأتم معنى الكلمة لكنها حرب نقلت من المستوى الحسي إلى المستوى الرمزي.
تتجمع الأطراف المتنازعة على الغنائم المادية أو المعنوية في قبائل واضحة المعالم يسمونها أحزابا للدفاع عن مصالحها المشروعة وغير المشروعة .لا بدّ كما هو الحال في كل حرب من سلاح، لكن المسموح به هو سلاح اللغة ومن ثمة ضرورة إتقان إ ستعمال النبال الكلامية والراجمات البلاغية والصواريخ اللفظية. فهدف هذا السلاح الذي تضمنه وتشجع عليه المادة 19 من الإعلان هو ممارسة التهديد والضغط والحطّ من المعنويات.

وبعد فترة إعداد ساحة المعركة بالقصف اللغوي ، يمكن للمتحاربين النزول لساحة الوغى لتصفية كل الحسابات وإعادة توزيع المغانم .
لنتصوّر تطبيق القاعدة في حطّين أو واترلو أي تقدّم الجيشان لساحة النزال ...ثم قضاء طول النهار في اللعب بالورق على العشب بانتظار إعلان الحكم عن انتصار الجيش الفلاني حيث اتضح بعد عدّ عملية المتحاربين أنه أكثر عددا، مما يؤدي إلى استبدال الملك القديم بملك جديد عرف كيف يجنّد قوى لم يجنّدها الغريم . وعشية " المعركة" يعاد توزيع المغانم فيؤوب القائد المنتصر بالتاج على رأسه والقائد المهزوم برأسه على كتفيه ويعود كل جندي إلى بيته سالما بدل الاحتضار الغبي تحت اسراب الذباب.
أنظر الآن للرياضة والشطرنج .أليست هي الأخرى نقل الحرب من المستوى الحسي إلى المستوى الرمزي؟ أما الهدف فقارّ لا يتغيّر : صرخة النصر على الآخر وربما على الذات .
إذن ... فرض علينا الوضع المحدّد إبان الحضارة الأولى صيد الآدمي وأكله مثلما فرض علينا صيد الحيوان وأكله دون ان يمنعنا الأمر من عبادة لا هذا و لا ذاك.
فرض علينا الوضع المحدّد إبان الحضارة الثانية استعباد الإنسان والحيوان في نفس الوقت وبنفس الكيفية. وربما خيّل للبعض أن العبودية – على الأقل عبودية البشر- انتهت مع الحضارة الثالثة . فرض علينا الوضع المحدّد إبان الحضارة الثالثة إلغاء الشكل الفج للعبودية وأبقى على الجوهر في حين وسع مجال الاستعباد بكيفية لم يسبق لها نظير وقد اصبح العبد المقيّد الطبيعة بأسرها.
وطوال الحضارتين الأخيرتين لم يتوقف صراخ الأنبياء واحتجاج المصلحين على وضعية الإنسان - مع تجاهل وضعية الحيوان لانعدام فهم الترابط- دون جدوى... لأن الوضع المحدّد كان أقوى من كل احتجاج. كل ما نجحنا فيه هو نقل العنف، في بعض الظروف فقط ، وبعض المستويات فقط ، وبعض الأماكن فقط ، من المستوى الحسي إلى المستوى الرمزي، دون أدنى ضمانة أن حتى هذا الانتصار المتواضع سيتواصل أين وجد فما بالك بتعميمه .
الحضارة بمفهومها المبتذل إذن وهم لأنها مجرّد غشاء رقيق على سطح بركان من العنف هو نتيجة وسبب وضع محدد قاهر يرمي جذوره في أعماق التاريخ صاغ مواقف الإنسان وتصرفاته ومنها التي" أثارت بربريتها الضمير البشري" .
تؤدي بنا مثل هذه القراءة التاريخية إلى مأزق نظري ، فالاستنتاج المنطقي الوحيد هو أن الإنسان المدفوع بوضع محدّد مبني على العنف و تبلور على امتداد مئتي ألف سنة، لن يستطيع التصدي له وتغييره مثلما لا تستطيع قطرة النهر التصدّي للتيار الذي يوجهها أو إعادة رسم مسار النهر.
لكن ماذا لو كان الوضع المحدّد ، وذلك منذ لحظة انطلاق التيار لا يدفع ولا يؤسس للعنف وإنما أيضا للنقيض؟

***

إنسان التنافس فقط أم أيضا إنسان التعاضد ؟

الوضع المحدّد بثقله التاريخي وتعقيده المريع هو إذن العقبة الكأدأ في وجه حقوق الإنسان.
هو كما رأينا من جهة أنظمة مستقلة مترابطة ديناميكية مثل العائلة والجماعة والشعب والأمة والإنسانية يهيكلها التنظيم السياسي والثقافي و العقائدي و الاجتماعي الدولي.
هو من جهة أخرى تراكم تصرفات كل الأجيال السابقة التي تعاملت مع هذه الأنظمة أو خلقتها ، تضغط باستمرار علينا وتوجّه جزءا أو كلا من مواقفنا وتصرفاتنا .
هو أخيرا طاقة عنف هائلة غير مشخّصة عمياء سماها البعض القضاء والقدر ونجد أنفسنا حيالها غالب الوقت بلا حول ولا قوّة .
ما هدف هذه الطاقة الهائلة التي تضخ الحيوية في كل الأنظمة ؟
إنه طبعا هاجس البقاء ، علما وأن الهاجس لا يعني المحافظة على الحياة في الوضع التي هي عليه وإنما المحافظة عليها و تحسينها باطراد ,,, مما يجعل البقاء مشروعا مفتوحا متواصلا وليس ثباتا على شيء.

لن تخطئ تحليل كل المواقف والتصرفات داخل كل مستوى و التنبؤ بها إن أنت احتكمت في الفهم والتقييم دوما لهاجس البقاء. هذا ما يجعلنا نرجح أنه محرّك التكنولوجيا و الدين والعلم والفنّ والسياسة.
حتى تتأكّد أن الأمر هو القضية المركزية في كل حي وفي كل الأنظمة التي يخلق ،فكك أي نظام إلى أجزائه. سترى أن الكل والأجزاء لا تسعى إلا للبقاء وتوسيع مجاله بشتى الوسائل إن كان في الزمان أو في المكان.
لنأخذ السياسة مثلا . هي مكونة من أنظمة ثانوية فكرية مثل الايدولوجيا والنظريات والبرامج المتنافسة . هي مكونة أيضا من أنظمة مادية مثل الدول والأحزاب والتنظيمات والأشخاص . من يستطيع أن يجادل أن هدف كل هذه الأطراف هو البقاء أطول وقت ممكن، في السلطة بالطبع، بما هي العنصر الأساسي الذي يعرف البقاء السياسي.
ثمة خاصية هامة لهاجس البقاء هي الأولوية المطلقة للبقاء العام على البقاء الخاص ...للكل على الجزء.
حقا همّ الفرد الأكبر بقاؤه - إلا في الحالة الشاذة للانتحار - لكنه يجد نفسه بسرعة مجنّدا طوعا أو كرها للدفاع عن بقاء الأقربين ثم المجموعة الأوسع ولو على حساب بقائه.
يجب إذن أن نأخذ بعين الاعتبار في معادلة البقاء حقّ الأنا الذي يتراجع أمام حقّ الأكبر من الأنا ويمكن أن يشمل العائلة ويتوقف عندها ، أو يشمل القبيلة ويتوقف عندها ، أو يشمل الشعب ويتوقف عنده . وثمة من يضحي من أجل إنسان لا تربطه به لأنه يرمز للإنسانية جمعاء.
يفرض الجيش على الجندي الخروج لموته غير معني برعبه لأن موضوعه غير هذا. تزين الايدولوجيا للانتحاري أنه ليس لحياته استعمال أفضل من تقديمها لبقاء الأمة أو الدين الحنيف .
لننتبه لأهمية الكلمة المستعملة في وصف العملية أي التضحية بالعربية و sacrifice بالفرنسية والإنجليزية . إنها في كل اللغات بقايا من أفكار وصور الأضاحي الآدمية التي تقدم للآلهة زلفى لتضمن تواصل بقاء نسيج من خلايا كثيرة قابلة للتعويض السريع . لكن ما الذي تحتويه الكلمة عندما تكون خيارا حرّا لا فرضا بالعنف ... عندما يختار المرء دون فرض من ضابط أو ترويض من كاهن أن يقدم حياته طوعا من أجل مبدأ أو قضية ما أو أن يسخرها في خدمة أنا آخر.
يعرف كل أم وأب جرّب رضيعا يزعق الساعات الطويلة بل ويتبوّل عليه ،أن هناك عاملا واحدا يمنع من رميه من النافذة : الحبّ.
يجعلنا هذا الشعور الغريب نتحمّل كل المشاكل التي يسبّبها لنا هذا الطفل سنينا طويلة وأحيانا العمر كلّه بدءا من نوبات صراخه المزعجة وهو رضيع إبّان القيلولة و في آخر هزيع من الليل ، إلى كثرة مصاريفه ناهيك عن مشاكله الجنسية والميتافيزيقية وهو مراهق .
ومن الجهة الأخرى يدرك الطفل سريعا إلى أي مدى يرتبط وجوده بهذا الحبّ.
أليس القانون أن أي طفل يصل عالما لا تنتظره فيه عناية مركزة من قبل مجهولين يبدون به اهتماما هائلا مؤهل للموت السريع... والعكس بالعكس أي أن تمتعه بكل أصناف ومستويات الاهتمام ، هو الذي سيكفل له البقاء و النوع الجيّد منه؟ أليست أعمق المخاوف، تلك التي لا نتخلص منها أبدا ، أن نؤكل أو أن نرمى خارج العش لنموت من الجوع أو لتفترسنا السباع. أي ضمان ضد خطر كهذا خارج حب الأم والأب ثم ما تيّسر من بقية الآدميين ؟
مما لا شكّ فيه أننا لا نحبّ الطفل إلا لوعينا أن في بقائه بقاؤنا . كذلك هو لا يحبنا إلا لوعيه بما يدين لنا به في تأمين وتحسين بقائه . أما كرهنا للآخر- أو للشيء- فناجم عن تهديده لهذا البقاء أو تصعيبه .
كما أن لا مبالاتنا تجاه نوع ثالث من الآدميين – أومن الأشياء- ناجمة عن تقديرنا بضعف أو انعدام أي دور في قضيتنا الأولى والأخيرة. ولأننا ندرك باكرا أن نصيبنا من الحب بكل أشكاله نصيبنا من الحياة ، يصبح البحث عنه واكتسابه والمحافظة عليه ومقايضة ما نعطي منه بما نتلقى ،الهاجس الثاني في رحلتنا في هذا العالم ، لا نختلف في الحاجة ذكرا عن أنثى ، طفلا عن عجوز، ملكا عن متسوّل .
وفي الواقع فإن الحب بدرجاته وأشكاله ومشتقاته المختلفة ، كالصداقة والأخوة الأثرة والتعاضد والتراحم الخ، قوة تجمع البشر كما تفعل القوى الكهربائية والمغناطيسية التي تربط ذرات المادة بينها لتجعل منها هذا المعدن أو ذلك البروتين .

إن هذه المواقف والتصرفات ،الموجودة على طرف النقيض لعدوانية وعنف نفس لصياد، هي التي تمكن **أيضا** أفرادا أضعف من العيش بمفردهم ، من تكوين عائلات وقبائل ومجتمعات وشعوب وأمم قادرة على تأمين بقائها عبر المكان والزمان.*يجب قبل مواصلة المعالجة التوقف عند تفسير المصطلحين لتفادي الخلط وسوء الفهم .
لنفتح القوس هنا لتعريف المصطلحين .
يتمثّل العنف عند الأغلبية في انفجار القنبلة التى رمتها الطائرة أو الانقضاض على الخصم بالقبضتين أو تراشق المتظاهرين والبوليس بالحجارة والقنابل المسيلة للدموع . إن الأمر بمثابة اختزال التغذية في إفراز الفضلات إي في مرحلتها النهائية ذات الرائحة الكريهة. فالعنف هو جملة التصرفات والمواقف التي كان انفجار القنبلة آخرمراحلها. لولا تخطيط الباحث وتفكير المهندس وإتقان الصانع وخبرة التاجر والإداري والطيار وقرار السياسي وانضباط العسكري لما سال دم الضحايا. تمثّل كل هذه العمليات الهادئة " المتحضرة "، وأحيانا الذهنية الصرف، مراحل ظاهرة غير قابلة للتجزئة. ولو تأملنا في شتى مجالات الدين والسياسة والحياة الاجتماعية وحتى العلم لاكتشفنا فيها كل مراحل العنف التي قد تؤدي للإنفجار أو لا تؤدي . مما يعني أننا نعيش ونمارس العنف طول الوقت وليس فقط عند انفجار القنابل .
يصدق نفس التحليل على الحب الذي نختزله في آخر مظاهره مثل جماع العشيقين أو علامات حنان الأم الساهرة على طفلها المريض. فهاتان الظاهرتان من جديد تبلور المرحلة النهائية لسلسلة من المراحل فيها التفاهم والتجاوب والتعاطف والترافق والتعاضد . هذا ما يجعلنا دوما مجتمعات تنضح بالحبّ خلافا للصورة القاتمة التي تعطيها عنّا صفحات الجرائد.
نحن إذن أمام قوتين أساسيتين ومتناقضتين تؤديان نفس المهمة .
إن سطحية الداروينية لا تتعلق فقط بمفهوم الارتقاء أي بتوهم تفوق الإنسان على الحيوان وإنما بتصور آليته حيث جعلت الصراع محرّكه الأساسي . لكن ما فات النظرية أنه لو كان الصراع ، داخل الجنس وبين الأجناس، هو الفاعل **الوحيد** لانقرضت كل الأجناس إن كل ملاحظات البيولوجيا المعاصرة تركز على العكس على الترابط الوثيق الإرادي أو غير الإرادي بين الأجناس وعلى دور التعاضد داخل نفس. الجنس و حتى بين أجناس مختلفة لتكوين بيئة مشتركة تسمح للجميع بالعيش.
نحن لا نلتجئ للعنف لأن فينا – أو في أي كائن حيّ آخر- حب غريزي لسفك الدماء وإنما للضروريات القاهرة التي يفرضها الوضع المحدّد . وحتى إبان الركون إليه فإننا مرتبطون طول القوت بعلاقات الحب مع أطراف تساهم في بقاءنا ونساهم في بقائها.
لهذا تشجع كل المجتمعات البشرية داخلها على توسع الحب وتقلص العنف .
وعندما يختل التوازن تعيده بقوة القانون أو بقانون القوة معاقبة بشدة مرتكب العنف دون لزوم أو بإفراط تفرض غريزة البقاء اللجوء إلى السلم أطول فترة ممكنة والعودة إليه إجباريا بعد كل نوبة حرب مهما كانت قاسية وطويلة .
ثمة إذن آليات حفظ توازن وتعديل لرفع نسبة الحب دوما وتخفيض نسبة العنف ...كل هذا طبعا في تفاعل مع ديناميكية وضع محدد لا يهمه أي قوة تستعمل ما دامت تؤدي إلى البقاء وتحسين ظروفه .
من بين أهم آليات التعديل ....الفكريات ، هذه الكائنات الرمزية التي تعيش في فضاء اللغة ترصد تغييرات الوضع المحدّد وتحاول التفاعل معه تارة بالعمل على رفع مستوى العنف داخل الشخص وداخل المجتمع وتارة أخرى برفع مستوى الحب.

**تثير هذه الرؤيا إشكالية معنى الأخلاق ؟ إن قلنا أن البقاء هو اصل كل شيء فإن ما نسميه الشر هو.... خير ما بما أنه إ ستراتيجيا تلعب دورا في البقاء لا يقل أهمية عن الستراتيجيا التي نسميها الخير ...علما وأن تحديد المفهومين سيرتبط ببقاء المخاطب الذي سيعرف الخير بما يخدم بقاؤه والشر بما يخدم بقاء عدوّه والعكس بالعكس ...مع استحالة تعيين مقياس موضوعي مستقل بما أن كل الأطراف المحدّدة للمفهوم هي في صراع بقاء . لنقبل نسبية تعريف المفهومين وأن الحدود بين الخير والشرّ مصطنعة لأن من يرسمها أنانية تواجه أنانية وكل أنانية تريد المرتبة الأعلى لتصبح المرجع الذي يحدّد الاثرة ويسمي المواقف الدنيا ...أنانية*

قلّما نتسائل عن أسباب ظهور النصوص الكبرى مثل قانون حمورابي أو الكتب المقدسة في زمن محدد بالضبط وكأن الأمر مجرّد صدفة.
لكن لو درسنا هذا الظرف لاكتشفنا أن النصوص الداعية للسلام والمحبة تزامنت دوما مع تطوّر خطير للأسلحة ،مثل اكتشاف السيف المصنوع من الحديد والصلب ، أو ارتفاع كثافة المحاربين إلى أعداد ربما كانت تبدو خيالية لأجدادنا الصيادين.
لنلقي السؤال على النص ؟ لماذا و لأي غرض برزت في سنة 1948 ؟
و من بعض ملامح الرد :
بما أن التكنلوجيا كدست شعوب الأرض بعضها على بعض بصفة لم يسبق لها مثيل ...
بما أن الفضاء البيئي و الفضاء الأمني الأقتصادي يتوحد بسرعة متصاعدة ،
كان لا بد من تنظيم هذا الفضاء المشترك الذي تضيق رقعته حسب مبادئ وتراتيب مشتركة وإلا استحال التعايش بين أمم اصبحت تسكن نفس العمارة المكتظة .
صحيح كل هذا ، لكن هل كان ظهور أولى مشاريع النص في بداية العشرينات من القرن الماضي، أي بعد ارتكاب شعوب " متحضّرة" لأكبر مجزرة الصيادين، سمّيت الحرب العالمية الأولي.... من باب الصدفة .
أليس هناك ارتباط واضح بين ظهورك يا نص والفترة الرهيبة التي كان العالم خارجا منها لتوّه ....خاصة بين ظهورك وظهور سلاح تبدو أمامه كل أسلحة الماضي لعب اطفال مشاكسين ؟
هل تكون تعبيرا عن تجدّد القوة الأخرى التي تسند بقائنا وهي قوة لا يستهان بها .
نحن إذن لسنا بصدد التسمم بأحلام وردية لا ضامن لها غير شهواتنا العاجزة وإنما أمام آليات تصحيح جبارة تحاول ترتيب الوضع المحدّد حتى لا تصبح إحدى أداتي البقاء أداة الفناء ....فناء البشرية برمتها.
يعود للنفس المحبطة حيويتها وهي تفهم أن الوضع المحدّد مثل رياح المحيط الهوجاء التي تنفخ شراع الزورق التائه في اتساع المحيط ، تدفع به نحو القاع ، في الوقت الذي تدفع به نحو المرفأ.
صحيح أن سلامة الملاحة تتوقف على قليل من الحظ ، لكنها تتوقف كثيرا على مهارة الملاح .

***

قراءة في الإعلان العالمي **لتحقيق** الإنسان

تفتتح ممثلة مكتب الأمم المتحدّة الاجتماع :

- حضرات مندوبيّ الدول وممثلي الجمعيات المدنية : مرحبا بكم وشكرا على تلبية دعوتنا و تكلفكم مشاق الحضور إلى نايروبي . كما راسلناكم ، موضوع ورشتنا القيام بقراءة إفريقية لمسودة الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل. لقد تمّت القراءة الآسيوية والأوروبية في ورشات عمل موازية ولم تبقى إلا الاستشارة الأفريقية . بعدها ستصاغ الوثيقة النهائية في اللجنة الدولية المختصة لتعرض للمصادقة على الجمعية العامية في أقرب وقت كما نتمنى جميعا .

ماذا قالت المرأة ؟ حضرات مندوبي الدول ***و ممثلي الجمعيات المدنية*** ! إذن دخل أخيرا ممثلوا المجتمع المدني قاعة الصياغة . يا لحسن الحظ وحظي أنا بالخصوص لأنه لولا هذا لما حصل لي الشرف !

ينطلق النقاش سهلا .
البند الثاني: "وللطفل الحقّ منذ ولادته في اسم وجنسية".

- لا اعتراض من أحد ؟ ماشي.

آه لو واصلنا على المنوال . سنكمل قراءة المشروع بأكمله هذه الليلة. كان بالطبع تفاؤلا في غير محله.

-أنا أحتج على الفصل السابع جملة وتفصيلا، حرية التعبير للطفل ! ما هذه السخافة؟ أعيدوا القراءة جيّدا لتفهموا خطورة هذا البند.

"تتعهد الدول الممضية على هذه المعاهدة بضمان حقّ كلّ طفل قادر على تكوين رأيه الخاص والتعبير الحر" استمعوا جيّدا للفصل السابع مكرر فهو أخطر :"للطفل حق التعبير ويتضمن هذا الحقّ حرية البحث وتلقي المعلومات و الأفكار من كل نوع "

صرخ الرجل كأنه في محفل خطابي لمعركة انتخابية :أي طفل قادر على تكوين أرائه الخاصّة؟ ومتى كان للطفل آراء خاصة ؟ إن الطفل الإفريقي مطالب بالإنصات إلى الكبار، مطالب باحترامهم. ليست له أفكار خاصة به إنما أفكار الجماعة. ثم ماذا عن السابع مكرر؟ تلقّي المعلومات من كلّ نوع ! هل للطفل الإفريقي الحقّ في تلقي المعلومات الجنسية ؟هل هذه مصلحته؟ هل نبيح له البحث عن الأفلام الخليعة ومشاهدتها بحجة حقه في حرية الرأي ؟ لا يا إخواني يجب رفض هذا البند جملة وتفصيلا. أليس هذا البند إخوتي أخواتي التعبير الصارخ عن المركزية الغربية؟ لا يمكننا نحن الأفارقة أن نقبل هذا التعدّي على ثقافتنا.

ثم جلس الممثل المحترم يرتجف من الغضب لا يعرف كيف يصفي حسابات قديمة مع كل الذين ضيقوا عليه الخناق أهانوه على مرّ مئتي ألف سنة .

وحول طاولة الغداء قالت ممثلة دولة الزائير والغضب يكسو ملامحها:

- بربّك هل لاحظت: أعطونا ستون دولارا فقط بدلا يوميا . أيعقل هذا؟ يجب ألا نرضى بأقل من مائة.

قلت مغيرا الموضوع : قضينا نصف يوم في بند واحد والمشروع فيه خمسين . الظاهر أننا سنقضّي الشهر في هذه المدينة .

قال ممثل دكتاتورية نيجيريا: ولم لا. أيستكثرون علينا شهرا وهم يدبّجون هذه الوثيقة منذ ثلاثين سنة؟

كان واضحا أن المؤتمر فرصة للهروب من زوجة قديمة أو من رئيس قسم ثقيل الظل.

وبعد انتهاء الجلسة المسائية خرجنا لحديقة النزل حيث دونت الملاحظات الآتية : ينهض السادة والسيدات المشاركون بتكاسل من كراسيهم في اتجاه البوفيه الضخم شأنهم في هذا شأن السوّاح القادمين لرحلات "السافاري ". يختارون ما يروق لهم من أنواع السلطة و اللحوم و الأسماك وجراد البحر والفواكه

والمرطبات...... يعودون بها إلى طاولاتهم الناصعة البياض، مواصلين أحاديثهم المرحة، والخمرة المعتقة أو الجعة المثلجة تملأ الكؤوس...... لما ينتهي الذهاب والإياب من والى البوفيه ،تشعل السجائر الأمريكية الصفراء الطويلة . تتكدّس على الطاولة أصناف الأسماك وقطع اللحم المتناثرة وما بقي من مختلف المرطبات وبعضها لم يمسّ.

تتسع حدقة أطفال يرابطون منذ بداية العشاء خلف الأشجار. (يقال أنهم يصطادون كالأرانب في البرازيل)...... إنها لحظة هجوم خاطف يبدو منسّقا. يباغت العدوّ (طاقم النزل الفخم فالشماليون الشقر لا يتغذون بلحم الأطفال السود خارج أوقات العمل) .تتدافع الأيدي الصغيرة تجمع في سرعة محمومة ما بقي على الطاولة. لا شكّ أن المرطبات ستمتزج بالطماطم وأشلاء السمك واللحم في الأكياس الجاهزة . أي عجينة غريبة سيتعشى بها الأطفال هذه الليلة ؟ تتدافع الأرجل الحافية الصغيرة نحو النجاة قبل أن تتهاوى اللّطمات على الرؤوس. برافو للسرعة والتنسيق وشهية طيبة يا أطفالي ولو أنكم أفسدتم عليّ وعلى الكثيرين بقية السهرة . وفي هذه الليلة الظلماء عديمة البدرستلتصق الأجساد الصغيرة ببعضها البعض هنا في نايروبي مثلما تلتصق على أرصفة أكابولكو وبومباي وصاوبولو وليما ولاباز ولاقوس، بحثا عن الأمن والنوم، بانتظار تجدّد الجوع والتسوّل والاغتصاب في ظل الخوف من رصاصة طائشة هؤلاء الأطفال المتدافعين ببقايا عشائنا عيّنة من مئات ملايين أطفال هذا العالم، لا يجسّمون فقر أمم الجنوب الجائعة أو احتداد أزمتها بقدر ما يجسّدون الشرخ الهائل الذي يشق العائلة البشرية ونحن هنا نتشاجر في هذا الجوّ الفاخر الفاجرحول حقّ الطفل في الرأي ! هل يجب أن اضحك أم أن أبكي ؟

ربما لم اكتب هذه الأسطر سبعة عشر سنة بعد ذلك اللقاء إلا للتخلّص من حيرتي و خاصة من مشاعر الذنب وأنا احسب أن تكاليف بطاقة السفر والنزل كانت كافية لتغيير حياة طفل تائه في شوارع المدينة الغارقة في فقر مشين ووحل مطر حزين .

وتلك الليلة ألح علي السؤال : ماذا أفعل هنا بالضبط ، ماذا نفعل كلنا هنا، بل حتّى من نحن ؟

بداهة نحن جملة من ممثلي الدول ، من مرتبة جدّ متواضعة، وممثلي جمعيات مدنية، أحيانا لم يسمع بها أحد حتى في بلدانها. نحن رجال ونساء من شمال الصحراء وجنوبها ،جمعتنا بيروقراطية الأمم المتحدة لنعطي في وثيقة رأيا كلنا نعرف أنه لا يساوى قلامة ظفر (ولو أن فينا من كان يموّه على نفسه بتصوّر العكس).
قلما ننتبه لكون صورة العالم التي نحملها هي من فعل شبكة محلية من الأدمغة المتعاقبة جيلا بعد جيل بإنتاجها من المعطيات الدينية و الفنية و العلمية و التقنية . لا يهم أن يتمزق جزء منها لأنها تجدّد دوما خلاياها و تعيد تكوينها بعد كل حادث تاريخي يؤدي إلى عطب خطير فيها . إنما الخطر في عزلتها عن بقية أجزاء الشبكة الكبرى فلا تضخ فيها حيويتها ولا تمتص منها كل ما فيها من زخم وعطاء.

وبتطور التاريخ نشاهد ارتباطا متصاعدا لشبكات الفكر كما نرى تصاعد ترابط شبكة المواصلات البرية والبحرية .يكتسب النص أهميته أيضا لا من كونه نتاج شبكة من الأدمغة أدمجت كثيرا من الشبكات المحلية ، لكن من كونه أداة إضافية لتكوين الشبكة العظمى وتمتين روابطها وتمرينها على العمل المشترك.

نعم كل هذا صحيح . لكن ثمة شيء أهمّ... قد يكون هو الآخر متابعة سخرية التاريخ التي حرّكت الأيادي التي كتبت النصّ .
آه النصّ وإشاراته المقتضبة والمتناثرة لموضوعنا : " وللأمومة *والطفولة* الحق في المساعدة والرعاية..... ولجميع *الأطفال* حقّ التمتع بنفس الحماية الاجتماعية سواء كانت ولادتهم في إطار الزواج أو خارجه .. الحقّ في التعليم ويجب أن يكون التعليم في مراحله الابتدائية والأساسية على الأقل بالمجّان."
قال الرجل الرسمي البالغ الأناقة يواصل هجومه على البند السابع والبند السابع مكرّر.

-لا بدّ من وثيقة إفريقية تحترم فيها خصوصياتنا الحضارية ولا تداس فيها قيمنا بحجة العالمية الوهمية التي يعلم الجميع أنها الاسم المؤدّب للمركزية الغربية.

- نحزم إذن حقائبنا ونترك هذه الوثيقة بما أنها تخصّ العالم لا قارتنا .

- طبعا لا، نفرض كل ما يمكن فرضه ونطبعها بطابع خصوصياتنا نحن الأفارقة.

- لماذا تلوم الغربيين إذا أرادوا حشر بضاعتهم. والحال أن هذا ما تحاوله أنت.
ضحك الرجل .قال : إنها قواعد اللعبة لكن الملاعين أقوى منّا. مهلا . الخاصية الأولى لميزان القوى إنه قابل للتغيير و سيتغيّر طال الزمان أو قصر.

يتواصل الاجتماع والتعدّي على الأعصاب المشدودة المرهقة . يصرخ أحدهم ملوحا بورقة العمل : " تضمن الدولة الممضية على هذه المعاهدة احترام حق الطفل في حرية المعتقد و الضمير و الدين ".

هل يعني هذا أن للطفل حق اعتناق ديانة غير ديانة أهله ؟ هل نقبل منه الخروج عن دين آباءه و أجداده إذ عنّ له ذلك ؟ هذا النص مرفوض جملة و تفصيلا . إنه تعدّ صارخ على ديننا الحنيف والردة عندنا لا تواجه إلا الموت .

يا إلهي كم من وقت سنضيّعه في تبادل الحجج حول هذا الموضوع، ناهيك عن الخصومات المتعددة الأخرى التي تنتظرنا عند وصول العقوبات الجسدية في الفصل الثامن و التبني في الفصل الحادي عشر.

قالت الممثلة الأوغندية و كانت القاعة شبه فارغة حيث خيّر المندوبون القيلولة و السباحة:

- ختان البنت ! ختان البنت ! لا نسمح من الغربيين إلا عن هذا الموضوع. هم يقصدوننا بالفصل الثامن مكرّر عندما يتكلمون عن حماية الطفل من كل نوع من أنواع الإساءة الجسدية أو النفسية . ليهتموا بنسبة اغتصاب الأطفال عندهم .

قلت : هذا موضوعنا أيضا . إنه موضوع كل المجتمعات .على كلّ يجب أن يكون التنصيص على تحريم و تجريم ختان البنت أوضح بكثير مما هو في النص.

- ماذا تعرفون أنتم العرب عن تقاليدنا و عاداتنا نحن الأفارقة ؟
- أفريقيا كلمة عربية و نحن العرب نصف سكان القارة .
- نعم والكلّ يعرف باعكم الطويل في استرقاق الأفارقة .
- أرجوك يا سيدتي .
- أرجوك أنت يا سيدي ...نحن هنا في قارتنا ولا أحد من الغربيين أو من العرب قادر على أن يملئ علينا كيف نربي أطفالنا.
- كيف يمكن إتخاذ مثل هذا الموقف وأنت إمرأة ولا تمثلين دولة استبدادية ونظام عفن وإنما جمعية مدنية تهتمّ بأطفال الشوارع !

- من فضلك يا سيّدي ...

الخ ....

- اللعنة . إنها نفس الخصومات التي وصفها همفري وكأننا نحن نفس الأشخاص الذين تخاصموا حول كل نقطة وفاصلة. مجدّدا ما مغزى هذه الوثيقة التي مازلت تتعثّر من لجنة إلى أخرى، من بلد إلى آخر، من قارّة إلى أخرى منذ قرابة الثلاثين سنة ؟

قالت المضيّفة للندوة : سيداتي سادتي أشكركم باسم المكتب الإقليمي على ما قمتم به من عمل رائع طوال نهار الأمس . نواصل هذا الصباح النقاش. "تحدّ حرية الرأي هذه بجملة من القيود على أن تكون ضرورية ومفروضة بالقانون أي ضرورة احترام حقوق وعرض الغير والمحافظة على الأمن الوطني والنظام العام والصحة العمومية والأخلاق الحميدة"

يتعالى صراخ ممثلي الجمعيات المدنية . قلت متهكّما: ستكون دائما حرية الرأي بالصدفة مناقضة إما لمصلحة الأمن الوطني و للنظام العام وإما للأخلاق الحميدة أو للصحة العمومية، لأن من يحدّد مقاييس التعدّي على النظام العام ليس الطفل ماسح الأحذية وإنما الدول التي تدفع راتب الشرطي الممسك بالهراوة لتطهير الشوارع من كل ما من شأنه تهديد هذا الأمن الوطني العزيز على قلوبنا جميعا. إنها نفس اللّعبة القديمة. يعطون باليمين ويسحبون باليسار .

تفرض الجمعيات المدنية شطب الموانع و الحواجز و القيود دون أدنى وهم حول حظوظها في تغيير نص ّ كنا نعلم أن صياغته النهائية تخضع لاعتبارات لا علاقة لها برأي لجنة إفريقية فرعية دعيت لتمرير وهم عالمية التشاور الديمقراطي.

يعاودني السؤال اللعين مرّة أخرى وقد تفاقم شعوري بالإحباط والتفاهة والعبثية : ماذا نفعل كلنا هنا؟

كانت الإجابة يومها : هذا اجتماع لجنة مختصة مكوّنة من العاملين في ميدان حقوق الإنسان لإبداء مجرّد رأي في مشروع وثيقة المعاهدة العالمية لحقوق الطفل.

لكن الإجابة اليوم بعد مرور كل هذه السنوات أننا كنا جملة الرجال و النساء، الرسميين وغير رسميين ، المنتمين إلى مختلف الثقافات و التوجهات السياسية ، كلّفتهم الصدفة والضرورة بالمساهمة في مواصلة كتابة نصّ ليس صنما نحت مرّة واحدة وخرج للوجود كاملا ومكتفيا بذاته وإنما نصّ- جذع يرمي جذوره في عمق نصوص قديمة و تتفرّع عنه ما لا يحصى من الأغصان المحملة بشهي الثمار.
نعم إن ما جمعنا تلك الأيام لجنة فرعية من لجنة ثانوية هي الأخرى جزء من لجنة تنتمي لمجموعة لا تحصى من لجان ما انفكت منذ أكثر من نصف قرن تدبج المعاهدات والمواثيق والبروتوكولات بخصوص العنصرية ، اللامساواة بين الجنسين ، التعصب , الفقر ، الإبادة الجماعية , الرق , السخرة , الدعارة , السجناء , التعذيب , اللاجئين , الحرب، ظلم استغلال الموارد الطبيعية , تكبّر ثقافات على أخرى... الخ ...كل هذا لأن النص لم يكن سوى المدخل والتلخيص لمشروع كتاب قد لا ينتهي نصه يوما، هدفه سنّ قوانين وقيم عالم واحد لا يمرض منه عضو إلا وتداعت له بقية الأعضاء بالسهر والحمّى .
ها نحن أمام نص مفتوح شابّ، خصب لم ينجب كامل ذريته وسيواصل الولادة .

نحن أمام نص يخطّط لمشروع إنسان ..لمشروع إنسانية .

آه كم نودّ الإيمان بوجود شيء اسمه الإنسان وبقضية اسمها تحقيق الإنسانية ، لأننا نبحث عن قضية ننخرط فيها تعطي للتضحيات القديمة والآتية معناها. لكننا في نفس الوقت شكّ وحذر ومرارة وسخرية من كل القضايا وما يسندها من مفاهيم فضفاضة. إنّه حال من لدغ من نفس الجحر ألف مرّة ومع هذا ما زال مصرّا على البحث في غار الأفعى عن شيء هامّ لا يعرف ما هيته .

فهل ثمة في هذا المشروع ما يعيد لنا حماس الشباب دون ما يصحبه من سذاجة وسرعة انطفاء اللهب المقدّس ؟

* **

المشروع العظيم

السطور الأخيرة من الديباجة.

*"فإن الجمعية العامة : تنشر على الملأ هذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بوصفه المثل الأعلى المشترك الذي **يجب أن تبلغه كافة الشعوب و كافة الأمم**، كما يسعى جميع أفراد المجتمع وهيئاتهم واضعين هذا الإعلان نصب أعينهم على الدوام , ومن خلال التعليم و التربية إلى توطيد احترام هذه الحقوق و الحريات , و كما يكفلون بالتدابير المطردة الوطنية و الدولية للاعتراف العالمي بها و مراعاتها الفعلية".*

لا يهم في هذا الموضع من التحليل ضخامة مشروع يتوجه **لكافة** الشعوب والأمم يحدد لها **المثل الأعلى المشترك** وهو الأمر الذي لم يعرف له نظير في تاريخ البشرية .

لنقصر مشاغلنا في تفحص أهداف المشروع وهي ضمان :

حق كل البشر في الحياة والحرية. ...في الحرمة الجسدية ...في الشخصية القانونية ...في المساواة أمام القانون ...*في المحاكمة العادلة ...في الحياة الخاصة.... في التنقل الحر..' في الجنسية ...في تاسيس عائلة* ...في الملكية ...في حرية *التفكير والضمير والدين...في حرية الر أي والتعبير* ....في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية... *في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة .... في الضمانة الاجتماعية* ...في العمل بشروط عادلة ومرضية و حق الحماية من البطالة ... *في الراحة.... في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية ...في التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ...في التأمين في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادة الإنسان ...في التعليم والتربية.....في التفاهم والتسامح بين الشعوب والجماعات العنصرية والدينية ...في السلام... في الاشتراك في حياة المجتمع الثقافية ....في الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي.......*في نظام اجتماعي ودولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاما ....

..... في قانون لا هدف له غير الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها لتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي ....

نتوقف هنا لحظة عن الكتابة لالتقاط الأنفاس ، وربما للشروع في الحلم الرائع أو لكتم الضحك بالنسبة لمن لهم مواقف مسبقة غير التي تحركنا .

وحتى تلتزم القراءة بالنزاهة التامة التي هي شرط نجاحها كما رأينا ، لا بدّ من تعرية كل المواقف المسبقة وهي لا تخرج عن طرق التفكير المعهودة التي توجد وراء قبول أو رفض أي مشروع منها أساسا:

السذاجة : ستتحقق كل هذه الحقوق لأنه لنا فيها الحق .

الإيمان: ستتحقق كل هذه الحقوق لأن هذا ما قاله الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

الطوباوية : ستتحقق كل هذه الحقوق لأن الإنسان كائن عاقل وبصدد التقدم والتحضّر.

الرجم بالغيب : ستتحقق كل هذه الحقوق لأن هذا ما وعدتنا به الحياة .

النصب والاحتيال : ستتحقق كل هذه الحقوق لأن القراءة العلمية الصحيحة للتاريخ تظهر بما لا جدل فيه أن بداخله قوانين موضوعية من حسن حظكم أنني اكتشفتها لكم تؤكد كلها حتمية الخ ...

أما بخصوص المواقف المسبقة التي تتحكم في رفض المشاريع فمنها المبنية على :

البراجماتية : لو حسبنا ما سيتكلفه تمكين كل إنسان من المستوى المعيشي الذي يتحدث عنه المشروع ، وهو لحد الآن المستوى الذي حققه الإنسان في البلدان الغنية، لما كفت كل المعادن وكل المياه وكل موارد الطاقة التي توجد على سطح الأرض .

العلمانية : هل حسبتم عدد مشاريع الخلاص التي حفل بها التاريخ وكيف انتهت كلها للتشريع لعكس ما كانت تدعو إليها . سيكون من الطريف رؤية محاكم حقوق الإنسان تصدر أحكام السحل والجلد والحرق حيا للدفاع عن قيم العاشر من ديسمبر الخالدة .
الشك المزمن : من أين لكم هذه الأحلام السخيفة والحال أننا مقدمون على أزمة بيئة وفضاء حيوي وطاقة ستؤدي مباشرة لحرب " الحضارات" وبعدها مباشرة لحرب الأحياء وحرب القرى داخل كل بلد.
السخرية : لكن تحقيق مثل هذه الحقوق قد يطيل في عمر الجنس والحال أن انقراضه هو المطلوب ليستريح منه الكوكب ويسترجع عافيته .
لا ننسى أن المواقف المسبقة هي دوما فكر في الظاهر **ومزاج** في الأعماق.
هي تصب كلها إما في خانة التشاؤم أو في خانة التفاؤل.
لكننا من أنصار الموقف الوسط الذي سماه إميل حبيبي **التشاؤل** ويمكن تعريفه بأنه الموقف الذي يرى نصف الكوب الفارغ الذي يراه المتشاؤم في نفس الوقت الذي يرى فيه نصف الكوب الملآن الذي يراه المتفائل ...أي أنه يعتبر بكل بساطة وبكل موضوعية الوضع الحقيقي للكوب بما هو بصفة نهائية نصف فارغ ***و*** نصف ملآن.
كيف يمكن لهذا المزاج "التشاؤلي " أن يثري قراءة النص ؟
هو سيبقي مثلا الباب مفتوحا أمام فشل ذريع للمشروع لأنه لا وهم له حول تدخل قوى موضوعية جبارة تقودنا " حتميا" نحو المدينة الفاضلة . كما لا وهم له حول تدخل قوة غيبية تعنى بمصير البشر أكثر مما تعنى بمصير النمل والخنافس والشجر، مثلما لا وهم له حول غلبة التطبع على الطبع في إنسان المستقبل .
لكنه سيبقي أيضا الباب مفتوحا أمام إمكانية تحقيق المشروع كليا أو جزئيا ، لإدراكه أن الإنسان كائن قادر على تصور مصيره والتخطيط له وحتى على تحقيق المعجزات.
يضاف لهذا أن فكرة الفشل الذريع تنهي القراءة ونحن نريد متابعتها لوعينا أنه ما زال لها ما تستكشف .
نواصل إذن القراءة تتأمل في مكونات المشروع وكلنا وعي أن مزاجنا المتشائل هو الذي يوجه أفكارا لا ندّعي أنها اكتشافات ترتكز على منهجية لا تعرف الخطأ.
المهمّ أننا أمام مشروع إلزامي بما أن النص استعمل فعل يجب في جملته محملا كافة الشعوب وكافة الأمم مسؤولية تحقيقه. لكننا لسنا أمام مشروع عملي كالذي عودتنا عليه السياسة أو الاقتصاد أو الصحة العمومية أي بأهداف واضحة ، معقولة ،قابلة للتقييم بعد زمن محدد من أعمال مضبوطة.
فهذا مشروع له أهداف ضخمة تكاد تدخل في باب المستحيل ومن ثمة وصفها بأنها "مثل أعلى" . كذلك ليس له زمن محدّد لبلوغ أهدافه . أما المكلفين بإنجازه فهم من الإبهام والغموض والتعميم بما لا يسمح برصد أي مسئول فعلي يمكن أن نحاسبه يوما على تعثّر أو تأخر أو سوء تطبيق.
ها قد تعطلت أدواتنا المعتادة لتحليل المشاريع والحكم عليها .
لنذكّر مرة أخرى أن موضوع القراءة ليس قدح المشروع أو مدحه ، وليس صياغة تفاصيل تنفيذه من منطق تصفيف التمنيات التي يعهد لمجهول بتنفيذها . فكل هذا عمل عبثي من الناحية الفكرية وعديم الجدوى من الناحية العملية. إنما مساهمتها في تفحّص شروط التحقيق بأكبر قدر ممكن من التجرّد والنزاهة لا نخلط بين رغباتنا وتحقيقها السحري .
حوصلة موقف النص قبل الانطلاق في تفحص حظوظ نجاحه.
هو يعترف أن من إمكانيات الإنسان قبول وممارسة كل أصناف العنف وذروتها التعذيب وبقية الانتهاكات . الاستنتاج الأول : هناك جملة من الاستعدادات الطبيعية الفطرية عنده لارتكاب كل الموبقات .
الاستنتاج داخل الاستنتاج أن هذا الإنسان ليس بحاجة إلى حقوق و إنّما إلى كبالات و قفص من حديد .
السؤال العرضي : أيمكن لأي مشروع تحرري و بالأساس المشروع الجديد أن ينجح و الإنسان بمثل هذه الاستعدادات ؟
لكن النص يقول من جهة أخرى أن من إمكانياته رفض كل تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة واستنكار التعذيب والسعي لتمتيع كل إنسان بحقوقه.

الاستنتاج داخل الاستنتاج : للإنسان استعدادات طبيعية فطرية تجعله الدواء الوحيد للداء .
السؤال العرضي : لماذا لم يتحقق المشروع لحدّ الآن بمثل هذه الاستعدادات؟
رأينا أن المخرج من المفارقة هو القول أن هناك وعي بتعاظم الأخطار التي يمثلها ما وصل إليه الوضع المحدّد من ارتفاع منسوب العنف إلى درجة تتطلب تدخل حازم وحاسم للحبّ حتى لا يفني الجنس .
ليكن .
والآن كيف سيتقدّم تحقيق المشروع وقد اتضحت لنا كل الحوافز وكل الموانع .
***

العقبة الأزلية

"في كل مكان يحلم الإنسان بالحرية وفي كل مكان تراه يرسف في الأغلال "

روسّو

المكان : قصر للمؤتمرات و الموضوع المطروح للنقاش : كيف نفرض حقوق الإنسان على أنظمة وعصابات وأشخاص تهيكلوا وهيكلوا كل شيء حول كل مظاهر ومشتقات العنف ويتصدون بالحديد والنار لكل ثورة انفجرت لاستحالة مواصلة تحمّل ما لايطاق من الجوع أو من الإذلال .

ومما دوّنت من النقاش أتأرجح بين التهكم على الذات والتهكم على العالم :

- ما العمل تجاه أنظمة دموية ظالمة ترفض الاعتراف بحقوق الإنسان ؟ ما العمل عندما يتضح بالكاشف أن كل الوسائل السلمية غير كافية، أن هذه الأنظمة لا تستجيب للضغوطات المعنوية ؟ كيف نواصل الحديث بنفس الطريقة الطوباوية التي طبعت أعمالنا لحدّ الآن والدم لم يجف بعد على اسمنت ساحة تيان آن مان (النمساوي منظم الندوة).

تيان آن مان !

إنها ساحة تدهشك باتساعها في كل الاتجاهات. تقف مشدوها أمام كل هذه المبالغة المعمارية وأمام جحافل الخلق المتدافعة في أرجائها.
يحدها من الجهة الشمالية حائط أحمر ضخم يتوسطه باب مدينة بأكملها وتعلوه صورة القائد- النبي.
وإن عبرت الباب يوما ستتخطى قناطر صغيرة لتجد نفسك داخل عاصمة جنكيز خان المحاطة بالأسوار والمسماة المدينة..... الحرام . ومن الجهات الثلاث الأخرى تحدّ الساعة الضخمة بنايات عريضة ومهيبة تشكل أحسن رمزلسلطة القوة .
وفي هذه الساحة تعوّد القائد- النبي أن يستعرض مرة في السنة المؤمنين بإنجيله وأن يلوّح لهم بيده من أعلى شرفة الحائط الشمالي ليطمئنهم على أنه ما زال ساهرا على شؤون الرعية وأن عليهم ألا يخشوا أحدا إلا هو. تفتعل الرعية السمع والطاعة إلى يوم الثورة وما أجمل الثورة في فصل الربيع .
الزمان : أواخر شهر ماي –بداية شهر جوان 1989
يوم الغليان : تبدأ المظاهرات الطلابية وتحتل الساحة.
يوم الغضب : تصل المظاهرات ذروتها ويتجمع قرابة نصف مليون بيكيني باستمرار في وسطها .
يوم الإضراب : يبدأ الطلبة إضراب جوع.
يوم اللقاح : تنتقل المطالبة بالحرية إلى مدن الصين الأخرى ،خاصة شانجهاي حيث يتظاهر ما لا يقل عن مليون نسمة.
يوم كسر العزلة : تخرج مظاهرة ثانية في نفس الضخامة ببكين للمطالبة بالحريات الفردية والجماعية المضمنة بالنصّ .
يوم التحدي : يدعو الوزير الأول الجيش للتدخل . يتصدى السكان للقوافل العسكرية . يكتشف العالم مشدوها صورة رجل أعزل يقف في وجه طابور دبابات لا تملك إلا التوقف أمامه .
تغزو الصورة شاشات العلم . تصبح رمزا لا ينسى للمتمرد الأزلي الذي لا يملك أمام القوة العمياء التي تنكر كرامته وتتنكّر لحقوقه سوى يديه العاريتين .
يوم العسكر : متى كان لرعايا ابن السماء حق تقييم الإمبراطور ومراجعة إرادته ؟ تعلن الأحكام العرفية في بكين لإعادة الأمورإلى نصابها .
يوم النصر الأول : يتراجع الجيش خارج حدود المدينة أمام مظاهرة صاخبة جديدة احتجاجا على هذه الأحكام..
يوم الربّة : ينتصب التمثال وسط ساحة تيان آن مان .
يوم الزور : تصطنع مظاهرات هزيلة ومصطنعة لتأييد النظام .
يوم المواجهة : يفشل الجيش في استعادة مواقعه سلميا .

يوم المجزرة : ومن الشهادات المتفرقة التي أوردتها الصحف هذه المختارات:
" إنها الفظاعة المطلقة. لقد تفجر العنف العسكري وكأنه ينوي في شتى مراحل سيناريو مكيافيلي إرهاب الإنسان المدني بالقوة الفجة التي أدى اختفاؤها إلى تصاعد الشغب . انتشرت أنباء استعمال الأسلحة الآلية تردد البعض في قبول الحقيقة . لم يعد الجيش يفرض نفسه بالبنادق وإنما بالأسلحة الثقيلة . صرخ الجمهور الأعزل في وجه العسكر : أيها الفاشيون، فأجابهم الجنود بوابل من الرصاص. حتى في البلدان الفاشية يطلقون النار في الهواء لتفريق المتظاهرين قبل مهاجمتهم . لقد هاجمت أربع دبابات في الصباح الباكر الساحة ومرت فوق خيام الطلبة الفارين لكن أيضا على ما يبدو فوق خيام ملآنة . لقد جنوا . إنهم يطلقون النار على كل ما يتحرك. دوّت طيلة ساعات عديدة طلقات الأسلحة الثقيلة وربما المدافع. وفي الخامسة صباحا أذّن هدير الدبابات بعودة الطاعة بعد أطول ليلة عرفتها عاصمة إمبراطورية الوسط " .
عن وكالات الأنباء:" كما دمّر النصب التذكاري الذي أقامه الطلبة في ساحة تيان آن مان بالضبط في مواجهة باب المدينة الحرام ".
النصب ؟ إنّه الذي رفع وسط الساحة الثائرة ..... ربة الديمقراطية . كان علوّه سبعة أمتار لونه ناصع البياض وله ملامح امرأة ، صنعته الأيادي المتبتلة في مدرسة الفنون التشكيلية و خرج منها محمولا على دراجة حقيرة يقودها طالب مغمور وسط هتافات وشعارات مئات الآلاف ثمّ سحقته العجلات الحديدية للدبابات لم تترك منه إلا كدسا من البلاستيك الأسود.
ماتت ربة الديمقراطية لحظة ولادتها مخلفة في قلوب صانعي الآلهة حسرة كل أبوين توفي لهما مولود وضعت فيه آمال أجيال المستقبل .
أما تفاصيل الليلة الرهيبة فلم تتوفّر لي إلا بعد أكثر من سنة .
وقفت في مؤتمر للسلام باوسلو صيف 1990تقرأ علينا قصائد عن الصين المكبلة .
قلت لها أريد قصائدك ولو أنني لا أفهم الصينية . ضحكت ثم بكت .كانت تجلس بكل بساطة على الأرض في قاعة المؤتمر و الأطفال الشقر حولها يحدقون فيها مصغين لها والفم مفتوح وكأنها جدة تروي قصصا لا تصدق ، لكنها قصص وقعت في ساحة اسمها تيان آن مان.. أحقا هذه البنية الجميلة الملتهبة حماسا هي شاي لنج طالبة علم النفس ذات الثلاث وعشرين ربيعا التي قادت أضخم مظاهرات بكين ؟
قالت يومها تكمل التفاصيل الغائبة :
" قام الفوج الأول من الطلبة للتصدي للدبابات . وقفوا لا سلاح بين أيديهم سوى حبهم للحرية . حصدت الدبابات الفوج الأول . كانت ليلة جميلة للحياة و ليلة أجمل للموت . وقف الفوج الثاني وحصدت الدبابات الفوج الثاني . تقدمنا للموت لأنها كانت ليلة ساخنة كليالي الحب ولأننا آمنا بأنها ليلة العمر لنخضب بدمائنا أرض الصين حتى يولد من ثراها عالم جديد .حصدت الدبابات الفوج الثالث و اعتلت أكواما من جثث الرفاق . أما دخول السرية وخروجي من الصين بعد سنة كاملة من الفرار فقصة أخرى " .

وفي قبو القصر الأثري تواصل النقاش السريالي وكلنا مسكونين بهاجس تيان آن مان .

- لا يجب تفادي الإشكالية بالمواقف الطوباوية . أليس من السذاجة أن ننتظر من نظام سياسي و اقتصادي مهيكل على العنف البارد و الساخن ،الداخلي و الخارجي، بأن يضمن الحرمة الجسدية و الحياة و الكرامة و الحياة الشخصية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية للناس ؟ أليس هذا كمطالبة النمر بأن يكون نباتيا و انتظار الحليب من الثور؟ (الفرنسية)

عمّ الصمت و كان من الواضح بالنسبة لهؤلاء الرجال و النساء القادمين من أكثر من خمسين بلدا

و الذين واجه أغلبهم العنف الأعمى للأنظمة الاستبدادية بالوسائل السلمية أن الرد لن يكون سهلا .

كيف سيخرج كاتب النص وقرّاؤه من المفارقة الجوهرية ؟

قلت مستفزّا كل هؤلاء الناس المصممين من البداية على رفض العف، مهما كان مأتاه حسب التعبير البليد الذي كتبته ألف مرة في كل بيانات الرابطة التونسية لحقوق الإنسان : فرض العرب الإسلام بحد السيف

و كانت الشيوعية في أفواه بنادق الروس . أي أمة مختارة قدر لها أن تفرض أوامر و نواهي مشروع العالمي . و إن لم تتواجد الأمة و القوة فهل من مستقبل ممكن إذ ستكون السابقة في التاريخ أن تحقق وضيفة دون أداة ؟

قال الرجل المحروم من جنسيته منذ عقود يفتعل السذاجة : لماذا لا يكون لمنظمات حقوق الإنسان جيش لفرض حقوق الإنسان ؟

ضحك الناس من النكتة ضحكة صفراء.

- هل يمكن أن نتصور لحظة أن وثيقة حقوق الإنسان الفرنسية (أو الدستور الأمريكي) كانت ترى النور بدون عنف ؟ (الهندية)

- متى استطاع العنف أن يبني نظام عادلا ؟ أليست محاولة استعماله لبناء نظام عادل بمثابة بناء منزل وحجر الزاوية فيه قنبلة موقوتة ؟ (الإسرائلية)

- ألا يمكن أن نقول أن الدولة التي ترفض حقوق الإنسان تنفي شرعيتها وبالتالي فمن الأخلاق مواجهتها بالعنف ؟ (الألماني)

- لكن ما ذنب الشرطي المسكين أو الجندي العادي الذي يذهب ضحيته ؟ ألا نحرمه من أهم حق من الحقوق التي ندافع عنها باسم حقوق الإنسان المجرد ؟(الايرلندي) .

- هل يمكن أن نتصور فضائع ستالين بدون تقديس نظرية العنف الثوري واعتباره المدخل الإجباري نحو المدينة الفاضلة ؟(البولوني) .

- لا جدال أن العنف فعال و لا فعال في آن واحد . أليست القضية في حسن الاستعمال و حسن التوقيت ؟ (الارلندي)

- المهم تحديد مقاييس العنف المشروع ، فهل لنا أن نحددها هنا ؟(الأمريكي)

- أليس مذهلا أن نسمع مدافعين عن حقوق الإنسان يدافعون عن العنف ؟(الهولندي)

- ألم يقتل غاندي و مارتن لوثر كنج وقبلهما المسيح بالرغم أو حتى لأجل المناداة بتطليق العنف. كيف نقبل بأمر كهذا ؟ (الجنوب الإفريقي)

- هل من المعقول أن نشرع للإرهاب في مجمع كهذا ؟(اليوغسلافية)

- ألم يكن من الأجدى سحق هتلرفي 1936 و توفير حياة 50 مليون نسمة؟(البولندي)

- هل يمكن أن نرفض لأحد حق الدفاع عن النفس ؟(الألماني)

- أو ليس الإرهاب سلاح من لا سلاح لهم ؟ (الفلسطيني)

- لكن الإرهاب الأبرياء قبل المذنبين ؟(الاسرائيلية)

- أليس معروفا أن ما يسميه البعض إرهابا يسميه آخرون حركة تحرر ؟(الفلسطينية)

- ألم تبدأ جل حركات التحرر بعمليات تصنفها اليوم وسائل إعلام الغرب كارهاب ؟(اللبنانية)

- الإشكالية أن العنف الذي تواجهه الحرية لم يعد عنفا كلاسيكيا. أو ليس أخطر أنواعه اليوم عنف الشركات العالمية , عنف صندوق النقد الدولي , عنف الديون التي لا نستطيع دفعها (النيجرية)

- أنا لا أختار العنف و إنما يختاره الآخر . هو الذي يتحمل مسئولية موت الشرطي والجندي لا أنا

(الألماني)

- لا بد أن نكون واقعيين . ما هو البديل لتغيير الأوضاع المتعفنة إن نحن رفضنا العنف باسم مثاليتنا البرجوازية ؟ هل بوسعنا تغيير الدولة الاستبدادية بغير العنف (الأنقليزي)

- ألم يكتب المشرع العالمي " إذا أريد للبشر أن لا يضطروا آخر الأمر إلى اللياذ بالتمرد على الطغيان " أو ليس في هذا القرار الواضح بشرعية التمرد ضد الطغيان و الاضطهاد إذا اضطر إليه الإنسان اضطرارا ؟ (المغربي)

- أين يبدأ هذا الاضطرار الذي يسمح بالعنف الشرعي حتى بالنسبة لمناضل حقوق الإنسان ؟(التركية)

ننصرف كلنا في حالة وجوم لا تنذر بنوم سهل خاصة وأن الكثيرين سيواصلون مثلي تسقط أحداث تيان آن مان من كل إذاعة تبث على مدار الساعات الثقيلة .

تبقى المفارقة قائمة بلا حل تواجه مشروعنا مثلما واجهت كل مشاريع الخلاص السابقة : إن واجهت العنف بغصن الزيتون واجهك بالرمح وتواصل الوضع البغيض . إن واجهته بالرمح تواصل مسلسل الفظاعة ، نأمل دوما أن معركتنا المشروعة هي آخر و أعدل الحروب، لكن شيئا ما شبيه بلعنة أبدية سلّطت على الجنس البشري يعيد إنتاج ما اعتقدنا التخلّص منه لنبقى ندور في نفس الحلقة المفرغة .

يبقى المشرع العالمي صامتا بخصوص ظروف اللياذ إلى التمرّد كأنه يخشى الإفصاح بموقف لا يستقيم إن قبل بالعنف ولا يستقيم برفضه كليا.

هو يكتفي بوضع الإصبع على كل مصادره . فالهاجس المتواصل داخل النص نزع فتيل كل الأسباب التي تؤدّي إلى اللياذ بالتمرّد.

نستطيع على ضوء هذه الجملة قراءة كل النص كالتالي :

حتى لا يضطر الناس للياذ إلى التمرّد لا بدّ من ضمان : حق كل البشر في الحياة والحرية ...في الحرمة الجسدية ...في الشخصية القانونية ...في المساواة أمام القانون ...*في المحاكمة العادلة ...في الحياة الخاصة .... في التنقل الحر..ّ في الجنسية ...في تاسيس عائلة* ...في الملكية ... ***وإلا أدى ذلك لانفجار العنف بين الأفراد***

حتى لا يضطر الناس للياذ إلى التمرّد لا بدّ من ضمان : حرية *التفكير والضمير والدين...* حرية *الرأي والتعبير* .... حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية... *الاشتراك في إدارة الشؤون العامة .... **حتى لا تتقاتل الفرق السياسية المختلفة.***

حتى لا يضطر الناس للياذ إلى التمرّد لا بدّ من ضمان *الحق في الضمانة الاجتماعية* ...في العمل بشروط عادلة ومرضية و حق الحماية من البطالة ... *في الراحة.... في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية ...في التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ...في التأمين في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادة الإنسان ...في التعليم والتربية..... في الاشتراك في حياة المجتمع الثقافية ....في الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي.......**حتى لا تستعرّ الحرب بين الطبقات الاجتماعية** .*

حتى لا يضطر الناس للياذ إلى التمرّد لا بدّ من *تنمية التفاهم والتسامح بين الشعوب والجماعات العنصرية والدينية وضمان حق الجميع في السلام و* في نظام اجتماعي ودولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاما ....**وإلا أدت الحروب بين الشعوب بالأسلحة المتوفرة إلى فناء العنصر البشري .**

لنلاحظ العلاقة الوثيقة التي ترتبط في فكر المشرع العالمي بين العنف والخوف .

أليس الخوف أحسن مؤشر على وجوده وأقوى دافع لهذا الوجود ؟ هو في أحسن الأحوال مثل سيف دموقلاس : تهديد دائم يجعلنا في حالة دائمة من الاستنفار والقلق تسمم عيشنا .

يطبع الخوف علاقتنا بكل مكونات العالم وقد ربينا عليه باكرا . بل نحن جعلنا منه محور علاقتنا مع السماء .

من أجمل ما يروى عن رابعة العدوية : " ذات يوم رأى جماعة من الأصحاب رابعة في إحدى يديها نار وفي الأخرى ماء و هي تعدوا مسرعة فسألوها أيتها السيدة إلى أين أنت ذاهبة و ماذا تبتغين . فقالت أنا ذاهبة إلى السماء كي القي بالنار على الجنة و أصب الماء على الجحيم و لا تبقى هذه و لا تلك و يظهر المقصود، فينظر العباد إلى الله دون رجاء من غير خوف و يعبدونه على هذا النحو ، ذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء من غير خوف من الجحيم , أفكانوا يعبدون الحق و يطيعونه "

لهذا جعل المشرّع العالمي من القطع مع الخوف محورا أساسيا في مشروعه .

يكتب في الديباجة : " إن أسمى ما يرمي إليه البشر التحرر من الخوف" . ثم يضيف للتأكيد على نفس الفكرة : "إذ ترى أن الإقرار بما لجميع أعضاء الأسرة البشرية من كرامة أصيلة فيهم و من حقوق متساوية و ثابتة ...و إذ تدرك أن السبيل الوحيد لتحقيق المثل الأعلى ... في أن يكون البشر أحرارا متحررين من الخوف.

لا نعرف هل الكاتب واع بالحلقة المفرغة التي يدور فيها . نحن نتفق معه على أن تحقيق الحقوق , سيؤدي إلى تحرر الإنسان المهدّد من هذا الشعور المهين والمكبّل للطاقات . لكننا نعلم أن تمكين الناس من حقوقها رهن بتعاونهم وبقبولهم ببعضهم البعض ...أي بتبدد الخوف الذي غذته القرون.

كيف يمكننا أن نتحرر من الخوف والحال أن الأمر يمرّ بتحقيق شروط تتطلب عدم وجوده لكنها موجودة به تدعمه ويدعمها ؟

***

الأمل.

في بداية التسعينات نشر شخص مجهول اسمه هنتنجتون مقالة عنوانها صراع الحضارات * طبقت فجأة شهرتها الآفاق وجعلت من كاتبها نجما . والحق أنني لم أهرع للمقالة لقناعة متأصلة فيّ أن النصوص الكبرى تتطور في الخفاء وببطء ،أنها تنضج في الصمت، أنها تشق طريقها بين النصوص بصعوبة كبرى ، أنها لا تأتي أكلها إلا بطول السنين وأحيانا بطول العقود والقرون . أما النصوص النجومية فهي عادة فقاقيع صابون.ومع هذا اضطررت للتوجه أنا الآخر للمقالة لا لكثرة اللغط بخصوصها ، وإنما لأنني فهمت أنها جزء من الفكريات التي تتحكم في العامل الإيدولوجي للوضع المحدّد الذي قاد ولا يزال إلى الأعمال" التي أثارت بربريتها الضمير الإنساني ".

لنذكرأنه لم يكن الوحيد الذي كان يصرخ يومها بحتمية الصراع بين البشر حتى وإن كان الوحيد الذي ارتفع به إلى هذا المستوى من ضخامة عدد الصيادين المتحاربين . ففي نفس الوقت، كان الصراخ يتعالى من هضاب افريقية معدّا لمجازر من أبشع ما عرفت القارة . ومن جبال قارة أخرى تدّعي الريادة في الحضارة ، كان الصراخ بالتطهير العرقي يتعالى ليغذي حقدا أعمى رمي الجيران على الجيران في سورة من العنف الدموي كانت القارة المتكبرة تعتقد أنها قطعت معه. وفي نفس الفترة تصاعد صراخ التهديد بالويل والثبور بين ديانات تتوعد بعضها البعض بالجهاد و بالحرب الصليبية وبحرق الأخضر واليابس في سبيل إعادة بناء هيكل سليمان أو معبد راما على أنقاض مساجد أحفاد الغزاة .

كانت الضحالة الفكرية للمقالة أول مفاجأة عند الإطلاع . يقيني أنها لو قدمت لمجلة لها الحد الأدنى من المستوى أو لو قدمت كأطروحة في جامعة تحترم نفسها ، لرفضت دون أدنى تردّد لعدم توفرها على الحد الأدنى من المنهجية العلمية . لو وجدت جائزة نوبل للحرب لربما حصل الرجل عليها وهو ينظّر ويبرّر ويزرع أفكار قبول الحرب على أوسع نطاق وصله التاريخ . هذا ما طرح عليّ من البداية سؤال تفويضها ومصلحة من تخدم ومن وراء تضخيم قيمة عمل بداهة لم تكن له أي قيمة. لكن لنتوقف عند ما أدى لمثل هذا الحكم الصارم فهو ليس مبنيا فقط على موقف مسبق من خصم ايدولوجي وإلا لما كانت له قيمة أكبر.

يعرّف الكاتب هذه الحضارات التي حكمت عليها الأقدار بأن تأخذ بخناق بعضها البعض بأنها " **أعلى مستوى** تجمع أشخاص وتتميّزبالاشتراك في عوامل موضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والعادات والمؤسسات وبالشعور الذاتي بالانتماء."

ولأن الرجل حرّ أن يسمي حضارة ما يسميه طوفلر ثقافة ، فإننا لن نتعرّض له في هذا المستوى ،علما وأننا سنواصل من باب نفس الحرية استعمال الاصطلاحين وفق رؤية طوفلر الأثرى والأعمق والأذكى. لكن لا تساهل مع تصنيف العجيب لما يسميه حضارات إذ هو خلط عشوائي يقارب الدجل.

فحسب الرجل توجد اليوم ثماني ثقافات في العالم هي "الغربية والكونفوشية (الصينية) واليابانية والإسلامية والهندوسية والسلافية- الارثوذكسية واللاتينية الأمريكية .... وربما الأفريقية ".

يحاذر كثيرا حتى لا ينطق بأولوية ثقافته الغربية على كل ما عداها . لكن أي داعي للإفصاح بصريح العبارة عن ادعاء تنضح به كل المقالة ؟ وعلى كل حال، هو غير معني البتة بمصير بقية الثقافات الأخرى. رغم أنها تضم ثلاثة أرباع البشرية. فكل ما يعنيه إنقاذ ثقافته من التهديد الذي يبدو أنها تتعرّض له اليوم بصفة تستدعي وقفة حازمة . لنتمعن في تصنيف الرجل لهذه الثقافات الخطرة على تفوق وهيمنة الثقافة التي أنجبته . سمعنا كلنا بالثقافة الغربية والثقافة الإسلامية لكن من منكم سمع بالثقافة اللاتينية – الأمريكية ؟

قدّر عمق تناقضات الرجل انطلاقا من تعريفه هو نفسه للثقافة. إنها كما قال تجمع أشخاص يشتركون في عوامل موضوعية مثل اللغة والدين وعامل ذاتي هو الشعور بالانتماء لهذه الثقافة . والآن أين هي العوامل الموضوعية والعامل الذاتي الذي يجمع تحت نفس السقف الأعلى السكان الأصليين الموجودين

**Samuel P. HuntingtonThe Clash of Civilizations-*
Foreign Affairs, Summer 1993

في غابات الأمازون أو جبال بيرو، والسكان الأفارقة الأصل الذين يقطنون شمال شرق البرازيل، وأحفاد المهاجرين الإيطاليين والأسبان والألمان الذين يسكنون سهول الأرجنتين أو ساحل شيلي . إن هذه المجموعات البشرية الثلاثة تنتمي في الواقع لثلاثة ثقافات متباعدة عن بعضها البعض تباعد الصينيين والعرب الذين كان بوسع خلط هذا الرجل وضعهم كلهم في خانة " حضارة آسيوية".
انظر الآن لسخافة مفهوم الثقافة الأفريقية . أي ثقافة تجمع أفارقة مالي المسلمين وقبائل البانطو وسط القارة والبوشيمان القاطنين صحاري ناميبيا أو سكان اثيوبيا اليهود أوالمسيحيين ؟ إنّ القاسم المشترك الوحيد بين كل هؤلاء البشر هو اللون وما عدا هذا كل شيء مختلف: اللغة ، الدين ، العادات ، الشعور بالانتماء .
انظر الآن لعبثية وفوضى منهجية التصنيف. فمرّة يعتبر العامل الديني هو المحور ("الحضارة" الإسلامية الهندوسية) ومرة العامل الجغرافي ("الحضارة" الأفريقية واللاتينية – الأمريكية) ومرة ثالثة العامل العرقي ("الحضارة" اليابانية أو السلافية -الارثوذكسية).
والآن يسع هذا العالم الكبير مقارنة البطيخ بالثلاجات واستخلاص نتائجه حول *حتمية* الصراع بين كل هذه المكونات البشرية بعد أن استنفذ التاريخ أشكاله القديمة مثل الصراع بين الأمراء وملوك الطوائف والدول.
الحق أنني اعتبرت كل الكلام الوارد في باقي المقالة بلا أدنى مصداقية ، لأن تكويني الجامعي وإشرافي ربع قرن على عشرات الأطروحات الطبية علمني أنه لا فائدة ترجى من أي عمل ينطلق بأخطاء منهجية بمثل هذه الخطورة .
لكنه كان من الضروري مواصلة التحليل لا لشيء إلا لقدرة الردّ على مقولات أصبحت بقدرة قادر محور نقاش، كان في الواقع الحصيلة الإيجابية الوحيدة لها وشكّل في الأخير مادة للتفكير الخصب أكثر من آراء بالغة السطحية والسذاجة وسوء النية .
بداهة تجاهل الرجل أنه لا يمكن وضع حدود ثابتة وواضحة بين الثقافات حتى ولو أجاد تصنيفها. فالخاصية الأساسية للثقافات هي تداخلها المتواصل وهذا منذ بداية التاريخ. بل يمكن القول أن تاريخ الثقافات هو تاريخ بحثها عن بعضها البعض وتقاربها وتبادل ما عندها عبر كل الوسائل الممكنة ومنها التجارة والحرب . إنه لمن قبيل سخرية الأقدار أن تظهر النظرية والتصنيفات المطلقة في الوقت الذي تكثفت فيه المبادلات وتداخلت الحدود إلى درجة لم يسبق لها مثيل في التاريخ.
فما يسميه الثقافة اليابانية هي نتيجة تفاعل عميق وقديم للثقافة الصينية والغربية مع العادات المحلية وبدون العاملين الخارجين لا وجود لها . والآن خذ الثقافة الغربية وانزع عنها دينا استوردته من الشرق الأوسط وتأثير علوم العرب في القرون الوسطى .انزع عن شكلها الأمريكي العهد القديم القادم من فلسطين وموسيقى الجاز الإفريقية المنبع وانظر إلى ما سيبقى منها. والآن خذ الثقافة العربية الإسلامية أو الثقافة " السلافية- الأرثوذكسية" في هذا العصر . جرّدهما بالخيال الخصب من تأثير الثقافة الغربية وقل لي ماذا سيبقى. ولو تأملت بدقة في الثقافتين الإسلامية والغربية لاكتشفت بالمقارنة مع الثقافة الصينية والهندوسية أنهما تنتميان لنفس الجذع .فهما تشتركان في نفس النوع من الأديان ونهلتا من نفس المنابع المصرية القديمة والبابلية والفينيقية واليونانية، وتشاركتا في تاريخ طويل حافل بالتبادل عن طريق السلم والحرب.هذا ما يجعل الحدود الثقافية الحقيقية لا تمرّ بين شمال المتوسط وجنوبه وإنما بين الهند وإيران، مما يعني أنه بوسع مصنّف متسع الأفق أن يتحدث عن الثقافة الغربية الشمالية التي تشمل أوروبا وأمريكا الشمالية والثقافة الغربية الجنوبية التي تشمل العالم العربي وجزءا كبيرا من العالم الإسلامي.
أنظر الآن للحتمية المزعومة للصراع بين كل هذه الثقافات . لو تكلف الرجل عناء قراءة التاريخ لأكتشف أن أفظع الحروب وقعت داخل نفس الثقافات مثل الحرب الأهلية العربية- العربية في أعقاب الفتنة الكبرى أو مثل الحرب الأهلية في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، أو مثل الحرب الأهلية الأوروبية التي سميت تجاوزا الحرب العالمية الأولى.
كأن الرجل لم ينتبه أيضا لكون الصراعات والتحالفات التي وقعت إبان الحرب العالمية الثانية لم تقع بين الثقافات ، إنما شقتها حيث تحالف الكونفشسيون الصينيون مع الغربيين ضدّ أبناء عمومتهم في العرق

والثقافة اليابانيين، في حين تحالف الغربيون الألمان والإيطاليون مع اليابانيين ضد بني ثقافتهم الإنجليز والفرنسيين والأمريكان.
ولقائل أن يقول أن أمرا كهذا لن يمنع ما يتنبأ به المفكر العبقري من انطلاق صراع بين الثقافات في المستقبل . لكن لو نظرت لخطوط الصراع والتحالف في عالم اليوم لما اكتشفت مرة أخرى إلا تحالفات وصراعات تشق الثقافات وتحركها عوامل سياسية لا علاقة لها بالانتماء الثقافي.
لهذا بدا واضحا للجميع أن التطبيل للنظرية كان لإضفاء تغطية فكرية على السياسة الأمريكية وهي تجاهد لاحتواء الخطر الإسلامي المهدّد لسيطرتها على موارد البترول، والخطر الصيني المهدّد بمنافستها على مكانة القوة التجارية العظمى الأولى . إنها قاعدة معروفة في دنيا السياسة حيث يمهّد تسخير النظرية لإضفاء بعض "النبل " أو الشرعية الفكرية على قرار سياسي مسبق وخاضع لاعتباراته الخاصة.
أنه من المعبّر مثلا أن يدرس هنتنجتون تقلص الفضاء الذي تراقبه الثقافة الغربية الأمر الذي يستنتج منه ضرورة إقامة المتاريس ، والحال أن ثقافته هذه لم تعرف انتشارا أكبر من انتشارها اليوم حتى ولو تقلص الفضاء الذي كانت تراقبه بالاستعمار المباشر.

بداهة تغذّي نظرية الرجل وتتغذى من تفكير الصياد البدائي بلغة ومقاييس العصر. ففضاء الصراع بين الصيادين المتنافسين على الفريسة تحوّل من بضعة أميال مربعة إلى قارات بأسرها . أما السلاح فلم يعد الرمح المسموم وإنما الصاروخ الحامل للرأس النووي. لكن عقلية لابس السموكنج هي عقلية لابس الجلود.

*

عودة إلى ما يسميه هنتنجتون الحضارة ونصر على تسميته ثقافة .هي إذن حسب تعريفه " **أعلى مستوى** تجمع أشخاص " وبالتالي هي أرفع مستوى لتعريف هوية مجموعة بشرية ما .
لا بد من التوقف عند هذا المفهوم لأنه محور الخطأ والخطيئة في فكر الرجل .

ثمة توجهان متناقضان في تكوين الهوية . الأول هو البناء على الضدّ . تتشكل هويتي على أساس الاختلاف مع الآخر- وقد انتظم في دوائر متباعدة أنا مركزها – وذلك على أساس جملة من العلامات الموضوعية مثل الجنس و اللون واللباس واللغة الخ .

أما التوجه الثاني فهو البناء على المماثلة . تتشكل هويتي هنا على شبهي مع الآخر -وقد انتظم في دوائر متباعدة أنا مركزها – في الشكل واللون واللغة والمعتقدات والتاريخ الخ.

لكن الهام في كل هذا هو أن التجذّر في هويتي يمكنني من التعرف على كل من هم مثلي وكل من هم مختلفين عني . وحيث أن لكل آخر هوية فإن كل من هم مثلي سيتعرفون علي كمشابه لهم وسيعترفون بي واحدا منهم . إن مثل هذا التعرف والاعتراف المتبادل بين الشخص ومجموعته، عبر الاشتراك في نفس الهوية، قضية بالغة الخطورة . فالرهان الأساسي ليس التميّز الذي فرضته ظروف العيش المشترك و لا حتى التمايز والتفاضل في العلاقة بالمجموعات البشرية الأخرى ، ***و إنما تبادل الحماية داخل المجموعة لدرء الخطر الحقيقي أو الوهمي الذي يمثله الآخر*** ... علما وأن هناك دوما خوف من اختفاء خطر هذا الآخر لأن الأمر قد يؤدي إلى تفجر مخزون العنف الداخلي المتحكم فيه نسبيا طالما هو موجه نحو العدو الخارجي .

الهوية هي إذن جملة العلاقات المادية و الرمزية التي تربط وتوحد عددا من الأفراد و هم في حالة صراع ضد مجموعة مشابهة في الجوهر مخالفة في المظهر.

هي في استبطان الشخص لحدود المجموعة التي تعطيه الحماية والتي يجب عليه حمايتها لا لشيء إلا لتواصل بسط حمايتها عليه. نحن لا ننتمي لقبيلة ، لحي ، لوطن ، لأمة ، لثقافة ، بمقاسمة المنتمين إليها العلامات الخارجية المميزة فقط ، ولكن بمقاسمتهم مسئولية الحماية المتبادلة و الدفاع عن الوجود المشترك وتحسين ظروفه.

تتعقد بمرور الزمان خصائص المماثلة و المشابهة. فمن الألوان الصارخة التي يرسمها المحاربون على أجسادهم إلى أدق كلمات السر التي يتعارف بها " الأخوة " في هذا الجيش أو تلك العقيدة. لكنها تنطق كلها بالخطاب الأبدي : أنت منا وإلينا ، نحميك و تحمينا .

وفي آخر المطاف فإن لبّ الهوية هو انتماء مسئول و مسئولية انتماء .

لننظر الآن لديناميكية شعور الانتماء هذا لأنه مثل كل ظواهر الحياة الاجتماعية والطبيعية صيرورة لا معطى جامد.

خذ قبيلة معزولة في غابتها استوائية، أفقها الجغرافي حدود الغابة التي تحاصرها من الجهات الأربعة وأفقها الزمني محدود بأسطورة ثابتة .

تتبلور هوية أفرادها إلى ما أبعد من العائلة بقليل أي إلى أضيق دائرة اجتماعية يمكن أن تضفي حمايتها على الفرد بالحدّ الأدنى من النجاعة.

وسّع الان الأفق . خذ مجموعة بشرية تكاثر عددها ولها فضاء أرحب بفضل الجياد المطهمة أو بواخر شراعية أو جمال عابرة القارات . ها قد ظهرت القبائل فالشعوب فالأمم . لقد أصبح الشخص عضوا في مجموعة توسعت حدودها إلى آفاق مذهلة، سواء تعلق الأمر بعمق فضائها الجغرافي أو الزمني أو عدد أعضاء النادي الجدد. يظهرآنذاك الدين والقانون والأخلاق لفرض ما أقره العرف داخل المجموعات البدائية للصيادين أي واجب الحماية المتبادلة وبسطه على عدد أكبر من البشر أصبحوا جزءا من عقد التأمين على الحياة ، لا لشيء إلا لأن الآخرين تنظموا في صلب شعوب لا تواجه بالمجموعة القبلية الضيقة.

إن هذا ما يلاحظه حتى هنتنجتون عندما يقول:

"الانتماء عند الناس طبقات . فساكن روما يمكن أن يعرّف نفسه حسب درجات مختلفة كروماني ، إيطالي كاثوليكي، مسيحي ، اوروبي ، غربي . لكن الحضارة التي ينتمي إليها هي أعلى طبقات تعريفه بنفسه."

لنتأمل في مغزى هذه الجملة . ثمة اعتراف إذن بأن الهوية عملية بناء تاريخية وسعت أفق ساكن روما من انتمائه لمدينة إلى انتمائه لبلد ثم لقارة ثم لدين ثم لثقافة ، ومن ثمة وسعت واجباته تجاه كل هذه المستويات الإضافية .

لاحظ أن كل مستوى هوية جديدة يكتسب ليس نقضا للطبقات التحتية التي تشكلت عبر تاريخ الفرد والمجموعة وإنما فقط دمجا لها في إطار أوسع . نحن لا نعيش انتمائنا للوطن كخيانة أو كتنكّر لانتمائنا لجهة من جهاته، بما أن هذه الجهات هي كلها الوطن . نحن وسعنا فقط آفاق الانتماء من الضيق إلى الأرحب الذي ضم هذا البعد الضيّق ولم يلغه .

إن الارتقاء من طابق إلى طابق قضية مرتبطة بعوامل موضوعية مثل حالة الوضع المحدد الذي يعيش فيه بالشخص . فإن كان فقيرا أمّيا معزولا في جزيرة أو صحراء أو جبل ، لا تلمه على توقف شعوره بالانتماء عند المستوى القبلي . إن كان جزءا من مجموعة بشرية تتكاثر عبر التاريخ وتحتل أجزاء متسعة من الفضاء فإنه سيرتقي للوطنية والقومية . ثمة ايضا العوامل الذاتية من ذكاء وسماحة التي يمكن أن تحمل هذا الفلاح الفقير المعزول إلى أعلى مراتب الانتماء في حين يمكن للمتعود على الطائرات والانترنت البقاء في مسوى الانتماء القبلي أو الشعوبي لضيق أفقه الفكري وحتى الروحي .

يقودنا إذن التوسع التدريجي إلى الشعور بالانتماء الثقافي وهو بداهة أرقى من الشعور القبلي والطائفي والشعوبي، لأن من يضع هويته الثقافية فوق هويته القومية هو بالضرورة شخص تفتح على كل الشعوب والقوميات التي تحتويها هذه الثقافة . لكن ماذا عن العلاقة بالمنتمين للثقافات الأخرى ؟ ألا يبقى التنافس والصراع الذي انطلق منه الوضع المحدّد منذ مائتي ألف سنة قائما وإنما على مستوى أضخم إن استبدلت المواجهة بين القبائل أو الشعوب أو الأمم بالمواجهة بين الثقافات؟

ثم هل هذا حقا *أعلى* سقف للانتماء كما يدعي هنتنجتون أم هل أنه وقف عند الدرجة الأعلى التي يقدر عليها هو ومن يتفقون معهه في الموقف ، مثلما هو الحال عند القبلي والطائفي الذي لا يستطيع الارتقاء إلى الانتماء في مستوى الوطن.

لنقارن بين موقف الرجل الذي وقف في أعلى مستواه وموقف النص الذي يواصل ويستبق ويمهّد لمستوى أعلى في إحدى الوثائق التفصيلية المنبثقة عنه *

يحدد هذا الأخير كعادته الأهداف العامة في الإعلان : "و لما كان من الجوهري العمل على تنمية علاقات ودّية بين الأمم ."

يشير إلى الخطوط العريضة لتنمية مثل هذه العلاقات : " ويجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملا وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية **وتنمية التفاهم والتسامح** بين الشعوب والجماعات العنصرية والدينية وإلى تعزيز مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام "

آه كم المؤسف أن يستعمل المشرع العالمي كلمة مثل التسامح ،فمشروعه أكبر بكثير من مفهوم مسموم الخطاب الضمني فيه كالآتي : رغم إيماني بتفوقي و بدونيتك ,لكن لإستحالة التخلص منك نظرا لموازين القوى، فإنني مجبر على تحملك . و لأنه لا بد لي من مقابل لتحمل ما لا قبل لي بتحمله، فإنني سأضع عجزي عن تغييرك على حساب نبل ليس فيّ و سأسمي تلاقي العجز الفعلي و النبل المصطنع تسامحا أضعه وشاحا على صدري.

ربما استعمل النص المصطلح الضعيف لتشجيع المتسامح كما يشجع الأب الطفل وهو يخطو أولى خطواته في الاتجاه الصحيح . لكن شتان ما بين هذا الموقف والذي يسعى إليه نصّ هو صدى لأروع ما جاء على لسان ابن عربي، المعلّم الأسمى، عندما انتبه فجأة للمستوى الذي لم يستطع هنتنجتون الطلوع إليه.

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان و دير لرهبان

وبيت لأوثان و كعبة طائف و ألواح توراة و مصحف قرآن

أدين بدين الحب إني توجهت ركائبي فالحب ديني و إيماني

ولأن أغلبية البشر ما زالت جد بعيدة عن مثل هذا النضج الفكري والارتفاع الروحي ، يعود الكاتب إلى الشرح والتفصيل في الوثائق التكميلية* مديرا ظهره لكل المتخاصمين المنتصرين لصفاء و أفضلية خصوصيتهم العرقية أو العقائدية . هو أيضا يضع صراعهم على مسؤولية نضج لم يصلوا إليها بعد . يعلن مبدئيا حياده في المعركة الضروس بين الخصوصيات.

يردّد المشرع العالمي دون كلل أن كل المنظومات الفكرية و الدينية بالنسبة إليه شرعية واردة ومقبولة . وهو هنا أيضا لا يفعل سوى اكتشاف مقولة لمعت يوما كالبرق في ظلمات التعصب والجهل جاء بها ابن عربي وهو ينشد:

عقد الناس في الإله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه .

يا له من نصر للمعرّي وابن المقفع وكل الذين صدعوا بنفس الموقف منذ قرون ، فكان خطأهم الوحيد أنهم جاءوا عصرهم بأفكار عصور ما زالت بعيدة في المستقبل.

واجه رهين المحبسين خصام بشر لم يرتفعوا إلى مستوى وعيه بسخريته اللاذعة .وضع في نفس السلة . -----------

*إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي – اليونسكو-.1966- نقلا عن "حقوق الإنسان ، المجلد الأول، الوثائق العالمية والإقليمية –إعداد د,محمد يوسف البسيوني، د.محمد سعيد الدقاق،د,عبد العظيم وزير.

عابد النار و لاثم الحجر و المغتسل ببول البقر و شتم هذا الذي يزعجه بدق الجرس وذاك الذي يقض مضجعه بالصياح كل فجر من مئذنة .واجه ابن المقفع الإشكالية بنفس الاستنكار لكن بوقار الفيلسوف

" فلم أجد أحدا منهم يزيد عن مدح دينهم و ذم ما يخالفه من الأديان، فاستبان لي أنهم بالهوى يتكلمون لا بالعدل فلم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا ".

إنها البراعم التي رميت منذ قرون في أرفع مستويات ثقافتنا العربية الإسلامية وها هي تورق وتثمر في نص قد يكون طوق نجاة البشرية .

عن المشرع قوله : " **لكلّ** ثقافة كرامتها و قيمتها ويجب احترامها و المحافظة عليها ".

نحن أمام موقف واضح لا يحتمل تأويلا أو تشكيكا . فالمشرع لا يفضّل ثقافة على أخرى و إنما يقرّ بكامل الجرأة أن للثقافة الغربية و ثقافة قبائل الأوفامبو في صحاري جنوب القارة الإفريقية نفس الكرامة و نفس القيمة .

تسقط الحجة السهلة أن النص هو الوجه الآخر لخطاب المركزية الغربية .

يضيف المشرع ": من حق كل شعب و من **واجبه** تطوير ثقافته".

هو لا يقرّ إذن أي غزو ثقافي ولا يطلب من أي ثقافة البقاء تحت راية ثقافة رائدة، منتصرة ، متفوقة ، مرجعية ، متقدمة الخ .

على العكس يحث المشرع العالمي كل شعب على التمسك بثقافته وعلى نواتها الصلبة التي هي عقيدته.

لا شكّ أن الكاتب يعرف هو الآخر الحقيقة التي اكتشفها كبار المفكرين والنساك والمتعبدين على اختلاف الديانات التي دانوا بها ، وهي أن هناك ألف طريق ممكن لتسلق الجبل، لكن القمة أتيتها من الغرب أو من الشرق واحدة ، أو أن من ينزل إلى أعمق وأنضج وأنبل ما في خصوصيته ، لا يكتشف إلا إنسان كل زمان وكل مكان . يا للمفارقة أن تؤدي بنا الخصوصية التي تذهب إلى أبعد حدودها ....إلى العالمية.

يحدد المشرع تعريفه لهذه العالمية وإنها كل شيء سوى سيادة النموذج الغربي الغالب في هذه المرحلة من التاريخ : " تشكّل جميع الثقافات بما فيها من تنوع وخصب و ما بينها من تباين و تأثير متبادل جزءا من **التراث الذي يشترك في ملكيته** البشر جميعا " ثمة نظرة جديدة للتنوع الثقافي .

يفكر سجين الرؤيا لثقافة مغلقة ومتحجرة ، أكان غريبا أو مسلما أو آسيويا، من منطلق القفص الذي وضع نفسه فيه . هو لا يتصور رؤيا شرعية وأخلاقية غير التي نشأ عليها أو اعتنقها . هو يريد تصدير تصوره للعالم و تصوره للإنسان لتعم الحقيقة التي خص بها . هو يفرح عندما تنتصر نظرته و لا يضيره في شيء اغتيال معتقد على غرابته أو لغة على ضيق انتشارها .انظر إليه و الزبد حول شفتيه

و الشر يتطاير من عينيه و استمع إلى خطابه الحماسي حول ضرورة تخليص لغته من الشوائب التي دخلتها و تنقية موسيقاها من الدنس الذي لحقها من التأثير الأجنبي وفظاعة الأفكار المستوردة التي تشكل وباءا و مرضا يتهدد عقول الناشئة .

لكن التنوّع بالنسبة للمشرّع العالمي ليس شيئا غريبا يواجه في أسوء الحالات بالاستهجان و الرفض

و " بالتسامح " في أحسنها . هو على العكس من هذا ظاهرة صحية لأن التباين هو الذي يعطي للتقاسم معناه وجدواه .

يركز المشرع العالمي في فقرة أخرى على نفس الفكرة.

" عليها (الأمم) بأن **تتقاسم** ما لديها من علم و معرفة ". يأمر المشرع الأمم إذن أن تكف عن اعتبار ثقافتها ملكا لها بل يطالبها " بأن تنظم المبادلات بروح السماحة و **العطاء المتبادل** " .

يدعو المشرع العالمي إذن إلى استبدال الفقر بالغنى لأن التنوع ظاهرة خصب و علامة ثروة وكل نتاجه راجع لمن يرضى بالغناء الفاحش بدل الفقر المدقع .

ها قد أصبحت موسيقى بيتهوفن و لغة الإسكيمو المؤهلة للانقراض وأثار آنجاكور ، ملكك أنت العربي المسلم لك فيها حق و نصيب بما هي جزء من تراثك كعضو من العائلة البشرية الكبرى .

ها قد أصبح فكر ابن عربي و آثار قرطاج و الفن المعماري بسيدي أبو سعيد ملك و حق من حقوق قبائل الهنود الحمر في غابات البرازيل و مواطني بافاريا و فنلندا .

صحيح أن الثقافات تتقاسم أحسن ما لديها منذ القدم. لكن الأمر أصبح بتشريع وتشجيع وتنظيم جعل كل الشعوب تسعى لكي تصنف المنظمة العالمية للتربية والعلوم معالمها الطبيعية والمعمارية في قائمة كنوز البشرية لتفاخر بكونها حافظة ووصية لهذه المعالم باسم البشرية جمعاء لا بكونها مالكتها الوحيدة . أو ل شعور ينتابنا أمام هذا المشروع الجبار نوعا من الذهول .

لقد أصبحنا نغرف من كل الثقافات كأصحاب الحق لا كلصوص أو متسولين .

لكن أهمّ ما في العملية تبعاتها الهائلة على صعيد تشكيل هويتنا أو على وجه التحديد على القفزة النوعية التي تحدثها داخلها.

إن التفاعل الإيجابي الذي يصفه المشرّع العالمي ليس موقفا انتهازيا ينطلق من السطو على أحسن ما في كل ثقافة لترصيع جيد ثقافتنا وإثرائها حتى تكتسب تفوقا على الثقافات الأخرى وخاصة المتقوقعة علىذاتها من فرط عقدة النقص أو عقدة التفوّق. إنه تحوّل جذري في العلاقة مع الثقافات الأخرى وقد أصبحت فجأة ***الكنز المشترك*** التي يحق لنا جميعا التمتع به .

نحن إذن أمام موقف يقطع مع الموقف القديم الذي كان يصنّف الثقافات إلى ثقافتي وثقافاتهم . لقد أضيف إلى حقي القديم في التمتع بالثقافة العربية الإسلامية بحكم مكان ولادتي وتاريخي وشعوري بالانتماء العربي المسلم ، حق التمتع **بكل** الثقافات .

لقد أصبح من حقي القول: لي الحق في الغرف من كل.... **ثقافاتنا**، لأنني في الواقع صاحب ثقافة في مستوى و صاحب كل الثقافات وجزء منها جميعا في **المستوى الأعلى** الحقيقي .

هذا ما جعلني أردّ يوما على آدمي متخلف صرخ في وجهي : لا تنسى أنك على أرض بلدي، فأجبته ببرود وأنت لا تنسى أنك على أرض كوكبي .

المستوى الأعلى للانتماء إذن ليس الثقافة وإنما اعتبار الشخص لنفسه أنه ابن **أم كل الأمم التي هي الإنسانية** وابن أب كل **الأوطان الذي هو العالم** .

*

لننتبه لضخامة التغيير الفكري الذي يدعونا إليه النص .

*إن الانتماء أيا كان المستوى الذي وصله ، كما قلنا ، هو الذي يحدّد **حجم المجموعة** التي يحرّم داخلها العرف استعمال العنف بكل اشكاله ، بينما يحرض على التعامل معها بكل أنواع الحب ومشتقاته.*

هكذا أدى ارتفاع الانتماء من مستوى القبيلة إلى مستوى الشعب فإلى مستوى الأمة فإلى مستوى الثقافة إلى توسيع مجال عمل هذا العنصر المهيكل للهوية . معنى هذا ظهور انتماء عالمي يعني ضرورة توسيع تحريم العنف إلى كل البشرية والتحريض على حبها تماما كما يفعل الوطني وهو يهتف والعبرات تخنقه "نموت ، نموت ويحيا الوطن ."

يصاب المرء بالدوران وهو يصل إلى مثل هذا الاستنتاج... أو يغلبه الضحك... خاصة إذا كان خارجا لتوه من قراءة جريدة اليوم . هل يكون مثل هذا الموقف الذي يدعونا إليه النص بمثابة قفزة جديد ة على

الواقع وتجاوزا سحريا له ؟ هل نحن مجدّدا أمام نص مهمته رفض العالم كما هو للحلم بواقع اتضح ألف مرة أنه سراب يفتح على كابوس؟

إنه سؤال يلقى من جديد على الواقع لا على النص الذي لا يفعل سوى القيام بمهمة الدعوة لأفكار وقيم تواكب وتتعهد وتنمي مستوى جديدا للإنتماء.

لنسأله هل سمع عن شيء اسمه الانتماء الإنساني وأنه بصدد تتويج الانتماء الثقافي وإدماجه كما أدمج الانتماء الثقافي الانتماء القومي والانتماء القومي الانتماء الوطني والانتماء الوطني الانتماء القبلي والانتماء القبلي الانتماء العائلي ؟

وحتى يكون تفحصنا نزيها لنسأل هنتنجتون نفسه عن كيفية تقبّل الواقع ندائه لشحذ السكاكين لأجمل حرب الحضارات ؟

إن أهم ما اثار انتباهي في المقالة لم يكن اطروحاتها وإنما حدّة الردود عليها وقد أتت من كل أصقاع العالم ومن مصادر فكرية وسياسية مختلفة أجمعت كلها – بدرجات مختلفة من الصدق والمصداقية- على رفضها والدعوة على العكس لمزيد من التعارف والتعاضد بين الثقافات.

بداهة أخطأ الرجل عصره ، فلو صدرت مقالته في العشرينات لما لقيت إلا الاستحسان والصدى الواسع لأن تلك الحقبة التاريخية كانت منتجة ومؤهلة لقبول أفكارها . لكن شيئا ما تغير في عمق الأفكار المؤسسة لعالم اليوم وهو الأمر الذي لم ينتبه له الرجل لأنه لا أصمّ ممن لا يريد أن يسمع ولا أكثر عماء من الذي يرفض الرؤية .

ولو نظرنا بإمعان في المستوى الذي انطلقت منه هذه الردود البالغة السلبية - والذي يبدو أن هنتنجتون كان يجهل أو يتجاهل وجوده - لوجدنا أنه متشكل من أشخاص ومن مؤسسات وحتى من مسئولين حكوميين ، من مختلف مناطق الأرض و من داخل كل الثقافات بل ومن داخل الثقافة الغربية نفسها .
بداهة لم ينتبه المنظّرلمغزى وتبعات ظهور منظمة الأمم المتحدة و منظمة العفو الدولي والسلام الأخضر والجمعيات العالمية للأطباء والمهندسين والصحافيين والفيزيائين والنساء ناهيك عن مؤسسات لا شك أنها عزيزة على قلبه مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي . كأنه لم ينتبه أيضا للتبعات العميقة والبعيدة المدى للمواصلات الحديثة في توسيع آفاق البشر أو ما يعنيه ظهور شبكة الانترنت أو تأثير الترابط المتزايد للفضاء الاقتصادي والسياسي والثقافي للعالم . هو لم ينتبه خاصة لوجود رؤيا جديدة تتطور ببطء وعمق داخل العقول والقلوب منذ منتصف القرن الماضي تعبر عن وعي جديد

و تسعى لصياغة وضع محدد مختلف عبر نشر جملة من الأفكار المؤسسة الضرورية لبلورته أكثر فأكثر. إن كل هذه العوامل المترابطة والديناميكية هي التي كانت وراء رفض عارم وشبه عام لمقولة صراع الحضارات.

نعم ثمة من دون أدنى شكّ بروز انتماء يعتبر الكوكب هو الوطن والبشرية جمعاء هي الأم والأمة. ولولا وجود هذا الانتماء لما تجند هولنديون في فرع العفو الدولي في أمستردام لمنع إعدام أفارقة لا يربطهم بهم انتماء الوطن والعرق والثقافة . ولولا تنامي هذا الشعور بالانتماء للعائلة البشرية لما هبت الشعوب والأمم في كل كارثة طبيعية لغوث شعوب وأمم قد تكون أحيانا على خصام تاريخي معها .

ولولا تنامي هذا الشعور لما تكونت كل هذه المنظمات العالمية للنساء ،للشبان، للنقابات ، للأطباء ،للكتاب ،لمناضلي البيئة الخ... وكلها تنطلق من الشعور بأننا كلنا فوق نفس المركب المهدّد بالغرق إن واصلنا التجديف كل في الاتجاه الذي لا يخدم إلا مصالحه الضيقة.

ثمة إذن ومن دون شكّ وعي جديد بالانتماءللعائلة البشرية وثمة تنامي في هذا الوعي وثمة تشكل للمستوى الأعلى من الانتماء بكل ما يعنيه الأمر.

لنواصل تقليب تبعات مثل هذا التطوّر على المفاهيم التي أرهقتنا مثل الإنسان قبل العودة لتحديات الواقع .

ما الذي يعنيه وصولنا إلى المستوى الأعلى أي اكتشاف علوية إنسانيتنا على انتمائنا الثقافي والقومي والوطني والقبلي؟

إنه تبلور وتنامي الوعي بمسئوليتنا الجديدة تجاه كل الذين أصبحوا فجأة جزءا من المجموعة المشمولة بتحريم العنف وتحبيب الحبّ. إنه في وعيي بأنني أصبحت مشمولا بالتحريم والتحريض على نطاق البشرية كلها، وهو ما يفتح لي آفاقا مذهلة لم أحلم يوما بإمكانية وجودها وقد ربيت على الخوف من جاري .

يدخل هذا الموقف الجديد تغييرات جوهرية على صورتنا للإنسان .

نحن حبيسون منذ الصغر لرؤيا تنطلق من وتعود إلى ثنائية الأنا والآخر. لا يهم أن يكون هذا الآخر متبلورا في آخر قبلي ، أو آخر وطني ، أو آخر قومي ، أو آخر ثقافي . فالمهم أنه يشكل خطرا نمّته مائتي الف سنة من المنافسة . وفي الاتجاه المعاكس فإن هذا الآخر هو مصدر كل حب وكل حماية.

ما جوهر علاقتي مع الآخر الخطر؟ إن العلاقة محكومة طبعا بالجفوة وبالتجاهل وبالإنكار . بقدر ما تحتدّ هذه المشاعر، بقدر ما تتباعد الذاتان. وفي النقطة القصوى لهذا التباعد يصبح الآخر كأنه من جنس غير الذي أشعر بالانتماء إليه . تدفع ضروريات التنافس الشديد تضخم الهوية بالمضادة . لكن ما أن تخفت حدّة الصراع وتتحرّك مؤشرات الوضع نحو القطب المعاكس إلا وتبلورت الهوية بالمماثلة محركة فينا كل هذه المشاعر العميقة . وعندما تبلغ ذروتها في سورة الحب فإننا نكتشف مذهولين أن أي شخص هو أنا بقصة تختلف في التفاصيل لكن لها نفس الثوابت ونفس التحديات و نفس الآلام والآمال ناهيك عن اشتراكها في نعمة-نقمة الحياة والموت .

وعندما تكتمل العلاقة في أصفى أشكال الحب فإن الذي يحصل هو تقارب شديد بين الذاتين يصل حدّ انهيار كل حاجز بعد أن اكتشفت كل ذات ذاتها في مرآة الذات الأخرى . لا يعني هذا تمازجهما وضياعهما في وحدة بلا فاصل. كلا فالشخصيتان باقيتان لكن الهوية التي تميز هذا عن ذاك لم تعد مبنية عن اختلاف المحتوى وإنما على اختلاف الأسلوب في التعبير عن نفس المضمون .

وفي أقصى علاقة التباعد التي يخلقها الخوف والضغينة نحن أمام كائنان فقدا أهم ما تكشفه علاقة القرب القصوى وهو ***أن الآخر أنا في ورطة أخرى والأنا نسخة تكاد تكون طبق الأصل من كل آخر .***

وفي هذا المستوى من العلاقة تتضح الحقيقة المذهلة أننا لسنا ابناء عمومة أو إخوة وإنما ***الأوجه المتعددة لنفس الكائن*** تجسد في أكثر من شكل وهو دوما واحد.

تصف كاتبة إيطالية * وعيها المفاجئ بهذه الفكرة الغريبة وهي تخاطب شبح حبيبها السجين في زنزانات الدكتاتورية:

"كم كان لك من وجه ومن اسم طيلة هذه السنوات؟ في فيتنام كان اسمك Thi Anh وكنت فتاة من الفيتكونج . كان اسمك أيضا Nguyen Van Sam وكنت رجلا قصيرا حافي القدمين يلبس الأسود، وفي زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام .كنت تقول: أن الإنسان برئ لأنه إنسان، إنه يفعل اشياء لا جدوى لها وغريبة كقتل أعدائه، لذلك يجب أن ننظر إليه بكثير من الشفقة. وفي بوليفيا كان اسمك Chato Peredo ، وقد لجئت إلى أدغال اليماني، وكنت على أهبة زيارتك لما حاصرك واعتقلك جيش الجنرال ميرندا. لقد تقابلنا لما كان إسمك Julio وكنت معتقلا في السجن المركزي لمدينة لاباز. وفي البرازيل كان اسمك Carlos Marighali وكنت تعيش مختفيا مغيرا طول الوقت عنوانك وشعرك المستعار. وكنت تدعي أيضا Tito de Alencartina وقد رموك آنذاك في زنزانة شبيهة بـBoati بلا فراش ، بلاغطاء. ألم نتقابل مائة مرة من قبل في سايجون، في بنوم بنه، في مكسيكو، في صاوبوولو ، في ربو ، في هونج كونج، في لاباز ، في عمان، في دكا، في كلكوتا في كولومبو؟".

إنه وضع الماء الذي يبقى نفس الماء بنفس الثوابت سواء اتخذ شكل السائل، أوالجامد، أوالضباب،

----

* Oriana Fallaci :Un Homme –livre de poche

أوشكل جبل الجليد،أوشكل القطرة، أوشكل المحيط بكل قطراته. معنى هذا أننا نكتشف أو نتذكر من حين لآخر أن الإنسان هو الإنسان في كل إنسان مما يعني ***أن كل إنسان هو ممثل الإنسان*** .
تبهرنا الفكرة مثلما يبهرنا البرق الخاطف يشق بنوره اللامع جبل السحب الرمادية .
لكن لوتتبعنا هذه الفكرة وتعمقنا فيها لوجدنا أنها تقودنا لفكرة أغرب ،هي الآخرى موجودة منذ غابر الزمان في الوعي الجماعي لكنها بقيت مطمورة تحت كثافة أفكار الصراع والخوف.
تظهر هذه الفكرة ثم تغيب ثم تعود للسطح لتغيب من جديد لكن مع موعد جديد للظهور لا يبليها زمن ولا يوقفها مكان . إنها الفكرة التي تعبّر عنها أروع تعبير الآية القرآنية الكريمة " من قتل نفسا بغير نفس إو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا".
ما الذي تظهره الآية ؟***أن الإنسان هو ممثل الإنسانية*** ، أو على وجه التحديد أن الإنسانية تتبلور وتتجسد وتتمثل تختزل في كلّ إنسان. لا غرابة أن يكون قتل فرد واحد بمثابة قتل الجميع وإحياء فرد واحد بمثابة إحياء الكلّ.
إن الفكرة على عمقها وغرابتها قد تكون أسهل فهما و قبولا للقبلي وللوطني والقومي لو عاد لتجربته الخاصة في علاقته مع مستويات هويته . هو مستعدّ للتضحية بحياته من أجل قبيلته وشعبة وقومه وهذا أمر بديهي بالنسبة له . لكنه مستعدّ عندما تبلغ وطنيته أو قوميته ذروته المخاطرة بكل ما يملك وحتى حياته من أجل **فرد واحد** من بني جلدته . تذكروا موسى وهو يقتل المصري الذي أساء معاملة عبد عبري وما انجر عن الحادثة من تبعات غيرت مجرى التاريخ . إن الذي حرك موسى لمثل هذه الفعلة هو رؤيته كل قبائل بني إسرائيل ممثلة في هذا العبد العبري وبالتالي اعتباره أن الاعتداء الذي تعرض له هو اعتداء على الجميع.
إن أشكاليتنا مع الوطنية الفاسدة نسيها وتناسيها أن الوطن ممثل دوما في كل مواطن ، أنه يجب معاملة هذا الأخير لا على اساس أنه خادم العلم وإنما على اساس أنه هو نفسه العلم . وهي عندما تدنس المواطن بالتعذيب والظلم والتخويف، لا تدنس عبره إلا الوطن الذي تدعي خدمته والحال أنها صادرته لتحقيق أخسّ المآرب لمجموعة ضيقة فقدت الارتباط بالوطن الحقيقيي وأصبحت مثل خلايا السرطان المجنونة التي فقدت ارتباطها بالجسم كنظام له مصلحة أعلى من مصلحتها .
ومن هذا المنطلق يمكن فهم مغزى فكرة أنّ الإنسان هو ممثل الإنسانية والإنسانية متجسدة في كل إنسان ، بما أنها نفس الآليات الفكرية والنفسية التي حركت موسى وإنما المستوى هذه المرة هو أعلى مستويات الإنتماء .
أعلى المستويات ؟ هل نحن متأكدون من الأمر أم هل نحن بصدد ارتكاب نفس الغلطة التي حاسبنا عليها بشدة هنتنجتون. هل تتوقف هويتنا عند انتمائنا للبشرية أم هل ثمة مرتبة أعلى قد يكون إدماجها هي الأخرى في الصورة التي نكونها عن أنفسنا أداة إضافية لتعميق وعينا بأنفسنا وربما أداة إضافية لتحسين ظروف البقاء؟
لنتذكر هنا علاقتنا المأساوية بالحيوان والدور الذي يلعب في ما نسميه إنسانيتنا ولاإنسانيتنا على حد السواء. ولو تأملنا بعمق في هويتنا على هذا المستوى لاكتشفنا أننا أعضاء عائلة وحي وقبيلة وشعب وأمة وبشرية ***ليست سوى غصن من دوحة الحياة*** المحملة بما لا يحصى من أغصان الكائنات الحية... وكل جنس من الأجناس أعجوبة في حد ذاته تطورت فيه قدرات الخالق عزّ وجلّ إلى حدود الإعجاز.
معنى هذا أن التفاضل بين الأجناس والتفوق المزعوم الذي اختلقه الوهم الإنسانوي لا يقل خطأ وخطيئة عن سلم التفوق المزعوم بين أمم البشر وثقافاتها .
ولو تأملنا الآن بعمق في كل شخص لاكتشفنا أنه لا يختزل في ذاته القبيلة والشعب والأمة والإنسانية وإنما الحياة ذاتها . إن ما لا ينتبه له الوعي العادي هو أن جسم كل واحد منا يختزل كل قدرات الحياة وكل تاريخها وكل غرابتها وجميع أسرارها .....وأنها نفس الطاقة الجبارة والقدرة الصامتة المتجذّرة في عمق ملايين السنين التي تحرّك كل الكائنات الحية دون استثناء .
ها قد تبخرت كل الثنائيات المصطنعة ذات المكونات المفصولة بحدود قاهرة : الفرد/ المجموعة ، الأنا/ الآخر ، المواطن/ الوطن، الإنسان / الإنسانية و حتى الإنسان / الحيوان .

فكل هذه الأسماء حالات لظاهرة واحدة بما أننا دوما ***جزء في كل و كل في جزء*** ، نحمل بصمات هذا الذي تسميه اللغة المقدّس وهو واحد في كل آدمي مثلما هو واحد في كل نبات وكل حيوان.
إن هذه الفكرة الرائعة والمروعة هي التي عبر عنها ايليا أبو ماضي في بيت من أجمل أبياته
فيا لك دنيا حسنها بعض قبحها ويا لك كونا قد حوى بعضه الكلاّ
وهي نفس الفكرة الرائعة المروعة للمعلّم الأسمى عبر عنها وهو يناجي في سكرة من الحب الصوفي الذات القدوس وقد تجلت لفكر مسحت يد الحب ما ترسب على مرآته من صور وأفكار العنف والخوف
إني عجبت لصب من محاسنه تختال بين أزهار بستان
فقلت لا تعجبي مما ترين فقد ابصرت نفسك في مرآة إنسان .
***

الضمانة.

ها قد حلقنا إلى أعلى- أو نزلنا إلى أعمق- مستويات الانتماء والحب و التصوف . لا بدّ للأسف من العودة إلى الواقع ، فقدر الإنسان أن تكون قدماه في الوحل حتى ولو كان رأسه بين النجوم . وحتى لا يفاجئنا السقوط إلى حيث توجد مشاكله بما لا نقدر على تحمله من الألم ، فلننزل من عليائنا درجة بعد درجة .

إذن ثمة خبر طيب وهو أن الوضع المحدد المعاصر- أو على الأقل جزء منه- بصدد فرز نوع جديد من الآدميين أصبحوا واعين بانتمائهم للبشرية و أن هذا الانتماء يحددها لهم كمشمولة بأمر تحريم العنف والتحريض على الحبّ . وهذا النمط موجود في الواقع من قديم الزمان، لكنه كان بعدد لا يسمح إلا بإعلان الفكرة وتعهدها إلى أن تحين لحظة تاريخية تجعل منها قوة فاعلة.

ثمة أكثر من دلالة على أن هذه اللحظة هي الفترة التي نعيش وذلك بفضل التكنلوجيا التي كدّست من جهة ما يكفي لتدمير هذا الكوكب ألف مرّة، في نفس الوقت الذي جعلت منه عمارة يستحيل عزل الحريق والوباء في طابق بينما يستطيع سكان الطوابق الأخرى مواصلة العيش الرغد الآمن .

ويعني هذا مجدّدا أن ظهور النص وشروحه ليس موضة فكرية ، إن تنامي الانتماء العالمي ليس حدثا عارضا . بل بالعكس فالنص جاء ليبلور ما كان ضروريا بلورته ولتنمية ما أصبح ضروريا تنميته مدفوعا ومحمولا بأقوى قوة ممكنة هي إرادة البقاء.

ماذا الآن عن الخبر السيء؟

صحيح أن التكنولوجيا تفتح آفاق البعض ولكنها تزيد أحيانا في غلقها عند الكثيرين، لا لشيء إلا لأنهم ورثة مائتي ألف سنة من التنافس المسلّح والخوف المزمن والبغضاء المتبادلة ، وهذا تراث لا يمكن التخلص منه بين عشية وضحاها.

يواجه اليوم كل شعب السيل المتدفق من الطائرات ،من الأجانب الذين ينزلون منها سواحا أو مهاجرين أو مسافرين، بقلق متزايد وتفاقم هاجس ضياع شخصيته ،أي تفتت المجموعة الحامية المحمية وذوبانها في تشكيلات أخرى مجهولة المصير والموقف .ثمة أيضا تداخل الصور والمعلومات والأفكار والعادات والتقاليد ، وهو الأمر الذي يؤدي إلى إظهار ما في كل ثقافة من نسبية ومحلية والحال أن قوة كل ثقافة في توهمها التميز والامتياز .

هاهي شعوب الأرض الفقيرة و الغنية على حد السواء ،شاهرة حدودها و جيوشها و خصوصيتها في وجه شعوب أخرى بحدة وخطورة لم يعرف لها التاريخ مثيلا . هاهم منظروا و ممارسوا التطرف العرقي

و الديني و الطائفي يصولون و يجولون يدعون لحروب القبائل والطوائف والأديان والحضارات.

هكذا تؤدي إيجابيات الوضع المحدّد التي تبلور الهوية الإنسانية إلى ردّة فعل- قد تكون عابرة وقد لا تكون- تتمثل في ترسيخ القبلية والطائفية والشعوبية والعنصرية.

لنلخص الوضع المعقد لشعور الانتماء في عالم اليوم .

ثمة مجموعات بشرية ما زالت معزولة، حتى ولو أن عددها يتناقص بسرعة، ويتوقف شعور الانتماء عند حدود القبيلة .

ثمة مجموعات بشرية أدمجت عبر القرون انتمائها القبلي القديم لكنها ارتقت إلى الإنتماء الوطني ولو أنه ثمة داخل هذه المجموعة الوطنية مجموعات يشكل انتمائها الوطني غشاءا رقيقا على انتمائها القبلي أو الطائفي .

ثمة مجموعات بشرية أدمجت عبر القرون الانتماء القبلي والانتماء الوطني لتصل إلى الانتماء القومي...علما وأنه توجد داخلها نفس الاختلافات في النضج التي رأيناها في المستوى الوطني.

ثمة مجموعات بشرية ارتفعت بوعيها وبشعور المسؤولية إلى مستوى تجمع شعوب وأمم نسميها الثقافة.

أما القاسم المشترك بين هذه المستويات الانتمائية –خلافا لحال مستوانا - فهو في سيطرتها على المال ووسائل توزيع الأفكار ناهيك عن كونها مدججة بالمعروف والمجهول من الأسلحة الفتاكة .

*

أي ضمانة يمكن أن يقدمها لنا النص بأن أفكاره وقيمه ستجد طريقها لعقول وقلوب كل البشر لتهديهم للطريق المستقيم حتى لا يبقى " المؤمنون الجدد' ' مجرد قبيلة عالمية " تضاف إلى قائمة القبائل المحلية التي بدأت تتشكل حتى داخل الأوطان العريقة وربما تصبح الشكل الأكثر انتشارا للتنظم البشري في هذا القرن ؟

آه لو استطعنا تطمين أنفسنا بحتمية انتصار مشروع هويتنا العالمية على المشاريع " المتخلفة " أو "البدائية " بالضربة القاضية ، لأنه مدعوم بقوى الحق والحقيقة.
المشكلة أن مثل هذه الطمأنة ممنوعة ومثل هذا الطريق مغلق على كل الأصعدة .
إن غرابة صاحب النص المؤسس لرؤيا جديدة ، لا تتوقف عند طرافته ككاتب بألف يد وإنما تتجاوزها إلى ما هو أهمّ من ذلك بكثير..إنها في بشريته المعلنة وحتى في ابتذال هذه البشرية.
ما حظوظ نصه إذن لفرض أفكاره وترجمتها إلى ممارسة فعلية لحقوق فشلت في فرضها حتى نصوص الآلهة والأنبياء؟
أي مصداقية لنص يطبخ في قاعات تعبق برائحة العرق والسجائر والقهوة وعطر النساء و يخرج من مساومة طويلة ومملّة لأشخاص عاديين ؟
نحن هنا على طرف النقيض مع نموذج الوصايا العشر التي يرسمها بأحرف من نار ونور إله جبار على صخور جبل مهيب أمام نبيه المشدوه المطالب بنقل أوامره و نواهيه إلى قطيع بشري ضلّ طريقه في شعاب الوادي.
أي ثورة هذه بل و هل تستطيع هذه الكلمة المبتذلة أن تدلّ على شيء بمثل هذه الجدّة ، بمثل هذه الغرابة ، بمثل هذا القطع الجذري مع كل الطرق التي جربها التاريخ في كتابة النصوص العظمى !

هل ركبت الإنسانية وركبها الغرور و هل لم تعد حقا بحاجة إلى لوح محفوظ يأتيها مباشرة من مصدر كل سر ومنبع كل قانون ؟ هل يعي المشرع العالمي بخطورة هذا النسيان ؟ هل له تقدير كاف للصعوبات و المفارقات التي قد يتعرض إليها بحكم هذه الهفوة ؟ هو يريد أن يفرض قانونا على الإنسانية جمعاء بقبائلها و شعوبها وثقافاتها المتناحرة المتخاصمة، و في نفس الوقت لا يخشى من التصريح بأن منبع قانون القوانين عقول حفنة من الرجال و النساء العاديين الذين تشغلهم هموم منحة التنقل و ضجر طول الجلسات و انتظار نهاية الأسبوع بفارغ الصبر .
أو ليس في هذا الحكم على المحاولة بالفشل المسبق لأن التناقض بين الغاية و الوسيلة كاريكاتوري ؟
ألا يعلم المشرع أن القانون لا يكون إلا مطلقا والمطلق لا يبني بالنسبي ؟ هل ستقبل البشرية بقانون إنساني المصدر تعرفه ضرورة ناقصا , قابلا للنقاش و الاعتراض, هي التي تجادل أوامر الله نفسه ؟
أما كان على المشرع العالمي أن يربط تشريعه هذا بمصدر كل قوانين لإعطاء أكثر ما يمكن من فرص النجاح لمشروعه الجبار ؟
إنها نقطة الضعف الأساسية والقاعدة منذ وجدت الإنسانية ومشاريع تخليصها من نفسها هو بناء هذه المشاريع على حقيقة مطلقة تضمن نصرها قوة مطلقة.

وهذه هي القوة المطلقة هي إما سلطة إله كالتي يؤمن بها أتباع الديانات السماوية ، أو سلطة قوانين موضوعية اكتشفها العقل العلمي كالتي آمن بوجودها الماركسيون ، أو سلطة غريزة قاهرة كتلك التي قال بوجودها نيتشه وداروين .
لا غرابة أن يربط البشر منذ عشرات الآلاف السنين كل قانون يسنونه بإرادة الآلهة كما يفعل اللقيط عندما يربط نسبه بجد خرافي ليستمد من اسمه قيمته أمام الناس.
صحيح أن هناك إشكالية كبرى بخصوص هذا السند الضامن لوجود المشروع وهو أن يكون وجوده هو نفسه مضمون الوجود . لكن حتى ولو وجدنا له ضامنا أعلى فما الدليل على وجود ضامن الضامن للمشروع ؟
إنها أشكالية نظرية مدوخة وفي نفس الوقت بغير قيمة لأنه يكفي أن يؤمن المرء بوجود الضامن حتى يصبح موجودا لأن فعالية الضامن في حدة الإيمان بوجوده وليس في وجود لا قدرة لأحد على ضمانه .

كان ماركس بأمس الحاجة للإيمان بوجود آليات تدفع عجلة التاريخ قدما لتحقيق الاشتراكية فاكتشفها كما يكتشف كل واحد منا ما يريد أن يراه من أشكال في قوافل السحب وجاريناه في العملية لأننا كنا نحن أيضا بأمس الحاجة للإيمان بوجود طريق عبدته آليات الجدلية المادية وسيصل بنا حتما إلى مجتمع اختفت فيه الطبقات. ولما طبقت نظرياته وظهر الإلحاد بالإلحاد، ظهرت محاكم التفتيش الشيوعية وتم صلب ورجم كل الزنادقة حسب السيناريو الكلاسيكي في كل الأديان الغيبية.
لا ينفع أن تتابع التجارب الفاشلة إذ لا تتغيّر إلا الأشكال الإيمانية بفعل الثورات داخل نفس العقيدة أو بظهور اشكال أخرى من خارجها. أما حاجة الإيمان بشيء ما قارّ فينا قرار الجوع والعطش.
وبغض النظر عما تعنيه هذه الحاجة وتعبر عنه بخصوص " طبيعة" البشر، فإنها حجر الزاوية في كل مشروع جدّي وإحدى ضروريات تحقيقه . لأن القانون... كالصك.
هو أيضا حبر على ورق ، لكن الحبر والورق إذا كان ورائهما رصيد ، فإن بوسعهما أن ينقلبا إلى فعل بحجم أهمية ما في الرصيد . أفرغ هذا الأخير ولن يبقى بين يديك سوى حبر القانون أو ورق الصك .
أليس من الضروري أن يسحب صك حقوق الإنسان على رصيد كرصيد الحقيقة العلمية و هل من ضمانة أكثر جدية من ضمانة السماء ؟ ألم يقل فولتير " لو لم يكن الله موجودا ...لوجب اختراعه " .
أي قيمة للقانون دون زخرف الطقوس و الرموز التي تعطيه جلّ فعاليته في لجم غريزة القتل ؟ أو لم يكن من الممكن في آخر المطاف الاعتماد على النصوص المقدسة الموجودة ليمر شيء من قدسيتها إلى الإعلان و بقية المواثيق , و لو بنوع من التطفل ؟
كأنني بالمشرّع العالمي يهزّ كتفيه غير مبال بالحجج المنطقية التي أقدمها له ومتجاهلا نصائحي السديدة بضرورة المسارعة لتدارك غلطة فادحة في هندسة مشاريع الخلاص . لا بدّ أن له حجج ومعاذير لا يفصح عنها وما عليّ إلا أن أجدها داخل النص ....أو أن أختلقها كما يفعل كل شرّاح النصوص .
ها هي حجج الكاتب ومعاذيره ولو أنها قد تكون حجج ومعاذير كاتب هذه السطورفقط .
أولا لم يكن من الممكن، والحالة على ما وصفها همفري بين أعضاء الشبكة التي دبجت الإعلان ،الاتفاق على إخراج مسرحي لإيهام الجماهير بأن النص وصل جاهزا معلبا من السماء حتى ولو تم الاتفاق على تحديث السيناريو – مثلا بجعل النص يسلم إلى الأمين العام للأمم المتحدة من قبل كائنات نورانية وصلت لتوها من مجرة العقرب على متن سفينة عابرة للمجرّات. إن أمرا كهذا غير قابل للتصور والفريق يعجّ بالملحدين مثل كورتسكي الروسي . ثم تصوروا الخصام بين المتدينين أنفسهم وعلى أي دين يجب أن تكون الكائنات النورانية ناهيك عما يفتح وجودها من جدل لا حصر له قد يضطر الجميع لمراجعة مقدساتهم .
ثمة سبب بديهي آخر لاستحالة بناء دين جديد لأن الأمر يؤدي مباشرة وآليا إلى إلى الدخول في صراع مع كل الأديان الأخرى, مما يعني رفع مستوى الفوضى والصراع إلى مستوى غير قابل للتصور والحال أن مهمة النص تخفيف حدة العنف بين السباع المشدودة لبعضها البعض في نفس القفص المتزايد الضيق.
ربما هناك سبب أعمق يتعلق بالشكّ الذي بدأ يتسلل إلى عقل صانعي مشاريع الخلاص بخصوص فعالية التقنيات القديمة . ماذا أظهرت تجربة خمسة آلاف سنة ؟ أنه يكفي إسناد القانون على إرادة السماء لكي يخضع له الإنسان كما تخضع الأجرام لقوانين الفيزياء!!!
طبعا لا ، فالإنسان يخرق القانون الإلهي المصدر كما يخرق القانون البشري . وإن خضع له فمكرها ومحاولا تطويقه بكل الممكن من الحيل . هو عادة أمام الله كالطفل أمام أبيه يتعامل معه بالابتزاز والتسول وأحيانا بالسطوعلى مسئولياته . ذلك لأن هناك داخل مثل هذه القوانين شيء ما يبعث على بلورة مثل هذه التصرفات الطفلانية وتنميتها .
إن قرونا طويلة في محاولة لجم العنف وتنمية الحب بالتخويف والتطميع لم تؤدي إلا لاستفحال الخوف والطمع دون أن تتقدم القضية الأساسية خطوة واحدة. فلو تابعنا حالة الحروب الرهيبة التي عصفت بصفوف المؤمنين أو بينهم وبين من يسمونهم الكفار والملحدين، وبين هؤلاء ، لوجدنا أن فعالية القوانين المحرضة على الحب والمحرمة على العنف كانت ضعيفة إلى أقصى حدود الضعف... وإلا لما وصلنا للوضع المحدد الحالي .

نفهم عزوف مشرعنا العزيز عن اللجوء إلى تقنيات قديمة أظهرت أن حدة التقتيل لا تقل برفع المصاحف على الرماح .
تبقى مع هذا و رغم هذا الإشكالية قائمة الذات .
فإذا كان مصير القانون المستمد شرعيته من الله نفسه بمثل هذا المصير , فماذا ينتظر المشرع من قانون لا يخفي البشر أنهم صانعوه وسنده الأوحد ؟
هل استبدلنا وهما بوهم يعبر العصور هو الآخر عبر عنه المعري :
كذب الناس لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء

أيها الغـرّ ان خصصـت بعقل فأسألـه فكل عقل نبـي

لكن هذا العقل- النبي هو الذي رأيناه وراء تقطيع جسد طوما في مختبرات أوشفيتز أو خلق الشيء الذي رمته الطائرة على هيروشيما ونجازاكي .
إن نفس الشك الذي اعترانا بخصوص فعالية القوانين المسحوبة على رصيد السماء هو نفس الشك الذي يعترينا أمام القوانين المسحوبة على رصيد العقل البشري....وشاهدنا دوما التاريخ لا تهمنا طرق التخلص والتبرير لمن هم عاجزون عن مواجهة الحقائق الرهيبة.
هل نكون قد أنهينا بهذا تحطيم كل معنويات القارئ و تدمير كل الدعامات التي يمكن أن تسند بنائنا وتضمن لنا بصيص أمل في حظوظ النجاح للمشروع العظيم .
إن أولى خصائص القوة الجبارة التي تحركنا والتي تسميها اللغة الحياة هي دون أدنى شك ....الاصرار وربما حتى العناد. انظر كيف تدمر الحروب والكوارث الطبيعية المدن والشعوب فترفع حالا أنقاض الخرائب ويبدأ البناء من جديد وكيف تنتفخ بطون النساء باستمرار ويتعالى صراخ الرضع والمقابر تفيض بالأجساد.
كذلك تدمّر تجارب بناء المدينة الفاضلة المفاهيم والأوهام والمشاريع العظيمة . فيعود لها الفكر مجددا بالتصحيح والتشذيب وتجديد الحلم ، كل هذا كارثة بعد كارثة ....إخفاقا بعد إخفاق ....إحباطا بعد إحباط .. وذلك إلى آخر يوم من أيام التاريخ ... إلى آخر نفس عند آخر إنسان .
إن المشرع العالمي بنصه حلقة في سلسلة الاصرار الخلاق أي جزء من عناد الحياة الذي تظهره بألف شكل على ألف مستوى . هذه القوة الجبارة هي ضمان تواصل المشاريع ، لكن ما سندها وأداتها في قضية الحال ؟
يشير المشرع بوضوح على من سيعهد إليه بالدور الأزلي عندما يكتب : "و لما كان تجاهل حقوق الإنسان و ازدرائها قد أفضينا إلى أعمال أثارت بربريتها **الضمير** الإنساني ."

الضمير الإنساني - وليس العقل- هو الذي يكتشف البربرية في الأفعال الناجمة عن التنكر لحقوق- حاجيات-واجبات الإنسان .

ومنه ستنبع إرادة التصحيح وعليه سترتكز شرعية وآمال كل العملية.

الضمير ! ما هذا ؟

تعاودنا الرهبة القديمة كل ما برز واحد من هذه المفاهيم – البعابع التي ندرك من البداية أننا سنتيه في محاولة تعريفها. تحضرنا هنا طرفة من قال في تعريف التعريف أنه محاولة تسييج فضاء من الأفكار الغامضة بحائط من الكلمات المبهمة . تحضرنا كلمة غاندي لما طلب منه تعريف الله بأنه محاولة لغة ناقصة لأناس ناقصين في فهم حقيقة كاملة.

لا يبقى علينا إلا أن ندور حول المفهوم دون وهم حول استنفاذ ما قد يكون همزة الوصل بين الإنسان وبين كل الأسماء والحالات التي تتخذها القوى المبهمة الجبارة التي تحركنا وتجعل منا ما نحن عليه.

وفي البداية هو واحد حيث لا تعرف له اللغة مثنى أو جمع .

هو "طاقة" موجودة داخل كل إنسان وربما داخل كل حيّ .

هو يبلور وجوده عبر رفضه للأعمال البربرية التي يقترفها الإنسان في حق الإنسان.

هو إذن "عين" داخلية تبصر وتقيم وترفض . هو مقياس يقيس صلاح الأفعال من عدمه.

هو بداهة حافظ القوانين الأصلية التي استبطنها البشر منذ بداية التاريخ والضرورية لتواصلهم في أحسن الظروف وعلى رأسها اعتبار الحياة أقدس ما في الموجود، وكل الكائنات تمظهراتها المقدسة ، والكرامة خاصية كل حي.

هو ليس فقط حارس البيت وإنما منبع كل الأفعال التي تعيد التأسيس فوق كل خراب.

لكن وجود الخراب وتكرره يعني أن الضمير موجود في حالات مختلفة من الانتباه . ثمة حالات يبدو فيها نائما، أو ربما مغلوبا على أمره، وكأن الأمور افلتت من سلطته .

كيف يمكن للضمير أن يضمر، أن يضيّع انتباهه ، أن يفقد سلطته لحظة على مجريات الأمور، مما يسمح بظهور الأعمال الهمجية التي تثير حفيظته ؟

ببساطة لأن الضمير البشري بما هو أداة تعديل وتدارك في خدمة وجود أرقى ليس إلا حالة، خيالا، صورة ، ترجمة، قبسا، تمظهرا، تموقعا ، تبلورا للحياة نفسها بكل آلياتها وأدواتها للحفاظ على مشروعها وتطويره . تصاب الحياة نفسها في الأفراد وفي الأجناس على حد السواء بالضعف بالتكلس، بالفشل ، بالتراجع .

معنى هذا أن سندنا الأوحد يرتكز على قوة جبارة لكنها تعرف الفشل والانتكاسة والنقص، حتى ولو كان لها من العناد والصبر والعبقرية ما يجعلها تتجدد كل لحظة في كل رضيع وفي كل نبتة وكائن حي جديد.

ها نحن أمام وضع حاولت كل رؤى الطمأنة تجاهله . يا لها من فكرة رهيبة أن نفهم، وان نقبل أخيرا، أنه لاشيء ولا حتى الضمير يضمن انتصار الحق على الباطل لأن الحياة نفسها في صراع مع الفوضى المطلقة التي تسميها اللغات الأوربية Chaos.

يتضح حجم ما يتهددنا من أخطار، وكم هو صعب طويل شاق غير مضمون النتائج هذا الطريق نحو المدينة الفاضلة التي أوهمنا أنفسنا من خلال العقائد الرائجة أنه مرسوم ومعبد .

الشيء الوحيد المضمون الوجود هو وجود آليات تصحيح الخلل وإصرارها على القيام بدورها إلى نهاية المغامرة العظمى سواء كانت بقاء الجنس البشري أو بقاء البقاء نفسه.

ما عدا هذا لا توجد إلا الآفاق الرحبة للمغامرة الآدمية وهي ككل مغامرة مخاطرة مجهولة المصير لآخر لحظة .

****

خاتمة

يستعمل كل نص قارئه ويستعمل كل قارئ نصه والقاسم المشترك بين الاستعماليين واحد: تحقيق منفعة .
إنها قاعدة يعرفها جيّدا الدجالون و يجهلها السذج و يتجاهلها " العلماء" المهووسون بالحقيقة والحال أن الموضوعية الوحيدة في التعامل مع النصوص اكتشاف طبقات وتقنيات التوظيف المتبادل.
ربما انتبه القارئ لكيفية توظيف كاتب هذه القراءة لنص الإعلان. وإذا لم ينتبه فما عليه إلا أن يبحث أو أن يعوّل على النقّاد لاكتشاف التقنيات المغلفة التي استعملتها لتمرير جزء كبير من افكاره تحت غطاء فكر المشرّع العالمي .
ولتبرئة الذمة أسارع للقول أنني استعملت النص فعلا للدفاع عن رؤيا معينة والعالم والإنسان لكن داخل فضاء هو فضاء النص أو جد قريب منه وفي كل الأحوال ليس مناقضا له.
والآن كيف يمكن للقارئ ممارسة نفس اللعبة ؟ ثمة عدة مستويات وطرق وهي مثل درجات السلم .
أمّا الدرجة الدنيا فهي تلك التي لجأ لها دكتاتورتونس في التسعينات عندما وضع النص في كل مركز شرطة.... والتعذيب على قدم وساق في كامل البلد .
إنها ظاهرة مبتذلة و شائعة منذ القدم تمثلت في لبس رداء الإسلام لمحاربة قيمه ،أو في شن الحروب الصليبية باسم المسيح أو في التشدّق ليلا نهارا بالاشتراكية للتغطية على مصالح المافيات والنومكلاتورا الحمراء ، أو في استحواذ على مفاهيم الوطن والوطنية لقتل المواطنية و قهر المواطن.
إنه منذ قديم الزمان تفويض ساقط بالمعنى الأخلاقي للكلمة. لكنه اليوم ساقط أيضا بالمعنى المادي ففي عصر شفافية المعلومة – أو قصر عمر لاشفافيتها- وسرعة التبادل وتعدد المصادر، أصبحت عملية التفويض هذه بمثابة طبع أوراق النقود المزيفة في وسط السوق على ناسخة مكتب وعلى ورق الجرائد.
ثمة درجة أعلى من مثل هذا الاستعمال الرخيص وهو المتاجرة بأفكار النص وقيمه . يا ما تحفل أسواق السياسة والنضال الحقوقي خاصة في عالمنا العربي، بصغار المقاولين الراكضين وراء تمويل دكاكين ومؤتمرات انفصلت عن كل قضايا وأخطار النضال لتنعم بورود علقت أشواكها بأصابع الآخرين.
هذا لا يعني أنه لا يوجد تفويض مقبول حتى لو تعلق الأمر باكتساب شهرة أو مكانة أو نفوذ شريطة ألا يؤدي إلى الإضرار بأحد أو بقضية . لنسمه التفويض الانتهازي المعتدل الذي يحاول خدمة المصلحة الخاصة دون التعرّض للمصلحة العامة. كم من مؤمن صادق لم يرى حرجا في الجمع بين الدنيا والدين ، بين الإيمان ومنافع الإيمان ! من يحقّ له اعتبار مثل هذا الأمر مذموما إللهم إلا إذا كان مسكونا بنصوص مجنونة تدعو للطهارة المطلقة وتفوّض طهارتها المزعومة للتغطية على دنس بلا قاع أو سقف؟
وفي حالة مواجهة الأطهار المتشدّدين لنا بضرورة خدمة النصوص دون البحث عن المقابل، يمكن إن فضّلنا التأدّب ، الردّ أنه لا حرج من الأمر بما أن هذه الأفكار تدّعي العيش من أجلنا فكيف لا تخدمنا قليلا . أما إذا فضّلنا الوقاحة فيمكنا أن نبعث بلائمينا إلى الشيطان مذكّرين أن القاعدة في هذا العالم أن تدّفع من يعيش على حسابك، ولو كانت الأفكار، معلوم خدمات.
نعم لا حرج ولا لوم على أحد في تفويض النصّ لتحسين ظروف بقاءه .فقلّ وندر أن نتمتّع بكل الحقوق الواردة في النصّ لا لشيء إلا لأن مطالبنا وحاجياتنا أكبر بكثير مما يستطيع أحسن وضع سياسي واجتماعي توفيره لنا. هكذا سيجد العامل المستغلّ والمثقف المضطهد وخادمة المنازل المستعبدة والصحافي المكبوت والمرأة المضروبة والسياسي المنفيّ والمريض المحروم من العلاج- وما أكثر الحالات – الدعم القوي لمطالبهم في نصّ أصبح المرجع في كل الخصومات المتعلّقة بما نحرم منه وهو ضروري لتواصل الحياة والرغبة فيها .

وبالطبع فإن هذا التفويض سيكون جدّ محدود حيث سيتركز على رفع راية النص لنيل هذا الحق أو ذاك ، في فترة محدودة من الزمن ولمجموعة محدّدة . وبعد الحصول على الحق يمكن العودة إلى تفويض نصوص أخرى وهكذا دواليك.
لنعتبر هذا النوع من الاستعمال ضعيفا بمقاييس القراءة حيث لا يساعد إلا الفرد على تحسين ظروف بقاءه.
يرتفع التوظيف درجة أعلى ونحن نستعمله كدليل واجباتنا لأنه سيحسن من ظروف بقائنا أكثر بكثير من توظيفنا له في اكتساب هذا الحق أو ذاك. فلا يعرف عن أحد أنه ظلّ الطريق وهو يستنكف عن الظلم والقهر والاستبداد وإذلال الآخر وسلبه رزقه أو حياته. ولو تمعنا بعمق في مفهوم الأخلاق لاكتشفنا أنها رد الفعل على تجربة كل الموبقات التي تصفها القراءة المضادة وحسمها فيها كأعمال تزيد من اخطار الحياة وتقلل من فرص البقاء للفرد وللمجموعة، حتى وإن حققت بعض الأرباح الآنية.
أخيرا هناك أعلى درجات التوظيف وهي عندما يتشارك عدد متزايد من الأفراد في استعمال النص كدليل للاضطلاع بمسؤولياتهم تجاه البقاء الجماعي ....عندما يصبح بديهيا لكل شخص أن كل شخص هو الممثل الشرعي والدائم للإنسانية وأن في احترام حقوقه احترام حقوق كل الإنسانية .
نصل هنا ذروة الاستعمال للنص وقد جعلنا منه أداة رئيسية في تغيير الوضع المحدد لكي يصبح أكثر تماشيا مع حاجة البقاء وتحسين ظروف عيش الإنسانية جمعاء .
كذلك يبلغ النص ذروة نجاحه وقد أصبحت الإنسانية جمعاء حافظة وجوده حاضرا ومستقبلا.
أليس هذا بالضبط هدفه وهو يريدك بصريح العبارة أن تحمله في عقلك وقلبك ، أن تضعه دوما نصب عينيك ، أن تفضله على بقية مشاريع الخلاص، أن تبقى وفيا له على الدوام ... أن تتجدّد لخدمة برنامجه .
هو يسعى في الواقع حسب تعبيره المفضل - على كل شخص - أن يجعلك طرفا في عقد يمكن تسميته عقد البقاء للجميع عبر تحديد ما لك وما عليك لإعطاء الأمر كل فرص النجاح .
فهل لك في مراجعة أخيرة للنص بوجهيه المتكاملين لتنخرط في مشروعه بكل وعي وحرية مما سيعني تغييرات جذرية في تنظيم مكتبتك الداخلية التي تشكل ذهنك وبالتالي تغييرات جذرية في المواقف والتصرفات التي تتحكم في تعاملك مع أخطر قضايا الإنسان .

*****

عقد البقاء

بين ......وبين الإنسانية

المادة الأولى

- لي(الرجاء كتابة الاسم بالكامل) الحق في أن أصنف من بين جميع الناس الذين يولدون أحرارا متساوين في الكرامة و"الحقوق -واجبات" ووهبوا عقلا وضميرا وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء.

- عليّ الالتزام بأنّ جميع الناس يولدون أحرارا متساوين في الكرامة و"الحقوق -واجبات " وأنهم وهبوا عقلا وضميرا وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء .

المادة الثانية

- لي حقّ التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة دون أي تمييز كالتمييز بسبب العنصر واللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو البلاد أو دون تفرقة بين الرجال والنساء.

- عليّ الالتزام بحقّ كل شخص في التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة دون أي تمييز كالتمييز بسبب العنصر واللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو البلاد و دون تفرقة بين الرجال والنساء.

المادة الثالثة

- لي الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصي .

- عليّ الالتزام بحقّ كل شخص في الحياة والحرية وسلامة شخصه.
المادة الرابعة
- ليس لأحد الحقّ في استرقاقي أو استعبادي.
- عليّ ألاّ استرق أ و استعبد أي شخص.
المادة الخامسة
- لي الحق في ألا أتعرّض من قبل أيّ شخص للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الحاطة بالكرامة
- لا أعرّض أي شخص للتعذيب أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.
المادة السادسة
- لي الحق أينما وجدت في أن يعترف لي بشخصيتي القانونية
- أعترف لكل شخص أ ينما وجد بشخصيته القانونية
المادة السابعة
- لي الحق أن أكون سواسية مع كل الناس أمام القانون و لي ولهم الحق في التمتع بحماية متساوية ضد أي تميز يخلّ بهذا الإعلان وضدّ أي تحريض على تمييز كهذا
- عليّ الالتزام بأن كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متساوية ضد أي تميز يخل بهذا الإعلان وضدّ أي تحريض على تمييز كهذا.
المادة الثامنة
- لي الحق في الالتجاء إلى المحاكم الوطنية لإنصافي من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها لي القانون.
- عليّ الالتزام بحقّ كل شخص في الالتجاء إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.
المادة التاسعة
- لي الحق في ألا يقبض عليّ أو أن أ حجز أو أ نفى تعسفيا .
- لا أشارك في القبض على أي إنسان أو احتجازه أو نفيه تعسّفا .
المادة العاشرة
- لي الحق على قدم المساواة التامة مع الآخرين في أن تنظر في قضيتي أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا للفصل في حقوقي والتزاماتي وأي تهمة جنائية توجه إليّ
- عليّ الدفاع عن حقّ كل شخص وعلى قدم المساواة التامة في أن تنظر في قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا للفصل في حقوقه والتزاماته وأي تهمة جنائية توجه إليه .
المادة الحادية عشر
- لي الحق أن أعتبر بريئا من كل جريمة إلى أن تثبت إدانتي قانونيا في محاكمة علنية تؤمن لي فيها الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسي
- عليّ اعتبار كل شخص بريئا من كل جريمة إلى أن تثبت إدانته قانونيا في محاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه.
المادة الثانية عشر
- لي الحق في عدم تدخل الغير تعسفا في حياتي الخاصة وفي شؤون أسرتي أو مسكني أو مراسلاتي أو لحملات تمسّ من شرفي وسمعتي ، ولي الحق في حماية القانون من مثل هذه التدخلات والحملات.
- عليّ عدم التدخّل تعسفا في حياة الغير الخاصة وفي شؤون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو شنّ حملات تمسّ من شرفه وسمعته و كذلك الاعتراف بحقه في حماية القانون من مثل هذه التدخلات والحملات.
المادة الثالثة عشر
- لي الحق في حرية التنقل واختيار محل إقامتي داخل حدود كل دولة ويحق لي أن أغادر أية بلاد بما في ذلك بلدي كما يحق لي العودة إليه .

- عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه في حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة ومغادرة أية بلاد بما في ذلك بلده وحق العودة إليه.

المادة الرابعة عشر

- لي الحق في اللجوء إلى بلاد أخرى أو محاولة الالتجاء إليها هربا من الاضطهاد ولا أنتفع بهذا الحق إن قدمت للمحاكمة من أجل قضايا غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

- عليّ الدفاع عن حقّ كل شخص في اللجوء إلى بلاد أخرى أو محاولة الالتجاء إليها هربا من الاضطهاد على ألا ينتفع بهذا الحق إن قدّم لمحاكمة من أجل قضايا غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئه.

المادة الخامسة عشر

- عليّ الالتزام بحقّ كل شخص في التمتع بجنسية ما وعدم حرمانه من جنسيته تعسفا أو إنكار حقه في تغييرها.

- لي الحق في التمتع بجنسية ما ولا يجوز حرماني من جنسيتي تعسفا أو إنكار حقي في تغييرها.

المادة السادسة عشر

- عليّ الالتزام بحقّ كل شخص، رجلا أو امرأة متى بلغ سن الزواج في تأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين وبحقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله وعدم إبرام عقد الزواج إلاّ برضا الطرفين ورضا كاملا لا إكراه فيه اعتبارا لأنّ الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها الحق في التمتع بحماية المجتمع والدولة.

-لي الحق رجلا أو امرأة متى بلغت سن الزواج في تأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين ولي حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.ولا يبرم عقد الزواج إلاّ برضا الطرفين ورضا كاملا لا إكراه فيه والأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها الحق في التمتع بحماية المجتمع والدولة .

المادة السابعة عشر

- *عليّ الالتزام بحقّ كل شخص* في التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره ولا حق لي في تجريده من ملكه تعسفا.

- لي الحق في التملك بمفردي أو بالاشتراك مع غيري ولا حق لأحد في تجريدي من ملكي تعسفا .

المادة الثامنة عشر

- عليّ الالتزام بحقّ كل شخص في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير الدين أو العقيدة وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء كان بمفرده أو مع الجماعة وأمام ملأ أو على حدة.

- لي الحق في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير الدين أو العقيدة وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء كان بمفردي أو مع الجماعة وأمام ملأ أو على حدة.

المادة التاسعة عشر

- عليّ ألا أمنع أي شخص من حرية الر أي والتعبير ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأي وسيلة كانت ودون تقيد بالحدود الجغرافية

- لي الحق في حرية الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأي وسيلة كانت ودون تقيد بالحدود الجغرافية .

المادة العشرون

- *عليّ الالتزام بحقّ كل شخص* في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية وعدم إرغامه على الانضمام إلى جمعية ما.

- لي الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية ولا يجوز إرغامي على الانضمام إلى جمعية ما .

المادة الحادية والعشرون

- عليّ الالتزام بالاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلادي ، إما مباشرة وإمّا بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرّا، وأنّ لي نفس الحق الذي لغيري في تقلد الوظائف العامة في البلاد، قابلا أن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات حرة نزيهة تجري على أساس الاقتراع السرّي وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

- لي الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلادي إما مباشرة وإمّا بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرّا ولي نفس الحق الذي لغيري في تقلد الوظائف العامة في البلاد قابلا أن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات حرة نزيهة تجري على أساس الاقتراع السرّي وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

المادة الثانية والعشرون

- عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه ، بصفته عضوا في المجتمع، في الضمانة الاجتماعية و في أن تحقق له بواسطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامته والنمو الحر لشخصيته.

- لي الحق بصفتي عضوا في المجتمع في الضمانة الاجتماعية في أن تحقق لي بواسطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامتي والنمو الحر لشخصيتي .

المادة الثالثة والعشرون

- *عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه* في العمل وفي حرية اختياره وفي شروط عادلة ومرضية و حق الحماية من البطالة وعدم التمييز في أجر متساو للعمل و الحق في أجر عادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه عند اللزوم وسائل أخرى للحماية الاجتماعية وله الحق في أن ينشئ وينضمّ إلى النقابات من أجل حماية مصلحته.

- لي الحق في العمل وفي حرية اختياره وفي شروط عادلة ومرضية كمالي حق الحماية من البطالة وعدم التمييز في أجر متساو للعمل ولي الحق في أجر عادل مرض يكفل لي ولأسرتي عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه عند اللزوم وسائل أخرى للحماية الاجتماعية ولي الحق في أن أنشئ وأنضمّ إلى النقابات من أجل حماية مصلحتي.

المادة الرابعة والعشرون

- عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه في الراحة وفي أوقات الفراغ ولا سيما في تحديد اجر معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية باجر.

- لي الحق في الراحة وفي أوقات الفراغ ولا سيما في تحديد اجر معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية باجر .

المادة الخامسة والعشرون

- عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة والحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته وللأمومة والطفولة الحق في المساعدة والرعاية ولجميع الأطفال حق التمتع بنفس الحماية الاجتماعية سواء كانت ولادتهم في إطار الزواج أو خارجه .

- لي الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية لي ولأسرتي ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ولي الحق في تأمين معيشتي في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته وللأمومة والطفولة الحق في المساعدة والرعاية ولجميع الأطفال حق التمتع بنفس الحماية الاجتماعية سواء كانت ولادتهم في إطار الزواج أو خارجه .

المادة السادسة والعشرون

- عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه في التعليم ويجب أن يكون التعليم في مراحله الابتدائية والأساسية على الأقل بالمجّان ويكون التعليم الابتدائي إلزاميا وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة للجميع وعلى أساس الكفاءة ويجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملا وإلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح بين الشعوب والجماعات العنصرية والدينية وإلى تعزيز مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام وللآباء الحق الأول في تربية أولادهم .

- لي الحق في التعليم ويجب أن يكون التعليم في مراحله الابتدائية والأساسية على الأقل بالمجّان ويكون التعليم الابتدائي إلزاميا وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة للجميع وعلى أساس الكفاءة ويجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملا وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح بين الشعوب والجماعات العنصرية والدينية وإلى تعزيز مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام وللآباء الحق الأول في تربية أولادهم .

المادة السابعة والعشرون

- عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه في الاشتراك اشتراكا حرّا في حياة المجتمع الثقافية وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه و الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الفنّي أو الأدبي.

- لي الحق في الاشتراك اشتراكا حرّا في حياة المجتمع الثقافية وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه ولي الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجي العلمي أو الفنّي أو الأدبي.

المادة الثامنة والعشرون

- *عليّ السعي إلى أن يتمتع كل شخص بحقه* في التمتع بنظام اجتماعي ودولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاما

-لي الحق في التمتع بنظام اجتماعي ودولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققا تاما .

المادة التاسعة والعشرون

- لي ولكل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيتي أن تنمو نموا حرا كاملا.

-لا أخضع ولا أخضع في ممارسة حقوقي وحرياتي إلا لتلك القيود التي يقررها القانون مستهدفا لأمنها منها ضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها لتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي و لا يصح بحال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها .

المادة الثلاثون

عليّ مثل على كل شخص آخر الاعتراف بأنه " ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخوّل لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه " .

الإمضاء

إهداء

قد لا تكون هذه الحقبة من الزمن أصعب ما عرف البشر، فكل فترة في التاريخ كانت بالنسبة لمن عاشوها ....أصعب فترة في التاريخ .إلا أنّه من الثابت أن حقبتنا هذه تتميّز بصعوبات غير مسبوقة حيث تعدّدت وتفاقمت واختلطت الأزمات البيئية والاقتصادية والسياسية والثقافية والروحية، بكيفية تنذر بتعاظم أخطار هي حقا محدقة بنا منذ فجر التاريخ، لكنها أصبحت قادرة لأوّل مرّة على الإنهاء الفعلي لوجود إنسانية تبدو كأن بها رغبة عارمة للإنتحار.

تعرك عالم اليوم بصفة عامة – وعالمنا العربي بصفة خاصّة- قوى دمارهائلة ، ليس من باب البلاغة شكلا والمبالغة مضمونا، وصفها بالجنون . فهي تتبلور عبرمواقف وتصرفات تقوقعت على واقع خاصّ انفصل عن الواقع العامّ وتعالى عليه ، تبرّر وجودها وافعالها بمنطق العصمة والطهارة ، ترفض تبعات أفعالها وتردّ على المقاومة الطبيعية لآثامها بمزيد من التقوقع والعنف.

وعلى رأس هذه القوى المدمرة نجد الليبرالية المجنونة التي جعلت من الربح الفئوي المادي القصير المدى لأقلية أنانية هدفا أعلى من الحفاظ على البيئة والسلام والحقوق الاقتصادية والاجتماعية للأغلبية الساحقة من البشرية ،مكدّسة الثرروة والخوف على ضفة هاوية تتسع يوما بعد يوم وعلى ضفتها الأخرى الفقر والضغينة .

ثمة الاستبداد المجنون الذي يضع في كفة كرامة و حقوق وحريات شعب أو امة، وفي الكفة الأخرى الحكم المؤبّد لمنفعة شخص وبطانته ، فترجح بالفساد والقمع والتزييف كفة مصلحة الشخص والعصابات المحيطة به على كفة مصلحة الشعب والأمّة.

ثمة أخيرا إرهاب مجنون تمارسه الدول، ومنها التي تدعي الديمقراطية، وتمارسه الجماعات المتطرفة عرقيا ودينيا ، ويمارسه اشخاص وكلهم يدعون الانتقام للأبرياء أو الحفاظ على أرواحهم والحال أنه ليس لإرهابهم إلا نتيجة واحدة هي تغذية عنف من يحاربون فإذا بنا كلنا ندور في حلقة مفرغة جهنمية .

لا غرابة أن تترعرع في ظل هذا الوضع المسموم الأفكار المجنونة الداعية للاستعداد لصراع الحضارات والأديان والأعراق والشعوب والقبائل وأفخاذها، أو الأفكار المجنونة الداعية للهروب من الواقع المجنون باعتناق صنف أو آخر من شعوذة مغطاة بمسحة دينية تزيد في استلاب البشر وبؤسهم.

لكن القوى التي تعرك العالم ليست فقط قوى التدمير، وإنما أيضا قوى لا تقل تجذرا وفعالية وإصرارا عنها هي قوى الخلق. وهذه القوى الحاملة للمستقبل بكلّ إمكانياته وصعوباته هي التي تستظلّ اليوم، بصفة جزئية او كلّية، بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

فمن البديهي أنه لم يعد ممكنا فرض قيم أي خصوصية ثقافية على بقية الثقافات لا بقوة الحيلة ولا بقوة السلاح مما يعني أنه لا بد من قيم مشتركة قاطعة للثقافات تكون قاعدة القانون الدولي والقاسم المشترك في مستوى الأخلاق العامة .

لا وجود اليوم لغير الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لتأدية هذه المهمة .

لذلك هو أكثر من أي وقت مضى المرجعية الفكرية للشبكات المحلية والأقليمية والعالمية المناضلة، محليا ودوليا ، من أجل النظام الديمقراطي والتنمية العادلة والحفاظ على البيئة واستتباب السلم داخل الشعوب وبينها .

و نحن العرب بأمس الحاجة اليوم لأن نغرس في ثقافتنا العربية الأسلامية قيمه لننمي ثقافتنا في الاتجاه السليم ولنندمج في فضاء أصبح القرية الأرضية وزمان هو زمان العولمة بكل سلبياتها وإيجابياتها ، بكل أخطارها ووعودها .

كم يثلج الصدر أن تحتل الشبكة العربية مكانا متميّزا داخل الشبكة العالمية الجبّارة التي تنشر قيم تواصل البقاء وتحسين ظروفه ، أن تكون بمثل الزخم والحيوية التي تظهره منذ انطلاقها في نهاية سبعينات القرن الماضي.

لقد ألقى التاريخ على كاهلها مسؤولية عظمى حيث هي المطالبة بالتصدّي للأفكار المجنونة وغرس وتعهّد الأفكار العاقلة علما وأنها ستدفع غالي الثمن ولن تجني الثمار.

ولأن الطريق طويل ومحفوف بالمخاطر ولا قبل لأحد بضمان الوصول إلى الهدف الأسمى، فإن التضحيات الجسيمة ورائنا والتضحيات الجسيمة أمامنا .لا بدّ إذن لكل ابطال وبطلات الخفاء من كثير

من الشجاعة والصبر دافعهم الأوحد للاستماتة في نشر وتفعيل أفكار الإعلان أن النضال دوما أهمّ من نتائجه مثلما الطريق أهمّ من كل محطة نصلها .
إلى رفاق ورفيقات هذا الطريق، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ،أهدي هذه القراءة لنصّنا العظيم .

***

المنفى – 60 بعد هيروشيما

الفهرس



المؤلف : طبيب و كاتب و سياسي عربي من تونس

الكتاب

"لا غرابة أن تترعرع في ظل هذا الوضع المسموم الأفكار المجنونة الداعية للاستعداد لصراع الحضارات والأديان والأعراق والشعوب والقبائل وأفخاذها، أو الأفكار المجنونة الداعية للهروب من الواقع المجنون باعتناق صنف أو آخر من شعوذة مغطاة بمسحة دينية تزيد في استلاب البشر وبؤسهم.
لكن القوى التي تعرك العالم ليست فقط قوى التدمير، وإنما أيضا قوى لا تقل تجذرا وفعالية وإصرارا عنها هي قوى الخلق. وهذه القوى الحاملة للمستقبل بكلّ إمكانياته وصعوباته هي التي تستظلّ اليوم، بصفة جزئية او كلّية، بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان .
فمن البديهي أنه لم يعد ممكنا فرض قيم أي خصوصية ثقافية على بقية الثقافات لا بقوة الحيلة ولا بقوة السلاح مما يعني أنه لا بد من قيم مشتركة قاطعة للثقافات تكون قاعدة القانون الدولي والقاسم المشترك في مستوى الأخلاق العامة .
لا وجود اليوم لغير الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لتأدية هذه المهمة .
لذلكا هو أكثر من أي وقت مضى المرجعية الفكرية للشبكات المحلية والأقليمية والعالمية المناضلة، محليا ودوليا ، من أجل النظام الديمقراطي والتنمية العادلة والحفاظ على البيئة واستتباب السلم داخل الشعوب وبينها .
و نحن العرب بأمس الحاجة اليوم لأن نغرس في ثقافتنا العربية الأسلامية قيمه لننمي ثقافتنا في الاتجاه السليم ولنندمج في فضاء أصبح القرية الأرضية وزمان هو زمان العولمة بكل سلبياتها وإيجابياتها ، بكل أخطارها ووعودها ".